#954



أقفاص فارغة

مالم تكتبه: فاطمة قنديل

مكتبة

رواية

أقفاص فارغة

*

مكتبة | سُر مَن قرأ

#954



أقفاص فارغة
روايـــــة
الطبعة الأولى : ٢٠٢١
رقم الإيداع : 21148 / 2021
الترقيم الدولي : 1-146-803-977-978
الغـــلاف : دعاء العدل

الكتب خان للنشر والتوزيع ®
13 شارع 254 ـ دجلة ـ المعادي ـ القاهرة.
تليفـــــون : 20225196569+
بريـد إلكتروني : info@kotobkhan.com
موقع إلكتروني : www.kotobkhan.com

فهرسة أثناء النشر
الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية المصرية

قنديل، فاطمة
أقفاص فارغة: رواية/ تأليف: فاطمة قنديل، ـ ط١. ـ القاهرة: الكتب خان للنشر والتوزيع، ٢٠٢١
٢٥٨ ص، ٢٠ سم
تدمك: 1-146-803-977-978
1 ـ رواية
أ ـ العنوان
رقم الإيداع: 21148
الطبعة الأولى ٢٠٢١



أقفاص فارغة

رواية

#954

ما لم تكتبه:

فاطمة قنديل



علبة شوكولاته.. صدأتْ للأسف!

(١)

داخل أحد الأدراج، ظلت علبة «الشوكولاته» طوال الوقت، في كيس بلاستيكي. حملتها من بيتي القديم مع سائر أشيائي «الثمينة»، وضعت بداخلها بضع أوراق، كي أضحك عليها في شيخوختي؛ قصائد قديمة كتبتها في الثانية، أو الثالثة عشرة، بالقلم الجاف: الأحمر، والأزرق، والأخضر، على ورق لامع سميك. ظللت أفتح العلبة، من وقت إلى آخر، وكلما فتحتها رأيت الكلمات المكتوبة تنطمس أكثر فأكثر، لكن الورق بقي سميكًا، ولامعًا، كما كان! إلا من ثقوب أسنان الأقلام. لا يهم، ما تبقى منها لم يعد يضحكني منذ زمن بعيد، ظل يدفعني للابتسام، لسنوات، ثم صار لا يعنيني، على الإطلاق، لم أعد أتأمل الكتابات الطفولية، ولم أعد أعبأ بانطماسها. شيئًا فشيئًا، كلما كبرنا، صارت طفولتنا، البعيدة، غريبة، و«مضجرة»، لا لشيء، إلا لأنها تذكرنا، طوال الوقت، أننا كبرنا.

لا أعرف ما الذي دفعني هذا المساء، لأن أتأمل العلبة نفسها، كنت قد أخرجتها من الكيس القديم، بعد أن لاحظت أنه متسخ جدًا، وآخذٌ في الاهتراء، وضعتها في كيس بلاستيكي جديد، مع بضع أوراق قديمة، وبضع صور لأعمل عليها، ذات يوم. لم أتأمل الأوراق هذه المرة، أخرجتها من العلبة، وأزحتها جانبًا.

اكتشفت أن العلبة المصنوعة من الصفيح، لم تعد تنغلق، انثنت أطرافها، وانزلق المسماران، اللذان كانا يثبتان ظهر العلبة بها، الغريب أن المسمارين لم يقعا، وبقيا معلقين، كل ما حدث أن الانثناء جعلهما بعيدين عن الثقبين؛ اللذين يدخلان فيهما، حاولت بكل الطرق أن أقوّم انثناء الصفيح، وإغلاق العلبة، لكنني لم أفلح، كلما عدلت ثِنية الصفيح من ناحية، انبعجت من الجانب الآخر، لكنني أفلحت أخيرًا في جعلها تنغلق نصف انغلاقة، ليست محكمة. نزعت المسمارين كي أحتفظ بهما، فربما أصلحها في يوم آخر، وضعتها أمامي على المكتب هذه المرة، وجلست أتأملها، ربما للمرة الأولى في حياتي.

(٢)

على سطح العلبة كتابة بخط جميل: Cadbury Milk Tray Chocolates الكتابة على شريط بنفسجي اللون، من نسيج الصفيح نفسه، مائل بطول العلبة، كأنه الضلع الثالث لمثلث، وتحت الشريط رسومات لقطع، ذات أشكال مختلفة، من الشوكولاته، التي، من المؤكد، كانت، كلها، داخل العلبة يومًا ما. على الجانب، وفي أقصى اليمين، مكتوب وزن العلبة بالإنجليزية والعربية: ٤٥٤ غراما، وإيضاح "بالإنجليزية فقط": "Including Foils" ابتسمت، لهذه الدقة الموجهة لمن يقرأ الإنجليزية، ولم تُترجم للعربية! وخمنت أن الشوكولاته كانت مستوردة، بلا شك، من بيروت، على الأرجح، فكلمة "غرام" توحي بهذا، بحثت عن أية

معلومات أخرى فلم أجد، قلبت العلبة لأتأمل ظهرها الآخر، كان من الصاج الفضي، الذي صدأ.

(٣)

رسومات الشوكولاته جميلة؛ مربعة ومدورة، وكل شكل له تصميم مختلف، بعضها "سادة"، وبعضها منبعج قليلا، ويمكنني أن أخمن أنها محشوة بالبندق، لونها البني، رغم بهتانه قليلًا، يوحي بأنها كانت شوكولاته "أصلية"، لا بد أنني شعرت بالحسرة وأنا أتناول القطعة الأخيرة منها، خصوصًا أنها علبة صغيرة نوعًا ما، ولابد أنني كنت أنفرد بها في ليالٍ شتوية (هكذا يحلو لي أن أصنع المشهد) تحت البطانية، وفي حضني قطّي "ميشو" على الإستوديو الصغير الموضوع في الصالة، حيث كنت أنام، (لم تكن لي غرفة خاصة في هذه الطفولة البعيدة) أخمن أنني التهمت معظم العلبة، فـ"ميشو" لم يكن يحب الشوكولاته، وأخمن أن أبي، وأمي وأخويّ، قد تناول كل منهم قطعة واحدة، وتركوا الباقي لي (لم يكن ينافسني أحد، وقتئذ، على هذه المتع الصغيرة) أخمن أن سعادة ما ظلت تسكن هذه العلبة، أخمن أنها تفوح منها، وربما لهذا عاشت طوال تلك السنين، وربما تظل في مكان ما، حتى بعد أن أموت.

(٤)

لا أفكر، جديًا، في إصلاح العلبة بشكل جذري، في إدخال المسمارين في الثقبين المعدين لهما، وإغلاقها تمامًا، شيء كالاختناق، كالاحتضار، ينتابني كلما حاولت، كأنني لو أغلقتها، هذه المرة، بعد إصلاحها، لن أتمكن من فتحها أبدًا، سأتركها غير محكمة الإغلاق، لكنني سأحرص، أشد الحرص، على ألا تسقط، ويتبعثر ما فيها على الأرض.

حاولت أن أتذكر من أين أتت، بلا جدوى، لا يهم، فلديَّ ذاكرة مثقوبة لم أعد أعبأ بترميمها، المؤكد أنها كانت "هدية"، والمؤكد أنها لم تكن من علب الشوكولاته تلك، التي كان يحملها الزائرون لأمي في مرضها الأخير، أولًا؛ لأنها من النوع الفاخر، وثانيًا؛ لأن شكلها يوحي بأنني كنت طفلة حينذاك. الاحتفاظ بالعلبة، نفسه، يدل على ذلك، أعني الاحتفاظ بها "فارغة"، دون أن تضع فيها أمي ـ كعلب الشوكولاته الأخرىـ بكرات الخيط بألوانها المتعددة، و"الكوستوبان"، وأطقم الإبر، المغروسة في ورق أسود، وفضي، ولم أضع أنا فيها "طاقم أسنانها"، الذي ما أزال أحتفظ به، حتى الآن، في كيس من النايلون، مع نظارتها ـ ذات اليد المكسورة، وكذلك ما توارثْته، وانتقل إرثه لي، بعد موتها، خصلة من شعر جدتي، "فاطمة"، التي ورثت عنها اسمها، ولم أرها.

(٥)

لا أظن أن السعادة الكامنة، وحدها، هي ما حافظ على العلبة طوال هذه السنين، كم من السعادات المفقودة دون أثر! أظنها ابنة لحظة "زهو" أيضًا، لحظة دخول سيارة فارهة إلى شارعنا، حتى إن الجيران خرجوا إلى الشرفات ليتأملوها، هبطت منها بنتان، تفوح منهما العطور الغالية، وأبي جالس بالبيجاما والروب، (أتذكر هذا الروب الصوفي الثقيل، لأنني كنت أرتديه لسنوات بعد موته، واعتبرته إرثًا خاصًا، لم ينازعني عليه أحد، في ما يبدو) واضعًا ساقًا على ساق، ويضحك، (من المرات القليلة التي أتذكر فيها أبي ضاحكًا)، كان هذا، على الأرجح، في عام ١٩٦٩، (وربما يصلح هذا مبررًا لدخول شوكولاته "مستوردة" إلى بيتنا)، كانت البنتان تضحكان معه، وتربتان عليه (لا أرى أمي في المشهد، هي لم تكن تغار عليه، على أية حال) كان أبي فخورًا بتلميذتيه "السعوديتين"، اللتين تزورانه في مرضه، لا أتذكر تمامًا هل كانتا من تلامذة مدرسة "الليسيه" حيث واصل العمل بعد إحالته للمعاش؟ أم كانتا تتلقيان منه درسًا خصوصيا "نادرًا وثمينًا" في تلك الأيام.

غالبًا هما من أتيتا بالعلبة، فالبهجة الدفينة فيها، وتذكّري الزيارة، والجيران في الشرفة، كانت أمورًا دافعة للزهو، لا محالة، لزهو لا يمكن أن تستشعره إلا فتاة، في الحادية عشرة من عمرها، وما تزال تتذكر، وهي تجاوز الستين، ظلام الصالة المُشرّب بنور المطبخ الواهن، وقد غطت رأسها بالبطانية تلتهم الشوكولاته، وتربت على شعر "ميشو"، وتمسك به، بعنف، كلما حاول التملص منها.

(٦)

في ليلة بعيدة، بعيدة جدًا، أيقظني "رمزي" من نومي. كان يحمل في يده شيئًا ملفوفًا بملاءة ممزقة، أيقنت من ملامح وجهه المتجهمة أنه لا يحمل لي قطعة شوكولاته، وبصوت تغالبه الدموع قال لي:

"كان لازم أصحيكِ علشان ندفن ميشو".

كان "ميشو" مريضًا جدًا في الأيام الأخيرة، لدغه ثعبان، وهو يتجول، مغامرًا، في الصحراء المتاخمة لبيتنا، ولم تفلح العقاقير في شفائه. في الحديقة الخلفية للبيت، وتحت شباك غرفة النوم ـ التي ستتناوب الحياة فيها بعد ذلك ـ أخذ "رمزي" يحفر، ثم أودعنا، سويًا، الجسد الثقيل الحفرة، وغطيناها بالتراب، وأمام شاهد خشبي مكتوب عليه اسمه، (اقتلعته الريح بعدها بأيام، ولم نفكر في البحث عنه) قرأنا له، بجدية بالغة ـ الفاتحة.

تحت الشباك، في ما بعد، وفي البقعة نفسها، نبتت شجرة خشخاش، ذعرت أمي، وقطعتها، خوفًا من ملاحقة قانونية، حذرها منها جارنا الضابط الشاب، متفهما جهلنا بالكارثة، التي تنمو في غفلة منا، لكنها نبتت في العام التالي، كان الأخوان قد رحلا منذ زمن طويل، ضحكتُ حين رأيت زهورها البديعة تطل من جديد، في العام التالي، قلت لأمي: "يرزق من يشاء بغير حساب!" لكنها ذات صباح رمت علي جذورها زجاجة كيروسين كبيرة، وأشعلت فيها النار. لم تنبت، أبدًا، بعد ذلك، انتهت تماما، كأية جذور تُطعن في عمقها.. هكذا.. إلى الأبد.

(٧)

هل ماتت فعلاً؟! تحولتْ إلى حكاية أتندر بها مع أصدقائي، وبخاصة المولعون بتدخين الحشيش، وبعد أن كففت عن حكيها، بأعوام طويلة، وتحديدًا بعد موت أمي بأيام، كانت الضمادة المُغطى بها جرحها مرمية في "البانيو"، مع جلبابها، الذي انتزعناه عنها، كنت أتأمل الضمادة، كآخر ما تبقى منها، امتلكت الجرأة، ذات صباح، وقررت دفنها في البقعة ذاتها، التي نبتت فيها شجرة الخشخاش، والتي دفنتُ فيها "ميشو"، أيام الصبا، كأن البقعة اكتسبت حضورها، منذ الموت الأول، كقبر، في الحديقة! حين حملتها بحنان يليق بضمادة جرح أمي، وجدت أشياء بيضاء تتحرك، حدقت فيها، وكأن مسًا كهربيًا ضرب جسدي، كنت أصرخ صراخًا هستيريًا، وأنا أرى الدود ينهش ما تبقى من لحم الجرح على الضمادة، لكنني تمالكت نفسي في النهاية، وحفرت الحفرة ذاتها، وألقيت بها في جوفها، ثم ردمتها على عجل، وقرأتُ ـ وحدي هذه المرة ـ الفاتحة.

(٨)

نعم كان "الزهو"، الزهو، الذي استعدته في ذلك المساء، زهو الطفلة، التي كان مدرسوها يضعون في يدها ـ خلسة ـ التمارين الرياضية الصعبة عليهم، لتسلمها إلى أبيها، ينظر إليها باستهانة: "مش عارفين يحلوا دي؟! قال مدرسين أوائل قال!" ثم تعود إليهم، في الصباح التالي، بالحل،

لم يكن زهو من تتباهى بأبيها، لا، كان زهو تلك الطفلة: "حاملة السر".

"تعرفي الراجل السكران ده؟!"
"ما أعرفوش".
"ده بينده عليكِ!"
"ما أعرفوش".

كان سكرانًا "طينة"، هابطًا يتطوح من المترو، ينادي عليّ فعلًا، بصوت ممطوط، لكنني أسرعت في خطواتي، وتجاهلته تمامًا، لتبقى تلك اللحظة، عمرًا بكامله، وحتى الآن، لا يمكنني نسيانها، أو تجاهلها، حتى وأنا أصب لنفسي قدح البيرة من جديد، وأحاول أن أتفهم كل دوافعه، حتى وأنا أرقب نفسي سكرانة "طينة"، وأفرغ ما بجوفي، كأنها اللحظة الأبدية للعار، العار، الذي يقطن أمعائي من يومها، ولم يكن باستطاعتي، أبدًا، أن أفرغه.

(٩)

ماذا لو أنني غافلت البنات وعدت إليه؟ ظل وقتًا طويلاً يتسكع، مخمورًا، على محطة المترو، في قلب الظهيرة! ماذا لو أنني واجهته، ونظرت في عينيه مباشرة، فقط، نظرت في عينيه باحتقار وغضب؟! لكنني لم أفعل، تركته ينجو بما فعل، حتى أنه تجاهل الأمر تمامًا، وهو يتجول أمامي، في اليوم التالي، في البيت، بسرواله الداخلي الواسع من "التافتاه"، الذي يصل إلى أعلى ركبتيه، وقد أدخل فيه "الفانيله"، ويخرج ليسقي

الزرع في الحديقة الأمامية، المواجهة لشرفات الجيران، كل ما فعلته أنني انفجرت غضبًا في أمي: "إحنا مش اتفقنا أنه مايخرجش الجنينه "باللباس"؟ يلبس بنطلون بيجاما طيب.. حنفضل في القرف ده لإمتى؟! ربنا ياخده".

ماذا، أيضًا، لو أنني ناديت الممرضة، كل ثلاث دقائق، في المستشفى الخاص، لتغير لأمي سروالها؟! لكنني لم أفعل، أجلستها على الكرسي المتحرك، ونزعت عنها سروالها، وجذبت قميص نومها لأعلى، ونزعت وعاء البول من الكرسي، وقلت لها: "على راحتك خالص، ما تتكسفيش، يا ماما، أنا اللي حأنضف"، كان البول يغطي أرض الغرفة، وكانت أمي مطمئنة، وممتنة لي، وكانت رائحة الجلوكوز تنضح من الماء المتدفق، بينما أمسك بمسحة، وأمسح الغرفة كلما غمرها الماء، كنا وحيدتين، وحين أتت الممرضة ـ بعد ساعات ـ لتتسلم "الشيفت"، وتقيس الحرارة، لم تلحظ؛ لا الأرض اللامعة للتو، ولا المريضة النظيفة، بسروال ناشف، وقميص نوم برائحة منظف هادئة، وقد أعدنا كل الأشياء، بعناية، كما كانت، (أمي على السرير، والكرسي المتحرك خاويًا، ووعاء البول نظيفًا، في مكانه) لم تلحظ، أيضًا، تلك المرأة المنهكة، شبه النائمة، على كرسي المرافق، وهي تنتفض من كرسيها لترحب بها.

(١٠)

تقول أمي إن الحديقة ماتت بعد موت أبي، ومعها حق، كان يرعاها بدأب، رغم أنها لم تكن سوى حوض صغير مستطيل، لا يكفي إلا

لزراعة بعض النباتات المتسلقة على جدران السور، بخلاف الحديقة الخلفية الأكثر اتساعًا. لم نشم رائحة الياسمين، أبدًا، بعد موته، وظل الحوض المستطيل مجرد حوض طيني، ناشف. وبعد سنوات صار مطفأة سجائر، يتحرج الضيوف في البداية من إلقاء السجائر فيه، وهم جالسون معي في الشرفة، فألقي بسجائري واحدة تلو الأخرى، وسرعان ما يمتلئ.

بعد أن ماتت أمي، لم أعد أجلس في الشرفة كثيرًا، وذات صباح فوجئت بالحوض وقد صار مخزنًا لأقفاص دجاج فارغة، حملها أحدهم، كغنيمة، ليخبئها هناك؛ عشرات من الأقفاص، المكدسة فوق بعضها، احتلت كل المساحات بين الشرفة الصغيرة، وسور البيت، حين رأيتها جن جنوني، وأدركت أن البيت صار مستباحًا تماما، كأنه "مهجور"، وكأن لا وجود لي فيه! ظللت أنتظر صاحب الأقفاص أيامًا بطولها، لكنه لم يظهر، كان مزيدًا من الأقفاص يتراكم في غفلة مني، أو في نومي النهاري المعتاد، أمضيت ليالي أمنع نفسي، بصعوبة، من إشعال الحريق فيها، وليحترق البيت معها، وليكن ما يكون، وذات ليلة قررت أن أحملها كلها إلى السطح، كان غضبي عارمًا، وكفيلاً بأن يمنحني القوة لأن أصعد ببضعة أقفاص تلو الأخرى، حتى أنهيت المهمة، خبأت الأقفاص كلها فوق السطح، الذي يمكن أن نصعد إليه ببضع سلمات، وإمعانًا في تكدير صاحبها، غطيتها بملاءات قديمة، ورغم التعب شعرت بالسعادة، وبالزهو، وأنا أتخيل من أودعها حديقتي مرعوبًا من اختفائها المفاجئ. نمت بعد الفجر، نمت حتى ليل اليوم التالي، وحين صحوت، صعدت متلصصة إلى السطح، فلم أجد الأقفاص، ذهبت كلها، ولم يُعدها صاحبها، أبدًا، إلى الحديقة، بعد هذا اليوم.

(١١)

زيارة أخي لأمي، في ذلك النهار، آتيًا من المطار مباشرة، وأنا أرقب خطواته الصاعدة تل مستشفى "المقاولون العرب"، وأتنفس من الأعماق، كانت متعجلة، على غير ما اتفقنا عليه، في مكالمتنا التليفونية، قبيل مجيئه، أخبرني أنه لن يستطيع المكوث إلا ليومين، على الأكثر، سيجلس مع أمي بالنهار، وسأتولى وردية الليل، تركته معها، وعدت إلى البيت، أخذت حمامًا ساخنًا، ودخلت إلى الفراش، بدا فراشي غريبًا، لكنني شممت عطر وسادتي الأثيرة، فنمت، حتى أيقظني تليفونه بعد ساعتين:

"أنتِ جايه امتى؟!"
"هو أنت مش قاعد لبليل؟"
"قاعد.. بس تعالي بدري قد ما تقدري".

لم أستطع النوم بعدها، شعرت بأن أمي في خطر، نهضت متوترة، وارتديت ثيابي على عجل، وحملت حقيبة المبيت. حين وصلت، وجدت أمي هادئة، ومبتسمة، في فراشها، فهدأتُ، قال لي إن زوجته اتصلت به قبل قليل، وإنه مضطر إلى اختصار الزيارة ليوم واحد، لأنها أخبرته أن ابنته الصغرى مصابة ببرد شديد. كان مرتبكًا كأنه يريد الفرار، قال لي إنه سيبيت الليلة عند أهل زوجته، وسيمر غدًا صباحًا على المستشفى، في طريقه للمطار. حين دخلت الممرضة ابتسمت في وجهه بأدب جم، لكنه تجاهلها، حرصتْ على أن تلفت انتباهه بتعليق لطيف، وبنبرة مرحة، وصاخبة، عن مدى عنايتها بالأم، لكنه أسكتها بنظرة حادة، فانسحبت بهدوء. لما دس في يدها ورقة نقدية أخذتها بعين منكسرة: "أي أوامر يا

دكتور"، حين أخذتُ أمي، بعد انصرافه، إلى الحمام سقطت مني على الأرض، فاضطررت لأن أستدعي الممرضة، أتت مسرعة، وحملتها، هممت بمساعدتها، لكنها دفعتني بيدها، وزعقت في وجهي: "دي مسؤولية، كان لازم تنادي عليّ"، حين دسست في يدها ورقة نقدية نظرت فيها، وابتسمت: "ماشي.. عشان الحاجة، ابقي اندهيلي لو عوزتي".

(١٢)

فكرة وجود "قارئ" لهذه الأوراق ترعبني.. أكثر من الرعب، كأنه العجز الكامل عن أن أواصل، القارئ، الذي طالما سعيت إليه، وكان يجلس على حافة مكتبي وأنا أكتب، أزيحه الآن بعنف، لا أريد أن يقرأ هذه الأوراق، لا أريد أن يتلصص على حياتي، لكنني أكذب أيضًا، لا يمكن أن يكتب أحد دون أحد، دون أن يشاركه شخص ما هذا الضجيج الساري في روحه، أقول لنفسي سيكون انتحارًا، وأقول لنفسي؛ ليس انتحارًا، أنا أريد أن أكشط قشرة جرح، كي يندمل في الهواء، أو لا يندمل، ويظل ينزّ دما، وأرقبه، وأمسح الدم "بقطنة مبتلة".

أصدقائي الأقرب إليّ يقولون لي: واصلي الكتابة، واليوم أخبرت زملاء لي في العمل يدرّسون النقد الأدبي، ويكتبون روايات تجارية: "أنا أكتب مذكراتي"، نظر لي أحدهم مستنكرًا: "لا.. لا.. حاسبي". والآخر؛ صاحب الرواية التجارية، قال لي: "اكتبيها بضمير الغائب!" ظللت طول اليوم أضحك من النصيحة الأخيرة، بضمير الغائب؟! أنا

أريد أن "أحضر" كما لو أنني كنت غائبة دائمًا، الحضور الكامل هو كل ما أحلم به، اليقظة، التي لا تفوت ضوءًا واحدًا في جوفي إلا حدقت فيه، حدقت فيه حتى يتلاشى، كعيون الميدوزا، لا أريد سوى أن أمسخ كل الذكريات إلى أصنام، ثم أكسرها، ثم أكنس التراب المتبقي منها، حتى ولو كنت، أنا نفسي، صنمًا من بين كل تلك الأصنام.

"ضمير الغائب يا راجل؟!"

(١٣)

أفكر بشراء صينية جديدة آكل عليها، الصينية البلاستيكية الصغيرة، التي أضع فيها الأطباق أصغر مما يجب، ولا بد أن يظل طبق من الأطباق مائلًا، نصفه داخلها، ونصفه الآخر في الفراغ، مهددًا دائمًا بالسقوط، أيضًا؛ الورود ـ السخيفة أصلاً ـ التي لم أتأملها، وأنا أشتريها على عجل، بهتت ألوانها، وبدت كما لو أنها متسخة طوال الوقت، مهما غسلتها، صحيح أنها من النوع الرخيص، لكنني من الممكن أن أشتري واحدة جديدة رخيصة، مثلها، ولن ترهق الميزانية؛ بسعر علبتي سجائر، أو ثلاث زجاجات من البيرة، المهم أن تكون جديدة، وأن تظل جديدة، ولو لشهر.

لست أستخدم الصينية لأنني أعيش بمفردي، أعرف أناسًا كثيرين، يعيشون بمفردهم، ولديهم منضدة صغيرة للطعام، يمسحونها كل يوم،

وأحيانًا، يضعون عليها الورود، وقنينتي؛ الكاتشاب، والمسطردة، وقنينتي؛ الملح، والفلفل. لم أفعل هذا أبدًا، ولم نفعل، كذلك، في بيتنا القديم، كأنه "طقس" مقدس، أن يضع أحدنا الطعام على الصينية، ويمضي وحيدًا، ومنفردًا بها، "رمزي" في غرفته يستمع إلى الموسيقى، أو يقرأ كتابًا، ماما بعد عمل اليوم الشاق، تحمل صينيتها، أو تحمل الصينية لـ"راجي"، المنعزل دائمًا في غرفته، بابا يحمل صينيته ويجلس في السرير، إلى جواره الراديو، يقلب إذاعات العالم، وإلى جواره، بالطبع، زجاجة البراندي ـ غالبًا، يقرأ في رواية بوليسية بالإنجليزية، بعد أن سمحت له أمي بالشراب داخل البيت، "تجنبًا للفضائح"، كما قالت.

لم تكن المسألة مجرد تضارب مواعيد، كلنا كنا موجودين، في الوقت نفسه، والصينية تتنقل من يد إلى أخرى. المتمرد الوحيد كان "راجي"، رغم عزلته الدائمة، أو ربما بسبب عزلته الدائمة، حين تأتيه "الفورة" كما كنا نسميها، كان يصر على أن نجتمع على المائدة، "مرة واحدة عايز أحس إني في عيلة"! لكنه كان يتصرف بسخافته المعهودة، يقرر لنا ميعادًا، ويرتب الأطباق، وخلافه، ولا يسمح لنا بالتأخر لدقيقة، وسط سخريتنا جميعًا، واستعارتنا لقفشات مشهد فؤاد المهندس"الأخ الأكبر" في فيلم "عائلة زيزي"! ثم ننصاع له ـ إلا بابا طبعًا ـ ونجلس على المائدة، ونحن نداري ضيقنا بالضحكات، نزدرد اللقيمات، لنتعجل الهروب، لكن الأمر كان يعود، بعدها، لسابق عهده. لم نكن نتحمل هذا الطقس العائلي، إلا مرة كل شهور، إرضاءً له فحسب، ولكي نريح رؤوسنا من إلحاحه، ثم يعود كل منا يبحث عن الصينية المعلقة، من طرفها، في مسمار، إلى جانب حوض المطبخ.

(١٤)

"أنا مش حافضل أصرف عليك طول عمري يا سي راجي، أنا مش حافضل أصرف على (شحط) زيك".

كان يزرر قميصه أمام المرآة، ويدخله في البنطلون، حين رد عليه بهدوء:

"وأنا مش حاسامحك على الكلمة دي، أبدًا، يا بابا".

كان هذا غالبًا في أواخر الستينيات، ولا أعرف، ولم أعرف أبدًا، لماذا ظل ذهني محتفظًا بهذا الحوار الجارح المقتضب حتى اليوم، لم يغب عن بالي أبدًا، كأنه الافتتاح المهيب للإلياذة! ظل هذا الحوار "أسطورة"، لا تنقضي، ولا تنمحي، ولا تُنسى، كأنه جرم أبدي تسطره يد القدر أمامي، أنا الطفلة في الحادية عشرة، بين الكبيرين؛ أبي، وأخي الأكبر، جرم ستتحول به المصائر، "راجي" إلى ألمانيا، وأبي إلى الموت.

(١٥)

مؤقتًا. استأجرت ماما لراجي غرفة، في عمارة تحت الإنشاء، بيننا وبينها شوارع قليلة، وكذبنا كلنا على بابا، وأخبرناه أن "راجي" التحق بكلية التربية في أسيوط، قسم الرياضيات. كانت السنة الوحيدة، التي نجا فيها من الثانوية العامة، بعد خمس سنوات متتالية من الرسوب، بسبب

عدم دخوله الامتحان، يخرج في الصباح، ثم يجلس على المقهى، حتى ينتهي الامتحان، ويعود إلى البيت، لتتلقى أمي الفاجعة المتوقعة في نهاية كل عام.

في السنة الوحيدة التي دخل فيها الامتحان، وقُبل في كلية التربية، استراح أبي، فابنه سيكون مدرسًا، مثله، على أية حال، بل أفضل منه، فأبي، بعد ضياع حلم الالتحاق بكلية الهندسة، اضطر إلى الاستسلام للواقع، وبأن يعمل ويعول جدي وإخوته، التحق بمعهد معلمين متوسط، متخليًا عن حلمه، دون تردد، بينما ابنه "الفاشل" لا يريد أن يقبل بمؤهل عال، يفوقه، ويجنبه كل التضحيات، والدأب، اللذين جعلا من أبي، رغم المؤهل المتوسط، أهم مدرس رياضيات في مصر الجديدة، لأن "راجي" ورث عنه الحلم، الحلم فقط، أن يكون "مهندسًا"، دون أن يبذل أي جهد من أجله. كان أبي يحمل حلمه كجثة في أعماقه، بينما حمله "راجي"، برعونة من يتناول طفلاً حديث الولادة، من يد أمه، ويؤرجحه، بعنف، أمام عيني أبي المكلوم.

(١٦)

السير في شوارع مصر الجديدة في الظهيرة، بعد العودة من المدرسة، ولم أزل "بالمريلة"، أحمل "عامود" الأكل لراجي، وأتجنب-حسب توصيات أمي- الشوارع التي قد يمشي فيها بابا، عائدًا من مدرسته، مغامرة لطيفة. في جيبي نقود سأعطي "راجي" منها الجزء الأكبر، لكنني سآخذ مكافأتي

أيضًا، عن الرحلة المحفوفة بالمخاطر، وعن "كتماني" السر، وسيستقبلني "راجي" بابتسامة عند الباب (كان قد ترك الكلية في أسيوط، وقرر أن يعيد الثانوية العامة للمرة السادسة! مصرًا على تحقيق حلم الهندسة!) أحيانًا، كان يسمح لي أن أتقافز على سلم العمارة، الذي لا سور له، بشرط أن أحترس ولا أقع. سأمر في عودتي "بكشك" السجائر على الناصية، لأقف مع أصدقائي؛ أولاد البواب فيه، كي يستريحوا قليلاً، أو يلعبوا، لا أتذكر، وسيمدح أبوهم قدرتي على التعامل مع زبائن الكشك، حتى العمال، الذين يشترون "سيجارتين فرط"، كنت أعاملهم بلطف، (مبالغ فيه، لإثبات مهارتي في التجارة، كأجدادي) فيشكرونني، بمودة، ثم أذهب إليه، وأعطيه "العهدة" مع المكسب، فيقول لي: "وشك حلو علينا قوي، ياريت تيجي كل يوم". وكنت أرجع إلى البيت ـ بعد إتمام المهام كلها ـ طائرة من السعادة.

(١٧)

"أنا بافكر في الانتحار.. أيوه.. حتصحوا تلاقوني موتت نفسي".

لم يكن تهديدًا، كنت أعنيه تمامًا، وهي تسير إلى جانبي صامتة، لا أتذكر ردها عليَّ، لكنها سألتني عن أسبابي، دون شك، لأنني أتذكر جيدًا، وحتى الآن، الأسباب التي ذكرتها، أتذكرها خالية، بالقطع، من الحواشي، والانفعالات، والنحيب. أتذكر، أيضًا، الشارع، الذي كنا نسير فيه، وأنا أضرب "الطوب" على الأرض بحذائي الأبيض الكاوتشوك:

"بسبب بابا، والزفت راجي.. ربنا ياخدهم.. هما الاتنين سوا".

لقد دفعتِ ثمنًا باهظًا لهذه الجملة يا فاطمة.. ولا تزالين تدفعين ثمن هذه الأمنية، التي كنتِ تعنينها تمامًا.. نعم.. كنت أتمنى لهما الموت، من أعمق أعماق قلبي، ولم يشفع لي أنني كنت في الثانية عشرة من عمري. نحن ندفع ثمن مثل هذه الكلمات القاتلة، حتى وإن كنا صغارًا، حتى وإن لم نكن نعرف معنى الموت، ونعرف أنه يقبع دائمًا، مختبئًا، في مكان ما، يخطف كلماتنا من أفواهنا، وتصير جوهرته الثمينة، كنزه المخبأ، وبحافتها المسنونة، ينفذ المهمة تمامًا، كما سمعها، ويجز أرواح من تمنينا موتهم.

(١٨)

لم أكن أنا، التي لن يجدوها في البيت، ذات صباح، كما هددتُ، بل كانت أمي، عدت من المدرسة، فلم أجدها في استقبالي، كالمعتاد، كان البيت كله غريبًا، "راجي" أغلق عليه غرفته، ولم يرهقنا بالنداءات على مطالبه، التي لا تنتهي، كما يفعل دائمًا. بابا عاد مهمومًا قبل موعده، مهمومًا، ولطيفًا جدًا معي، وعاطفيًا على غير المعتاد، "رمزي"، فقط، هو من أتى لي ليفهمني؛ أن ماما عند طنط "شريفة" "تعبانة شوية"، لم أفهم كيف تذهب ماما بمفردها إلى طنط "شريفة"، وهي تعرف كم أحب أن أصحبها إلى هناك! "حتيجي امتى؟" رد: "يومين كده"، ثم "زغزغني" كعادته، و"كركرت" من الضحك، وأنا أتملص منه.

"عارفة أنا حأغديكِ إيه النهاردا؟ بيض بالبسطرمة!"

كان يعرف أنني أهيم عشقًا برائحة البسطرمة المقلية بالزبد، أهيم بها إلى حد أنني بكيت بصمت، وأنا أطلب من ماما أن تشتريها لي قبلها بأيام، فأخبرتني بأنها: "ما معاهاش فلوس" و"والله حأشتريها لك أول لما نقبض"، كنت أنظر إليها، وهي معلقة فوق ثلاجة البقال، تفوح رائحتها، فأشعر بمعدتي تتقلص، وكنت قد كبرت بما فيه الكفاية، كي لا ألح عليها بالبكاء، و"الترفيص" في الأرض، لكنني لم أستطع منع دموعي، فابتعدت عنها قليلًا، لأتمشى حتى تتم شراء "التموين"، وحتى تنهي حوارها الشهري، المعتاد، مع البائع، حول ازدياد سوء أرز التموين شهرًا بعد الآخر، وكي لا تراني أبكي. ربما حتى اليوم، وبعد مرور كل هذا العمر، حين يراودني "الاشتهاء"، أي اشتهاء، حتى وإن كان لجسد آخر، تلوح لي صورة البسطرمة المعلقة، وأشعر برائحتها بين أنفاسي.

(١٩)

وقفتُ أرقبه في المطبخ، وهو يعد الوجبة المشتهاة، ودخل بابا، ووقف معنا، وهو يبتسم، وربت على رأسي، كقطة صغيرة.

لكنني أمضيت خمسة أيام، على الأقل بعدها، دون ماما، ولم أفهم سر ذلك المرض الخطير، الذي يجعلها تغيب عني طوال هذه الأيام، أمضيت، أيضًا، الأيام دون بيض بالبسطرمة، وأثنى "رمزي" على حسن تصرفي؛ كنت أشتري طبق الفول "بزيته"، من الكشك المقام لعمال البناء، على ناصية الشارع، من المصروف، الذي كان يعطيه لي بابا، والذي زاد

بضعة قروش للظروف الطارئة. لم أكن أتلقى مصروفي من بابا، كانت ماما تتولى الإنفاق، ربما هذا ما جعلني أشعر بالحرج من المطالبة، مرة أخرى، بالبيض والبسطرمة، واكتفيت بالفول.

ذات صباح أخذني بابا لرؤية ماما، رأيتها نحيلة جدًا، نائمة في سرير صغير في بيت طنط "شريفة"، لم تعد معنا كما توقعتُ، أخذتني في حضنها، ولا بد أنها بكت (لأنني أبكي الآن، وأنا أتذكر)، وعدنا أنا وبابا وحدنا، لكنه أخذني معه، في طريق العودة، إلى محل "أبو شنب"، بائع العصير، في "تريومف"، وكنت أحب هذه الفسحة جدًا، جلست على كرسي أمام المنضدة النحاسية الصغيرة، الموضوعة على الشارع، وأمامي "شوب" عصير قصب كبير، أرتشفه في استمتاع، رشفة صغيرة وراء الأخرى، حتى ينهي أبي زجاجة البيرة الكبيرة، التي جلس يشربها، صامتًا.

(٢٠)

عادت ماما بعد أيام طويلة، تتحرك في البيت ببطء، تنام كثيرًا، وامتلأ البيت بزوار لم يعتادوا زيارتنا، تصطحب خالتي، كل يومين، أو ثلاثة، أقارب لأمي، بينهم رجل مهيب وأنيق، كانت أمي تصطحبني أحيانًا لزيارته، وتناديه بـ"يا عمي"، في إحدى الشقق الفاخرة في "الكوربة"، لا أتذكر منها إلا "الفراندة" الواسعة جدًا، والدراجة الموضوعة إلى جانب الجدار، كي يتسنى لكل الأطفال، وأنا منهم، ركوبها في "التراس".

عرفت الحكاية من أحاديثهم المتناثرة عن ضرورة الصلح، والمساعي المبذولة من أجله، ثم عرفتها كاملة في ما بعد، لا أتذكر متى، لكنني لا أظن أن وقتًا طويلاً مضى حتى أعرف؛ أن أمي كانت في زيارة خالي، مالت على أذنه، لأن ضيوفًا كثيرين كانوا عنده، لتهمس له عن احتياجها لمبلغ من المال، فما كان من زوجته إلا أن قامت ـ وسط الغرباء ـ وصرخت في أمي: "كفايه بقا، سيبيه فـ حاله، حيجيب لك منين؟ حرام عليكِ". بهتت أمي، وانتفضت من مكانها في طريقها للخروج، حاول خالي اللحاق بها، لكن زوجته "أغمى عليها" فانشغل بها، وترك أمي ترحل.

(٢١)

الحكاية المؤكدة؛ أن ماما هامت على وجهها في الشوارع، الحكاية المؤكدة؛ أنها تناولت أقراصًا منومة كثيرة كي تنهي حياتها، الحكاية المؤكدة؛ أنها وهي تهيم في الشوارع، غير مصدقة مثل هذه الإهانة المتعمدة، ضربتها سيارة، لم يكن سائقها يسير بسرعة عالية، فأصابها ببضع كدمات وخدوش، استدعوا أبي إلى المستشفى، وأصرت ماما ألا تعود للبيت، كي لا نراها هكذا، أو كي لا أراها أنا، تحديدًا، وطلبت الذهاب إلى "طنط شريفة" ـ صديقتها الحميمة ـ حتى تتعافى.

(٢٢)

لم يتصالحا إلا بعد سنوات طويلة، وبمبادرة من أمي، قبل ذهابها للحج، عادت ذات يوم منفعلة، وأخبرتني أنها ذهبت إلى خالي، وأن زوجته قابلتها بالأحضان، كنت قد كبرت، وشارفت الثلاثين، فلم يعجبني هذا التسامح المباغت منها، وقابلت مبادرتها باستياء، بل قابلت خالي نفسه باستياء حين أتى لزيارتنا، وجلس يحكي، بفخر، عن بناته، اللواتي يعملن الآن في الفنادق الكبرى، بدا عجوزًا، لكنه لم يتخل عن أناقته المفرطة، وعلبة السجائر "الكنت" الفاخرة، والولاعة "الديبون" الذهبية. كنت قد تركت دراستي، وجلست في البيت بعد طلاقي، حاول التودد بعرض التوسط لي للعمل في أحد الفنادق، لكنني رفضت العرض، بتعالٍ مقصود: "أنا (شاعرة) يا خالي"، كنت أعرف أنه يراني "فاشلة"، وأن دفاعي هذا بأنني "شاعرة" ليس دفاعًا محكمًا، حتى أمام نفسي، وهو ينظر لي بإشفاق أبوي، أظنه حقيقيًا: "شاعرة إيه بس يا بنتي! لازم نشوف لك شغلانة بجد، حتى عشان تساعدي ماما". طفرت كراهيتي القديمة له، ولم أرد، بل غادرت الغرفة دون أن أسلم عليه. حين خرج، واجهت أمي بغضب: "الراجل التافه ده، اللي جاي يتمنظر علينا ببناته الخدامات في الفنادق، مش عاوزه أشوفه تاني". ردت ماما بضعف: "ما يقصدش يا حبيبتي"، فانفجرت فيها: "أنتِ تصالحيه أنتِ حرة، أنتو إخوات، بس أنا عمري ما حأصالحه، وعمري ما حأحبه، ومش عاوزة أشوفه هنا تاني".

كانت غضبتي عارمة، حتى أنني دخلت إلى غرفتي، وأخذت في تكسير كل شيء بها، استطاع خالي أن يضرب قاع الجرح بشراسة، كنت

أعرف أنني فاشلة، وعالة على معاش أمي، وأن نصيبي منه أقل من نصيبها بكثير، وأنني ألتهم هذا النصيب لسجائري فقط، وأن رصيدي "كشاعرة" لم يتعد بضع قصائد منشورة في المجلات، ولم أكن أتصور صفاقة أن يأتي شخص "غريب" إلى بيتنا، ليواجهني بهذا، في زيارة أتت بعد سنوات طويلة، ومريرة، من القطيعة، ليمارس دور الخال الطيب، الذي لم يكنه لي أبدًا.

كنت أعرف، كذلك، ما رفضت الاعتراف به بيني وبين نفسي، فلم تكن بنات خالي "خادمات" في الفنادق، كن يعملن "مضيفات" في أكبر الفنادق في مصر، ويواصلن تعليمهن الجامعي، ينفقن على أنفسهن، يرتدين أغلى الثياب، وينفقن على بيت خالي نفسه، بينما أجلس أنا إلى جوار أمي، لا أفعل شيئًا سوى كتابة الشعر، والتعزي بأن سعادة كتابته، وسعادة رؤية قصائدي منشورة، تلك التي تغمرني، أنا وماما سويًا، لن يعرفوها جميعًا أبدًا، لكنني لم أكن واثقة تمامًا، حتى في داخلي، من أنني أضع قدمي على أول طريق، حتى فكرة "الطريق" كانت مشوشة في عقلي!

في النهاية دقت أمي على باب الغرفة، ففتحت لها، أخذتني في حضنها، وبكيتُ بحرقة، حتى هدأتُ بين ذراعيها. في النهاية، لم أره مرة أخرى، بالفعل، مات بعدها بأسبوع، وطلبت مني ماما أن أذهب معها للعزاء، فرضخت، ربما تكفيرًا عن غضبتي العارمة. دخلتُ بيت خالي بعد سنوات طويلة، وقابلتني زوجته بالأحضان، "يااه! كبرتِ يا حبيبتي"، وانشغلتُ عنهم جميعا بتأمل المقتنيات الفاخرة لبيت خالي، حزنت أمي عليه حزنًا حقيقيًا، لكنها ضحكت معي في طريقنا للبيت، وأنا أقول لها: "الولية دي ما بتتهدش، لابسه، ومتشيكه، وعلى سنجة

عشرة، في عزا جوزها؟! بكره تتجوز تاني، وإيه البيت الفخم ده؟! كله م النصب، على فكرة يا ماما ما تزعليش أخوك ده بيفكرني بإستيفان روستي، ده حتى عامل شنبه زيه". وافقتني، وبدا لي، في تلك الليلة، وكأنها برؤت تمامًا من الجرح القديم.

(٢٣)

كان جرح أمي غائرًا، وكان خالي أخاها الوحيد، بعد أن مات الأخ الأصغر، الأحب إلى ماما "منتحرًا"، لأسباب ظلت غامضة، على العائلة، كلها. تبقى لأمي خالتي، وخالي الوسيم، منحته، وخالتي، توكيلًا للتصرف في ممتلكاتهما، هذه التي كنا ننظر لها بحسرة كلما تمشينا في "الكوربة"، سمعت هذه العبارة مئات المرات من ماما: "شايفة الست محلات دول اللي تحت البواكي، دول كانوا كلهم محل واحد بتاع جدك، باعه جدك وخالك عشان النسوان، كان زمانا مليونيرات"، عرفت أنه ـ وقبل زواجه ـ كان "دونجوانًا" صرف كل ما أمكن إنقاذه من ثمن بيع المحال، على "البت الجربجية" كما كانت تسميها أمي، سامحته الأختان، بعد أن أقسم لهما أن إرث جدي أثقلته الديون، وأن إصراره على عدم إشهار إفلاسه، أملًا في البدء من جديد بسمعة نظيفة في السوق، قد أتى على كل شيء، فصدقتاه، صرف كل ما لديه وتزوج بعدها، وأنجب الأبناء، الابن تلو الآخر. في سنوات رخاء أمي، حين سافر أبي إعارة للسعودية، تركت له أمي شقتنا في "تريومف" ليسكن بها، لشهور، كانت تردد: "أبوكِ كان كريم، كان ملاك لما يبطل شرب، عمره ما سألني بودي الفلوس فين"،

ظلت ترسل لخالي، كل شهر، مبلغًا ماليًا "مُعتبرًا" من السعودية، بل سددت "متأخرات" الإيجار للشقة، حين عادت، وأخفت الأمر، هذه المرة، عن أبي. عاشوا هناك، قبل أن تعود أسرتنا، مرة أخرى، إلى مصر، وقبل أن ينحدر الحال بها، إلى حد أن تلجأ إليه ماما، من وقت إلى آخر، للاقتراض، ظلت سنوات تردد في مرارة: "يطردني من بيته! قدام الناس! بسبب مراته تطردني قدام الناس! بعد كل اللي عملتهوله؟!".

(٢٤)

لا أتذكر أي شيء من بيت "تريومف" سوى ارتباطه بحكايات أمي عن مكوث خالي، وأسرته، فيه، أثناء غياب أسرتنا، يحكون أنه كان جميلًا، وأنيقًا، ورغم كراهيتي لمصر الجديدة، التي استمرت معي حتى الآن، فإن حنينًا غامضًا ينتابني كلما مررت بميدان "تريومف"، ولا أزال أراه - رغم الازدحام، والتغير - ميدانًا أليفًا.

حسب الحكايات، سافرت الأسرة إلى السعودية في ذلك الوقت، أتذكر فقط أننا سكنّا في شقة هناك، لا أتبين من ملامحها سوى سلم مظلم، يصعد إلى غرفة كانت مخزنًا، أو كانت جدارًا خشبيًا لشقة أخرى، لا أعرف، حتى الحكايات لم تعر هذه الغرفة ولا بيت السعودية اهتمامًا، كانت غرفة محرمة فحسب، أصعد درجة، أو درجتين من السلم، تحذرني ماما بصوتٍ عالٍ، وتنغلق ذاكرتي تمامًا، وتغرق في ظلام.

غالبًا كنت أتعلم المشي في ذلك الوقت، بلا ذاكرة. يحتاج الإنسان،

في ما أظن، إلى أن يمشي حتى يتمكن من صناعة ذاكرته بنفسه، لا من الحكايات، ويحتاج الإنسان إلى "مدرسة"، إذ يبدو لي أنها وحدها هي الكفيلة بصناعة الذكريات، الذكريات المؤلمة في معظمها، لأن الذكريات السعيدة خفيفة، لا تطيل المكوث في بيوت الذاكرة، عادة.

(٢٥)

لا أتذكر بيتًا قبل بيت "الألف مسكن"، شارفت السادسة حين انتقلنا هناك، حتى السويس التي ولدت بها، حين انتقل بابا إليها، (في ما يبدو لي، أنني ولدت ثم سافر وحده إلى السعودية، وكنا نزوره هناك، وهذا ما يبرر لي على الأقل انطماس معالم بيت السعودية تماما من ذاكرتي!) حتى السويس، المنقوشة في بطاقتي حتى اليوم، ما إن أحاول تذكر سنواتي الأولى فيها حتى يتمدد بحر في ذاكرتي، يشوش بصوته، وتمحو أمواجه أية ذكرى تشرع في اكتمالها. لكنني أتذكر كابينًا خشبيًا على البحر، حيث سكننا في حي "الكبانون"، الذي لم يعد موجودًا، تحيط بنا كبائن الخبراء؛ الروس، والإيطاليين، وسائر الجنسيات العاملة في "قناة السويس"، أوائل الستينيات. دائمًا ما تفوح في أرجائها رائحة السمك المشوي، والمقلي، ورائحة "الكابوريا"، التي اصطادها أخواي أثناء "جزر" البحر، وهما عائدان من المدرسة، يلقيان بها من كيس كبير أمام ماما، ويتعجلانها، وهي تصرخ: " استنوا شوية.. دي لسه بتتحرك.. يعني حاطبخها وهي صاحية؟!"، والفتى السويدي الجميل، يقفز بيننا يشاركنا الضحكات، والدق بالملاعق على الأطباق، فتنظر إليه ماما بحنان: "يا قلب أمك

يا ابني!" كانت تحنو عليه، وكان يلتصق بها "كأمه"، يفر إليها، وهو يصرخ من ضرب أبيه المبرح، فتخبئه في "كابينتنا" وهي تغمغم بشفتين مرتعشتين: "بيضربه بالحزام أبو توكه حديد.. الكلب ده.. عشان يتيم الأم.. قال "خبير سويدي" قال! خسارة فيه الولد ده.. الكلب!" لكن الفتى ـ رغم تعاطفي معه ـ لم يكن صديقي، رغم جماله الفائق، كان أكبر مني، في السابعة، ربما، أكبر مني كأخويَّ، "ماسيمو" الإيطالي، هو فقط صديقي، يكبرني بعام على الأكثر، بيننا لغة من الوشيش، هو يتصنع بها العربية، وأنا أتصنع الإيطالية، نختبئ تحت أية كابينة، ويقبلني وأقبله، على الرمال، وأمام البحر.

أتذكر، أيضًا، مطبخًا واسعًا لفندق ما، وأنا أجلس على كرسي صغير فيه، ويدًا تقدم لي كوبًا كبيرًا من الشاي باللبن والبسكويت، وبعدها كيسًا من السوداني المملح، لكن هذه الذكرى تحديدًا تكملها لي أمي، وهي تضحك: "مرة كنتِ عيانة فقعدتك في البيت، أو مش فاكرة، يمكن افتكرتك بتضايقيهم فقلت لك ما تروحيش الكازينو، عنها ولقيت المدير والطباخ جايين بعد الضهر وبيسألوني عنك، وزعلانين جدا، وبيقولوا النهاردة من غيرك كان نَحس، بقيت أسيبك تروحي بعدها".

تطمئنني هذه الحكاية، وربما حتى الآن، على أنني كنت طفلة "محبوبة" بشكل ما، بل ربما "محبوبة و"مشتهاة" كذلك، ليس من العاملين في الكازينو، الذين لا أتذكرهم إطلاقًا، وإنما من "سعد" الذي أتذكره جيدًا، أو أتذكر جيدًا، ذلك الفراش بملاءته المتسخة، ذات الرائحة الثقيلة، حيث تمدد "كسلويت" إلى جواري، عاريًا وأنا عارية، بجسده الطويل النحيل، وجسدي المشارف الرابعة من عمري، أفرجه على أعضائي، لا أتذكر

ما الذي كان يحدث تمامًا، لكن رائحة نفاذة كانت تملأ أنفي بعدها. لم أشعر بخجل، أو بضيق، كان لطيفًا وحنونًا، في ما يبدو، ولولا إلحاحه ألا أقول لأحد شيئًا، عما يحدث، "خصوصا ماما"، التي لم أعتد أن أخفي عنها شيئًا، لظلت نشوتي خالصة، وربما لهذا التحذير، المتكرر، تحديدًا، شعرت بالنفور منه، بعد لقاءات عدة، وهو يختلي بي في غرفته لأودعه، بعد أن أنهى دراسته الجامعية، وقرر العودة لبلدته، يومها تملصت منه، وهو يلاحقني إلى باب الغرفة، بإغواء امرأة في الثلاثين، وهو ما ظل يضحكني من الأعماق كلما تذكرته، ورددت بيني وبين نفسي: "نعم.. تملصت منه بإغواء امرأة جاوزت الثلاثين.. أدركتُ ضرورة إنهاء مثل هذه العلاقات العابرة!".

أتذكر، تمامًا، تلك اليد التي كانت تطوح بي في الهواء، تمسك بيدي بينما جسدي كله يطير، يغرق في نوبة هياج بحر، بأمواج تغرق الكبائن، أدخل في موجة فأكاد أختنق، ثم تنحسر عني، فأتنفس، وأتمكن من الصراخ، تعلو ضحكات "راجي"، وهو يقفز من سور كابينة إلى آخر، من بين الموج الذي يضربها فيغطيها، ثم ينحسر عنها، ويردد: "ما تخافيش يا جبانة، أنا ماسكك.. يا جبانة".

(٢٦)

لم أكن جبانة، بدليل، إنني في الحديقة الأمامية لبيت الألف مسكن، بعدها بسنتين، على الأكثر، كنت جالسة إلى جوار ماما، في إحدى

الأمسيات، كانت تحذرني قبل دخولي المدرسة من اقتراب الآخرين من جسدي، لكنني، وبنبرة اعتيادية تماما باغتتها: "ماما.. فاكره سعد اللي كان جارنا في السويس؟" حكيت لها كل شيء، ولم يخفني وجهها، الذي شحب تمامًا، كأنه قالب من الثلج، ولا شفتاها المرتجفتان وهي تردد: "يا ابن الكلب، يا ابن الكلب، حأقتلك يا ابن الكلب.. حأقتلك".

لكنها لم تقتله، ومر الحوار بسلام، هكذا بدا لي الأمر، خصوصًا بعد أن أخبرتها في تلك الليلة أيضًا، بما كان يحدث من "دادة فاطمة"، حبيبتها، التي تأتمنها على جسدها شخصيًا، وتُعريه تمامًا أمامها، لتنزع عنه الشعر "بالحلاوة"، دون حرج، حين كانت ترسلني لأبيت مع أبنائها في "عين شمس"، وكيف كانت تختلي بي هناك، في الظلام، وتعرفني على نوع آخر من المتعة!

كانت ليلة "فادحة" بالنسبة لأمي بلا شك، هكذا خمنتُ بعد أن كبرت، وكم أشفقت عليها من هول "اعترافاتي" الطفولية تلك، وأنا أغالب ضحكاتي، وحتى الآن، ولم أعرف ـ أبدًا ـ كيف أمضت تلك الليلة، أما أنا فمن المؤكد أنني نمت عميقًا بعدها، وقد بحت لها ـ كعادتي ـ بكل شيء، ومن المؤكد، أن لا أحداث جسيمة قد حدثت في الأيام التالية، وإلا لتذكرتها.

لم نتحدث أبدًا عن هذه الذكريات طوال حياتها، ويبدو أنها تخيلت أن عدم الحديث عنها سينسيني إياها. أنا، بدوري، لم أتطرق لهذه الذكريات أبدًا معها، حتى في أيام جلوسنا الطويلة في شرفة بيت "النزهة"، نتبادل الحديث، كصديقتين حميمتين، ونقلب الذكريات كلها

لساعات، وكلما هممت بسؤالها؛ السؤال الوحيد، الذي كان يشغلني، ويثير فضولي، بعد أن كبرتُ: لماذا لم ترسل بي إلى طبيب لتتأكد من بقاء عذريتي بعد ما فعله "سعد" تحديدا؟ ترددت، وخمنت الإجابة بأنها لا بد قد استشارت إحدى صديقاتها، وغالبًا "طنط شريفة" الأكثر حكمة دائمًا، فنصحتها بالتجاهل، أو قرأت في كتاب أن غشاء البكارة يعاود نموه في هذه السن، لم أعد، كذلك، أتذكر تمامًا حدود ما حدث في تلك اللقاءات، كأن رؤيتها بوضوح "تعكرت" إلى الأبد، فور أن قالت لي ـ بحسم ـ قبل أن أنام عميقًا في تلك الليلة البعيدة: "أوعديني.. عمر ما ده حيحصل تاني". فوعدتها، "احلفي على المصحف"، فحلفت، "أوعديني ما تخبيش عني حاجة تاني". فوعدتها وحلفت. لم يكن "حلفاني" على المصحف في تلك الليلة مفهومًا تمامًا لديَّ، كان من الصعب أن أستوعب رسالتين عميقتين، ومتضاربتين في عقلي في تلك السن مرة واحدة، وتعهدين "مقدسين" في الوقت نفسه، أحدهما "إلى الله" والآخر "لها"!

انتهى الأمر في الصباح، وذهبت، للمرة الأولى، إلى المدرسة، كفي الصغيرة في يدها، وأنا أشعر أن شيئًا جديدًا ينمو في قلبي، شيئًا ثقيلًا، أسميته، في ما بعد: "مولد الذاكرة".

(٢٧)

كنت، دائمًا، أردد أنني ولدت في السويس، في عام ١٩٥٨ وهذا مؤكد، وأنني ولدت في "كابين" على البحر، وهو ما ليس دقيقًا، لم أكن

أكذب، لأنني لا أتذكر، تمامًا، السنوات الأولى من حياتي، ولا حكاياتها، كما أنني رأيت صورة أن أولد مباشرة على البحر، تليق بشاعرة.

كان من الممكن أن أسأل أمي، لكنها ماتت للأسف، ماتت دون أن تعرف أن حكاياتها عن الماضي، والتي كنت أبدي ضجري منها، صارت ما أبحث عنه، ككلب صيد يشم رائحة طرائده، ويلهث وراءها. لا أقرباء لديَّ بإمكاني أن أسألهم، ماتوا، أو تقطعت ما بيننا الأسباب، فلم يعد أمامي سوى "الصور"، القليلة جدا، من بين ما ضاع، أو تمزق، وتأمّل التواريخ المنقوشة وراءها بخط أبي المنمق، الجميل.

لم أنس السويس، وحياتي فيها، أبدًا، ويبدو، وهذا ما أجاهد في ترميم ذاكرتي بشأنه، أنني ولدت قبل سفر أبي لإعارة السعودية، يبدو، كذلك، أنها كانت إعارة قصيرة، لسنتين أو ثلاث على الأكثر، ويبدو أننا عدنا مرة أخرى للسويس بعدها، حيث سكنا في ذلك الكابين الخشبي، قبيل انتقالنا لبيت "الألف مسكن".

ظلت السويس، على أية حال، ولسنوات طويلة، مصيفا لنا، أو بمعنى أدق لي ولماما، إذ لا أتذكر وجود أخويَّ في تلك السفرات المتعددة، يستضيفنا، بسعادة وكرم، بيت صديقتها "أم فؤاد"، متعددة الأبناء، والبنات. كان البيت من طابقين، أو ثلاثة، وظل البيت الوحيد، الذي ترسلني ماما وحدي إليه لأسبقها، ريثما ينتهي أخواي من امتحاناتهما، وأمضي فيه الأيام الطويلة، دون أن أبكي في الليل، أو أفتقد أمي.

أندس في أي مكان بين الأجساد، في غرفة البنات لأنام، مُمنية نفسي بفسحة الغد، بل إنني كنت أول المطالبين بـ "المصروف" من بين الأبناء،

حين أكون وحدي هناك، فتمنحه لي طنط "أم فؤاد" بسخاء، يثير غيرة باقي "العيال"، أو تُوكِل لإحدى البنات الكبار مهمة دفع مصروفاتنا، نحن أبناء العائلة، وأنا منهم، كل صباح، لنذهب، أول ما نذهب، إلى عربة "الجيلاتي" على الناصية، ثم نواصل طريقنا للبحر.

ربما يكون هذا البيت، هو البيت الوحيد، الذي جلست فيه على "طبلية" الإفطار، وسط "العيال" نلتهم أطباق الفول والطعمية بالعيش "المفقع" الساخن، ونخطف من أفواه بعضنا بعضا - مداعبين- اللقيمات الشهية. وربما كان، أيضًا، هو البيت الوحيد الذي أرسل "بناته"، رغم وجود "جدعين" في بيتنا، ليعشن معنا، الواحدة تلو الأخرى، أثناء دراستهن الجامعية في القاهرة، حين كنا في "الألف مسكن"، دون قلق، بل باطمئنان، بدلا من "البهدلة في بيوت الطالبات المغتربات".

لسنوات طويلة كنت أسافر إلى هناك، لم تنقطع سفراتي إلا بعد حرب ٦٧، كنا قد انتقلنا إلى "مدينة نصر"، وانتقلت معنا عائلة "أم فؤاد" كلها، ليقطنوا - بين المهجرين - في الجانب الآخر من شارعنا، وقرب مدرستي في "رابعة العدوية". لم تنقطع زيارات أمي لصديقتها، لكن الأبناء بدوا عازفين عن المرح القديم، يقابلون دعوتي اللعب معهم، بفتور، كانوا عائدين من السويس بعد التهجير، ورأوا بيتهم يتهدم أمام أعينهم، لم يعودوا "أطفالا" كما كانوا، فعزفت أنا، بدوري، عن اللعب معهم.

(٢٨)

لا أظن أن ماما قد اتخذت أي إجراء تجاه ما فعله سعد معي، رغم كل ما توعدتْه به في ليلة اعترافاتي، وإلا لكنت عرفت به في سفراتنا المتتالية للسويس، أو حتى بعد أن كبرت. انطمست القصة تمامًا، كأنها لم تكن، ولأننا لم نتحدث عنها، قط، صارت قصتي وحدي، أمتلكها، وأمتلك حرية حكيها، أمنحها بالحكي قوة الحياة، وألفها بحرص بالغ في قلبي، كأحد مقتنياتي الفريدة.

لا أظن، كذلك، أنها قد واجهت "دادة فاطمة" بما فعلته معي. لأن وجودها ظل مستمرًا في بيتنا، في الألف مسكن، وحتى بعد أن ذهبنا إلى "مدينة نصر"، وفي بيت طنط شريفة "موطن أسرارها"، ومنبع الحكمة، والتعقل في صداقتهما. على الأرجح، أنها اكتفت بمنعي من الذهاب معها للمبيت عندها، وغالبًا إنها "اختلقت" أعذارًا لـ "دادة فاطمة" كي تكف عن الإلحاح على ذهابي لبيتها. لكن هذا لم يمنعنا، أنا وهي، من اختلاس شيء من المتعة؛ وهي تغسل الأطباق في مطبخنا، متعة متعجلة، ومخطوفة، لأن عيني ماما كانتا علينا، معظم الوقت.

أحاول، أحيانًا، أن أتذكرها في مكان آخر غير المطبخ في بيتنا، ومطبخ طنط "شريفة"، حيث يحوطها النساء، ضاحكات عادة، ثم تنسحب بإحداهن إلى غرفة، وحدهما، وتعود بها، لتنسحب مع أخرى، وهكذا. كل النساء كن محمرات الوجه والساقين والذراعين، لكن بريقًا ما مختلفًا كان يبدو في عيونهن بعد أن يعدن من الحجرة الداخلية، تترصده العيون، وتدور النكات، ورغم أنني لم أكن أفهمها، وأكتفي بالضحك

معهن، والقهقهة المبالغ فيها، كي ألعب دوري في مشاركتهن، فإن ماما كانت تنهرني فورا، وتطالبني بأن أبحث عن شيء لألعب به، وألا "أحشر" نفسي في كلام الكبار.

لا أتذكر "دادة فاطمة" أبدا، بمسحة، ودلو مثلا، كما كانت تفعل "دادة سعدية"، أو وهي تنفض الغبار عن أي شيء، أتذكرها، فقط، وهي تغسل بضعة صحون، أو في هذه الحلقة العابثة من أجساد النساء.

بجسدها الأبنوسي الضخم، فارع الطول، تقرفص بين أفخاذهن، لتشد الشعر بيد "خفيفة" كما كن يرددن، ببهجة، بعد أن يخرجن من الغرفة الداخلية، هي أيضًا، رغم تلاحق المهام كانت تبدو في هذا اليوم أكثر ابتهاجًا من الأيام العادية، ابتهاجًا يشبه كثيرًا ابتهاجها معي في اختلائنا الليلي في بيتها.

تزوجت رجالاً لا عدد لهم، ما إن تشتهي رجلاً، ويشتهيها حتى يكتبان "الورقة"، وتسمح له بأن يدخل إلى فراشها، وعلى عيالها الاثنين: منى، ومحمود، اللذين كانا دائما منكسرين، أحثهما على اللعب معي، فيبتعدان، خوفًا من أمهما، وحتى لا ينال أي منهما "العلقة" المعهودة، بالحزام، ضربات قاسية، ومتتالية، حتى يكف تمامًا عن الصراخ، فتتوقف عن ضربه، مكتفية بالسباب واللعنات، وتتركه منزويًا، يبكي إلى جانب الجدار.

لا تدوم الزيجة طويلًا، عادة، تسألها ماما ضاحكة: "لسه ما زهقتيش منه؟!" فتشيح بيدها في ضجر: "كلهم زي بعض يا ست سعاد" فتضحك أمي: "يبقى قربنا على العلقة"، وهو ما سيحدث فعليًا، بعد شهر على

الأكثر، يبدأ الشجار بعد أن تنطفئ شهوتها المتأججة، فتضرب الزوج علقة ساخنة، وتمزق الورقة، وتلقي له بملابسه في "صرة" وراءه، وهي تسبه بأفحش السباب.

في معظم الأحوال، كان الزوج المضروب يجلس باكيًا أمام بيتها، متوسلًا إليها أن تعيده إلى "عصمتها"، لكن هيهات، انتهى الأمر، وعليها أن تبحث عن فريسة أخرى.

نوادرها لا تنقطع بين النساء المجتمعات حولها، ولا تمل ماما من حكي ما فعلته حين اصطحبتها معنا للمصيف في "رأس البر"، ذات صيف، تتقطع الحكاية بين شفتي ماما، لا من تكرارها، بل من عدم قدرتها على كتم قهقهاتها كلما حكتها، إذ أصرت "دادة فاطمة" صبيحة وصولنا، على السباحة فورًا، ودون انتظار إفراغ الحقائب، ارتدت المايوه الأحمر القاني، الذي اشترته خصيصًا للمناسبة، فبان جسدها الأسود الفارع من تحته، ملتمعًا بقطرات الماء تحت الشمس، ويبدو أن المشهد استثار أحد المغامرين، فقفز وراءها، وظل يدور حولها في الماء مداعبًا، و"ملاغيًا"، نهرته مرات فلم يمتثل، فلما يئست، بدأت في إظهار علامات الاستجابة، بل إنها أخذت في حثه، بغواية أنثوية، على الاقتراب منها، وما إن صار ملاصقًا لها، حتى قبضت بيدها القوية على ذكره، ولم تفلته، ظل الرجل يصرخ، ويولول، وهي تقول له: "قول أنا مرة"، ظل يردد وراءها متألمًا، "زعق كمان، قول أنا مرة"، ساخ صوت الرجل، وهو يردد وراءها: "أنا مرة.. أنا مرة.. سيبيني والنبي.. سيبيني حاموت، والنبي، والنبي"، لم يهرع لإنقاذه أحد، غطت غرابة المشهد، وكوميدياه، على مأساة الرجل، حتى المتفرجون على الشاطئ، وبين الأمواج، من الرجال، تطلعوا بفضول

وهم يضحكون، بدوا وكأنهم لا يريدون التدخل كي لا يعجلوا بنهاية هذا "العرض" المدهش، أفلتته أخيرًا، فسبح، بمشقة، حتى الشاطئ، ثم ارتمى عليه، بساقين لا تكادان تحملانه.

تقول ماما، إن الرجال يشتهونها بجنون، وإنها تجيد كل ألعاب الإغراء، والغواية، تقول أيضًا، إنها تصير شخصًا آخر حين يعجبها أحد الرجال، تصير امرأة طاغية الأنوثة، تتزين، وتتغنج بقمصان النوم الحمراء، ويسيل منها حنان الكون، حتى تمل، فتظهر الوجه الآخر، الذي يعرفه جميع من عرفتهم، فلم تكن فضائح زيجاتها مخفية، الكل يعرفها، والكل يرغب في أن ينال هذه المرأة، ويلاقي مصيرًا مختلفًا، منافسًا سابقيه من الرجال.

أنجبت "منى"، و"محمود"، من "عم بسطاوي"، الزيجة الأولى، والأطول في حياتها، كان قصير القامة، لا يصل إلى كتفيها، أسمر البشرة، يسير إلى جوارها كظل، "غندورًا"، ومتأنقًا دائمًا بالجلباب النظيف، والطاقية "الشبيكة"، معلقًا إلى جانبه الأيمن "سيفه" الشهير، ولولا بعض آثار المعارك على وجهه، لبدا جميلًا فعلًا، بشاربه الرفيع، وعينيه الواسعتين، العسليتين. هو الوحيد من بين الرجال، الذي كان بإمكانه، أحيانًا، أن يعود إليها، بعد المشاجرة المعتادة، وبعد أن يحمل "صرة" ملابسه معه، مُقسمًا ألا يعود، لكنهما يتصالحان: "علشان العيال"، كما كانت تبرر، في تلك الاستراحات بين زيجة، وأخرى. يسيران جنبًا إلى جنب في الشوارع المظلمة، من بيتنا في الألف مسكن، إلى بيتهما في "عين شمس"، لا أحد بإمكانه أن يتعرض إليهما، حتى التجمعات الصغيرة من صعاليك الليل، كانت تفضها "دادة فاطمة"، بنظرة من عينيها، نظرة حادة، وباردة،

وبصوت خفيض، ومنذر بالشر، يكفي أن تقول: "يا للا يا واد أنت وهو من هنا، واقفين بتعملوا إيه؟" فينفض الجمع، مؤثرًا السلامة.

لم يكن الخوف منها نابعًا من سيف عم بسطاوي، أو من "الطبنجة"، التي تعلقها بين طيات جلبابها، إذ لم يحك أحد أنها استخدمتها، وإنما من تاريخ طويل من المعارك المنتصرة، عرفه الجميع، تاريخ يعود إلى أمها نفسها، التي، كما حكت لي ماما، كانت قصيرة القامة جدًا، شرسة الملامح، عملت بالبلطجة لفترة، وأمضت جزءًا كبيرًا من حياتها "مرشدة" للبوليس.

ربما كانت ماما تخافها، أو تحتمي بها، أو كلا الأمرين، وربما هذا ما جعلها لا تواجهها بشأن ما اقترفته معي، أو ربما كانت تتفهم شهواتها المتأججة، التي لا تعرف حدودًا، ففي بيت الألف مسكن، حين كان المكان، في البداية، غير مأهول تمامًا، وبعد أن أنهى بابا إعداد البيت، وعاد إلى السعودية، كنت قد عقدت الصداقات كعادتي مع العمال، المشتغلين فيه، تسلل أحدهم، ذات ليلة، فسمعت ماما صوت درج ينفتح في غرفة نومها، كنت مستغرقة في النوم إلى جوارها بعد سفر بابا، وعلى ضوء ضعيف يتسلل من الردهة، رأت وجهه، وهو يجمع ما في الأدراج، من مال وذهب، التفت إليها فتصنعت النوم، حتى أتم مهمته، ورحل في هدوء، ناظرًا إليها، فلم تتحرك. أتت "دادة فاطمة" و"عم بسطاوي" في الصباح إثر استدعاء ماما المرتعب لهما، ظلا في البيت يحرسانه لأيام، وأصرت ماما ألا تبلغ البوليس: "اللي راح راح في داهية"، كانت تخشى عليّ أنا، تحديدًا، فماذا لو عرض عليّ "صديقي" السارق أن أذهب معه؟ سأذهب دون تردد. صحتْ توقعاتها حين رأته يحوم حول البيت بعد رحيل "دادة فاطمة" و"عم

بسطاوي"، وأنا أناديه، بلهفة، من الشباك، نظرتْ إليه، وأومأت بأنها لن تتكلم، فانصرف، ولم يعد ثانية، ورغم إلحاح "دادة فاطمة" و"عم بسطاوي" على أن تدلي إليهما باسمه، أو بملامحه، كي يأتيا به، ويدفناه في سابع أرض، إلا أنها رفضت تمامًا، وبحسم، حتى تناسى الجميع الحادثة، ونسيتُ، معهم، "صديقي العزيز".

أنا، كذلك، كنت أحتمي بها، وهي تصحبني في الشوارع المظلمة المقفرة بين بيتنا، وبيتها، حين أسمع نباح قطعان الكلاب فأتشبث بجلبابها مختبأة فيه، تدفعني، برفق، بعيدًا عنها، وهي تقول: "أوعى تحسسي الكلاب إنك خايفة منها، حتعضك لوخفتي، سامعة؟ حاسيبها تعضك، مش حاحوشهم"، تظل ممسكة بيدي، على مبعدة منها، فأسير بخطوات عسكرية، نعبر معًا قطعان الكلاب، فتكتفي بالنباح، ثم تنشغل عنا، وتظل كفي، المرتجفة المعروقة، تقبض، بقوة، على كفها.

(٢٩)

ولدت في "حي الأربعين"، أشهر الأحياء الشعبية في السويس، وقتها، حسب حكايات أمي: "كانت أسهل ولادة لها، أحضرت طبيبًا خدرها بالأثير، وولدتني دون ألم". لم تكن تربيتي "كرضيعة" صعبة، هي التي تحكي، جف صدرها، وهي على مشارف الأربعين، (هي تبرر جفاف صدرها بحزنها على أمها!)، فنصحوها بإرضاعي لبن "زبادي"، وقد كان. تصنعه، بنفسها، كل يوم، على ضوء "لمبة" هادئة، بنظافة فائقة، وتضعه

في "البيرونه" وينتهي الأمر. تحكي أنها كانت تنساني أحيانًا، وهي تطبخ، فلا تسمع صراخ الأطفال المعتاد حين يجوعوا، حتى أنها تسأل نفسها، في حيرة، عن مصدر ذلك الغناء البعيد الغريب، فتتذكرني، وتهرع إليَّ، تحكي: "ما كنتيش بتعيطي زي العيال، كنتِ لما تجوعي (تناغي)".

ظللت حتى جاوزت الخمسين، لا يمكن أن أبدأ يومي إلا بكوب من الزبادي، أقلب فيه ملعقتين من السكر، حتى كففت عن هذا، لا أعرف متى تحديدًا، لكن ما ظل يلازمني، حتى الآن، كراهيتي للضوء، إلا من "لمبة أباجورة" هادئة، ربما تذكرني، دون أن أعي، بتلك "اللمبة" الدافئة المغطاة، تمد اللبن بتماسكه حتى ينضج، وتمدني ـ رضيعة ـ بالحياة.

لم يكن لأمي صداقات في السويس سوى عائلة "أم فؤاد"، و"أم اللول"، صديقتها الأثيرة. احتفظت بصداقتها بعد أن تركنا "حي الأربعين"، ككنز ثمين، تتذكرها بامتنان، حتى قرب موتها.

جارتها في الحارة هناك، جارتها "الجدعة، الأصيلة"، كما ظلت تردد طوال حياتها، كان بابا يحب عائلة "أم فؤاد"، ويرحب بالبنات حين يأتين ليعشن معنا، ويطمئن عليهن، يستمع إلى حكايات ماما عن السفرة، ومباهجها حين تعود، وما إن تأتي سيرة لقائها "بأم اللول" حتى يمتعض، ويتبادلان معا الحوار المكرر نفسه: "أنا مش فاهم أنتِ لسه مصاحبة الولية دي إزاي؟" فترد أمي: "صاحبتي وحبيبتي"، فيرد: "رقاصة؟! ما لقيتيش غير رقاصة درجة تالتة تصاحبيها؟!"، فترد عليه بتحد: "كاااانت، كاااانت رقاصة، لما سكننا هناك كانت تابت.. تابت واتجوزت.. أنت حتحاسبها بعد ما تابت؟ هو أنت ربنا؟! ده ربنا بيقبل التوبة يا شيخ!". ينتهي الحديث عند هذا الحد، بإشاحة، ضجرة، من يده، وتعاود ماما لقاء صديقتها كلما

ذهبت إلى السويس.

تعرف ماما سر استياء بابا من أم اللول، لكنهما لا يتكاشفان السر أبدًا، ففي الحارة، حين بدأت صداقتهما، بدأ الشك يراود ماما، للمرة الأولى في أبي، حكت لي أن "النسوان" كن يخرجن من الشبابيك، ليعاكسنه، وهو ذاهب إلى المدرسة، متأنقًا، بالبدلة، والقميص الأبيض الناصع، والكرافت المعقود في رقبته"، تحكي: "أبوكِ كان زي القمر، وشيك، وأجوازهم مقشفين بالجلاليب!"، يبدو أنه رفع عينيه، ذات صباح - ليتأمل المعجبات، فدب الشك في قلب ماما، عنها وأرسلت في استدعاء جارتها الراقصة، لم يكونا صديقتين مقربتين بعد - وأسرت إليها بهواجسها، فما كان من الأخيرة إلا أن وعدتها باستقصاء الأمر، ثم عادت إليها بعدها بأيام قليلة ضاحكة: "شوفي يا ست سعاد جوزك مالوش في معاكسة النسوان، هو بتاع كوباية بس، اطمني، وحطي فـ بطنك بطيخة صيفي".

لا أعرف الطريقة التي اختبرت بها "أم اللول" ميول أبي، فلم تحك لي ماما ذلك الجزء، الذي لا أعرف كيف لم يستثر فضولي أبدًا! فلم أسألها عنه، لكنني يراودني الآن هاجس أنها عرضت نفسها عليه، مثلًا، فأبى، وظل يظن طوال حياته أن من الأفضل ألا يخبر أمي بما حدث حتى لا "يصدمها"! وظل يمتعض منها للسبب ذاته، أمي، بدورها، لم يكن في مقدورها أن تخبره بأنهما من وضعتا الخطة معًا، وربما هذا ما جعلهما صديقتين طوال العمر، حتى بعد أن تفرقت المصائر، وماتت "أم اللول" فبكتها ماما بدموع غزيرة، كان بينهما "سر"، و"تواطؤ" وهذا يكفي، لصداقة عميقة.

(٣٠)

في بيت الألف مسكن، المكون من دورين، والمطل على ممر ضيق، رُصتْ "الفيلات"، كما أطلقوا عليها، في صفين متقابلين. اضطروا لبناء غرفة جديدة لراجي، تطل على الحديقة الخلفية، غرفة واسعة، وجميلة، و"منعزلة"، كما كان يصر دائما، مقتطعة من الصالة، الواسعة، والتي كانت تحتل الدور الأسفل.

في الدور العلوي غرفة واسعة، ورئيسية، لبابا وماما، وغرفة صغيرة، إلى جوارها لرمزي، تطل على "تراس" واسع، كان شرفة وغرفة، لكن بابا رأى أن يفتح الغرفة على الشرفة، لنتمكن من قضاء ليالي الصيف، في "التراس" الواسع.

غالبًا، كنت أنام في غرفة بابا وماما، أو في الدور السفلي، على أية أريكة، لا أتذكر. أيا ما كان، لم يكن الأمر يثير استيائي، وقتها، كنت في السادسة، وكنت أصغر من تفهم شعور الاستياء، ومن المطالبة بغرفة خاصة لي، "كبنت"، بينما ينام الأخوان في غرفة واحدة، معًا، كما يجري العرف، وكما أشاهد في بيوت صديقاتي.

(٣١)

"لمت" الألف مسكن، بالفعل، كما شكَت أمي. في بدايتها، أواخر الخمسينيات، كانت مكانًا جميلاً، واعدًا للطبقة المتوسطة الباحثة

عن الهدوء، بعد أن ضجت أماكن مصر الجديدة العتيدة: روكسي، والكوربة، وميدان الإسماعيلية، وتريومف، حيث كنا نسكن.

ساهمت إعارة بابا إلى السعودية، أيضًا، وانتعاش دخل الأسرة في البحث عن "فيلا تمليك" في أطراف مصر الجديدة، حينذاك، فوقع الاختيار على "الألف مسكن".

"الفيلات" متلاصقة، في "بلوكات"، متشابهة، لكنها، ولأنها "فيلات"، لم يكن من الممكن اعتبارها في أوائل الستينيات، حين سكننا فيها، "مساكن شعبية"، كان لها شيء من الخصوصية، لكنها خصوصية وهمية، فالبيوت متلاصقة، يسمع كل بيت فيها ما يدور في الآخر، بأقل قدر من التشوش.

إلى جوارنا سكنت "أم محمد"، زوجة كبير مفتشي المترو، سيدة طيبة، تلقي النكات بخفة دم بنت بلد أصيلة، فتضحك ماما من أعماقها، نمت بينهما صداقة مشوبة بالاحترام، من قِبل "أم محمد"، التي كانت تشعر، رغم الود الصافي، بشيء من التفاوت الطبقي بينها وبين أمي، كان يبدو واضحًا لنا، حين تعاير أبناءها الكثيرين، وبخاصة البنات، سمر البشرة بشعرهن المجعد، بشعري، وشعر "رمزي" المائل إلى الاصفرار، وعيوننا الخضراء، تعاتبها أمي، ضاحكة، على هذه "المعايرة"، وتذكرها بقواعد "التربية السليمة"، و"تجبر" خاطر البنات المتعضات، بأن "السمار نص الجمال"، لكنها لا شك، كانت تسعد بتلك "المسافة" التي وضعتها "أم محمد" بينهما، والتي ظهرت في ندائها لماما باسمها يسبقه لقب "الست"، دون أن تناديها، كما تفعل ماما، "بأم فلان".

تسدي إليها ماما النصائح دائمًا، حين تمرض، وتباغتها "أم محمد" بأنها تناولت شريط "المضاد الحيوي" كله، دفعة واحدة، لتعجل بالشفاء!

تعجيل ماما بالانتقال من البيت، ورفضها له، بعد أقل من ثلاثة أعوام سكناه فيها، بات همها المقيم، لم يكن بسبب "أم محمد" و"عيالها"، بل بسبب "عم سيد" القاطن في "الفيلا" المقابلة، والذي يعمل "سكرتيرًا" في رئاسة الجمهورية، فما إن يمر يومان حتى يأتينا العويل، والسباب الفاحش، ولم أعرف، ولم يعرف أحد، من الجيران، سر تلك الوحشية، التي يضرب بها أطفاله، ما إن يشتد الصراخ، حتى تهرع ماما، والجيران إلى "تخليص" أحد الأطفال من بين يديه، يفكون الأربطة، التي ربطهم بها، ويأخذون "الحزام" أو "العصا" من يده، أو يدفعونه بقامته القصيرة المكتنزة، عن أحدهم، بعد أن وضع قدمه، بشراسة، على وجهه الملتصق بالأرض. ثم تحضر ماما الطفل إلى بيتنا، لإزالة آثار الضرب الوحشي.

لم يكن أطفاله أصدقاء لأي منا، لا يلعبون معنا في الممر الكائن بين الفيلات، دائما نراهم ينظرون إلينا من وراء الشبابيك، والنوافذ، كأنهم أسرى لذلك الأب، يرتعبون منه، حتى في غيابه، ولم تكن زوجته، أيضًا، تظهر كثيرًا، يأتي إليها بطلبات البيت بنفسه، وقلما رأيناهما، يخرجان معًا.

ضاقت أمي بالمكان، ورغم افتقادها "أم محمد"، كما كانت تقول بعد أن ذهبنا إلى "مدينة نصر"، المكان الواعد الجديد، لأبناء مصر الجديدة، والأكثر هدوءًا، وهو ما كانت أمي تطمح إليه، دائمًا، فإن هذا الافتقاد لم يصل أبدا للندم على ترك المكان، كان لها صديقات أخريات، كـ "طنط شريفة" و"طنط سلوى"، أصدقاء ظللن معها لسنوات طويلة، لا مسافة

بينها وبينهن، يناديها باسمها "مجردًا"، ويقطن في شقق، ليست فاخرة، ولكنها مؤثثة بذوق رفيع، في ضواحي مصر الجديدة.

(٣٢)

حين "أتوه" في شوارع القاهرة، وبخاصة في الليل، أعرف بأنني لست على ما يرام، عادة ما أخطئ صعود أحد الكباري المعتادة، فتلقيني الطرق إلى طريق زراعي، أو إلى شوارع غريبة، تتفرع منها شوارع غريبة، أطمئن نفسي، بأنني سأتبين الطريق الصحيح لا محالة، بعد قليل، سواء بسؤال العابرين، أو مؤخرًا، بـ "جي بي إس"، لكنني حين أعود إلى بيتي، في النهاية، أعود منهكة، لا من الطرق الكثيرة التي ذرعتها، فحسب، وإنما من الجهد العصبي، الذي لا بد أن أعالجه فور عودتي بزجاجة باردة من البيرة.

في تلك الليلة البعيدة، في بيت "الألف مسكن" دعتني إحدى الفتيات، اللواتي كن يقطن في عين شمس، وكن يساعدن ماما في جلب بعض المشتروات إلى البيت، إلى الذهاب معها إلى السوق، كنت ألعب في الممر بدراجتي، ولأنني أعرف أن ماما لن توافق على ذهابي معها بالليل، لم أستشرها، وذهبت معها، وبخاصة مع تأكيدها بأننا لن نتأخر.

كنت في السادسة، على الأرجح، أجلس على تبة، غير واضحة المعالم لي حتى الآن، وإلى جواري دراجتي، أسأل المارين عن الطريق إلى "الألف مسكن"، فيشفقون عليّ، ويسألونني بضع أسئلة، ثم يتركونني

بائسين، تركتني الفتاة حين شاهدت "زوج أمها" يتجول في السوق، فخافت منه، وهربت، هكذا بررتُ ما حدث لماما، في ما بعد، وهي "تستجوبها" بعنف، سرت بعدها في طرق لا أعرفها، حتى وجدت طريقًا يشبه طريقًا أعرفه، فمضيت فيه، لكنني وبعد وصولي أخيرًا لمنطقة "الفيلات" دخلت ممرًا خاطئًا، وأمام إحدى الفيلات الهادئة توقفتُ لأستريح، قليلًا، نبح عليّ كلب حراسة مهاجمًا من وراء الباب، فجريت، تاركة دراجتي، لكنني عدت إليها بعد قليل، حين تأكدت أن الكلب مقيد وراء الباب، التقطتها بحذر، وظللت أمشي، حتى اهتديت إلى بيتنا.

ماما تنقض عليّ، "هائجة" كالكلب المسعور، بينما الجيران يمسكون بها، يتطاير السباب، و"الشباشب" من حولي، وأنا أجري منها: "احمدي ربنا إنها رجعت بالسلامة، وحدي الله يا ست سعاد سيبيها بقى، مش كفاية اللي هي فيه؟!"

حين عاتبتُ أمي بعدها، لما كبرت، على هذه الثورة على بنت صغيرة، عانت في توهتها بما يكفي، أخبرتني أنها ظلت تجوب الطرقات لساعات، تبحث عني، تسأل المارة أين ذهبت؟ ومع من؟ لكن أحدا لم يعرف، كنت قد تلصصت فعليًا، لأذهب مع الفتاة، دون علمها، أخبرتني بأنها كانت على يقين بأنني "ضعت" إلى الأبد، وأن هذا كان لها "الموت" ذاته.

أظن أن هذه الحادثة كانت أحد أسباب نفور أمي من المكان لسنة بعدها، ظلت تبحث فيها عن مكان آخر، يمكنها فيه أن تحكم السيطرة على تلك "المارقة" الصغيرة.

(٣٣)

سكننا في عمارة كبيرة، في "مدينة نصر"، في الدور الرابع، وبدا الأسانسير أرجوحتي المفضلة، انفرد راجي، كعادته، بالغرفة الأكبر من البيت، الغرفة المخصصة للأب والأم! بينما أغلق أبي وأمي الغرفة المخصصة لمائدة الطعام بألواح من الخشب الملون، وجعلاها غرفتهما، وخصصا لي جزءًا مغلقًا بستارة إلى جوارهما، بسريري ذي اللون الزهري من الصاج، الذي أشم رائحته النفاذة الآن، وأنا أكتب، لكن البيت ظل واسعًا، على الرغم من ذلك؛ بصالتين كبيرتين؛ وضعت أمي فيهما الطاقم الأسيوطي الأنيق، الذي ورثته عن جدتي، والإستوديو ذا المراتب المنجدة بالحرير بخطوط مقلمة، وعلى أركانه رصتْ المركب الشراعي الخشبي الجميل، وتمثال "أفروديت" من الجبس الأبيض، وباقي التفاصيل الصغيرة، تمامًا، كما كان في البيت القديم.

الانتقال من بيت "الألف مسكن"، وخارج حدود مصر الجديدة، للمرة الأولى، في حياة الأسرة، اعتُبر مغامرة، لكن البيت الجديد كان "تمليك" هو أيضًا، وهو ما جعل الأسرة تحافظ على وجودها داخل الطبقة المتوسطة، التي طالما زهت بالانتماء إليها، بعد ما الألف مسكن "لمت" كما كانت تردد أمي، متذمرة طوال الوقت، في أيامنا الأخيرة هناك.

أمام العمارة شارع عريض، وقبالتها صحراء شاسعة، تفصل بين مدرستي "عبد العزيز جاويش" وعمارتنا ذات العشرة أدوار، تماثلها، ووراءها بالترتيب، عمارتان أخريان، في شارع "حلمي التوني".

أحببت البيت بشرفته الواسعة، والمدرسة أيضًا، ونسيت دموع أصدقائي، وهم يودعونني في البيت القديم، نسيتها، تمامًا، ونسيتهم، وأنا أقطع الطريق في الصحراء إلى المدرسة، يتقدم قطيعنا بالمرايل الصفراء "تيل نادية" الواد "خالد" "الكلبوظ" يغني: "عدوية أهي" فنرد وراءه: "أهي. . أهي. . أهي".

كانت المدرسة أجمل كثيرًا من مدرسة "نبيل الوقاد" في الألف مسكن، رغم أننا كنا نلبس هناك مرايل لونها "لبني"، وهو ما كنت أفضله، بدلا من اللون الصحراوي، الذي أرتديته هنا. كان "ضرب" المدرسين عنيفًا، وقاسيًا، في "نبيل الوقاد"، وكنت أراوغه بتفوق اضطراري، في ما عدا العصي على الأكف الباردة، في الشتاء، بعد أن ننفخ فيها، لتكون الضربة أقل ألمًا، حين أتأخر على طابور الصباح، كان الضرب قليلاً في "عبد العزيز جاويش"، حتى تلك العصي القليلة أنقذتني منها أمي، حين رفضتُ ذات يوم الذهاب، متأخرة، إلى المدرسة، خوفًا من الضرب، فذهبت معي، و"بهدلت" المدرس الواقف بالعصا على الباب، كما طمأنتني، ولم يضربني ثانية.

الأطفال يجتمعون، بعد الدراسة، تحت العمارة، نلعب "استغماية" ويلعب الصبيان "البلي". كنت أحب لعب "البلي"، وكانوا يستضيفونني، دون غضاضة، بعد أن أريهم "البلي" الجميل، بأنواعه المتعددة، والذي كان "رمزي" ينتقيه لي، بذوق رفيع.

كنا نلعب "حرب" أيضًا، تكون عمارتنا مرة "مصر" ومرة "إسرائيل"، حسب الدور، نهتف، حين نكون مصر: "حنحارب، حنحارب، إسرائيل

الأنارب"، ونختبئ وراء ساتر الطوب، المبنيّ أمام كل عمارة، لنهاجم "العدو"! (كنا نتبادل الأدوار لأن عمارة إسرائيل لا بد أن تُغلب في المعركة، ويؤخذ منها الأسرى، لذا قسمنا الهزيمة بالتساوي) لكن الأسلحة كانت توزع مناصفة، بنادق صنعناها من ألواح الخشب الصغيرة، نثبت في نهاية اللوح، مسمارًا، وفي طرفه الآخر "مشبك غسيل"، نلف طرف "الأستيك" على المسمار ونشده مغلقين على الطرف الآخر فكي المشبك، ونضع بين السلك المشدود هذا "قرطاسًا" من الورق، ثم نفتح المشبك ونطلقه وقت الهجوم.

لم يكن هناك ما يؤلم، سوى أنهم جميعًا لديهم "عجلة"، وأنا ليس لديَّ "عجلة"، يتسابقون بها، وأحيانا يعطونني "لفة"، الدراجة الصغيرة، التي أتى لي بها بابا من السعودية، حين كنت في الثالثة، ذات العجلتين، ولها "مسند"، لتصبح فعليًا بثلاث عجلات، صغرت جدا، وأعطتها ماما نفحة لأحد أبناء "أم محمد" قبل انتقالنا، مع وعد بواحدة جديدة، وأكبر، تليق بجسدي الآخذ في التنامي.

رغم البكاء، والعويل، لم تستطع أمي أن تشتري لي دراجة، كانت تعدني كل شهر، وأنتظر تحقق الوعد، ثم يخيب أملي في النهاية؛ مثقلة تمامًا بمصاريف الولدين، والثانوية العامة، استطاعت ذات شهر صيفي أن تقتطع من مصروف البيت، وتختار أهون الشرين، وتشتري لي "سكوتر"، كنت قد أسررت إليها بإعجابي به، حين رأيته مع أحد أبناء صديقة من صديقاتها.

دخلتْ به ـ ذات ظهيرةـ ملفوفًا في ورق "جلاد" ملون، فانتفضت

من مكاني، أهلل بسعادة المُرتقِب، وظللت أقبلها، صحيح إنه لم يكن دراجة، لكنه لم يكن متداولاً كثيرًا في تلك الأيام، وتمكنت من أن أقايض الأطفال، من موقع الأقوى: "تاخد لفة بالسكوتر، وتديني لفة بالعجلة".

أحببت "علاء"، الأكبر مني سنًا، في صمت، لكنني اكتشفت، ذات مساء، أنه يحب "علا" الأكبر مني سنًا، أيضًا، جلست على سلم العمارة الخارجي أبكي وحدي، وإلى جواري "السكوتر"، وأنا أشاهده يضع يده على كتفها، ويبتسمان، ويقبلها، خلسة، في خدها، ثم ينطلقان بدراجتين شبه متلاصقتين.

كنت في التاسعة، في الصف الثالث الابتدائي، وأخبرتني أخت "محمود" الجاد، الرزين، في الشهادة الابتدائية، أنه يحبني، وأنه يغار عليّ من لعبي "البلي" مع الصبيان، لكن حبه الصامت، لم يشف جراح قلبي، من حب "علاء"، المنطلق، الوسيم.

ثلاث سنوات من السعادة، رغم الحرب، تتخللها إجازات مبهجة، وغير متوقعة، كيوم "النكسة" مثلا! "راجي" في الثانوية العامة، للمرة الأولى، "رمزي" في أولى ثانوي، بابا يجلس في البيت ساعات طويلة، على غير المعتاد، في الشرفة الواسعة أحيانًا، بكوب القرفة، أو اليانسون، ماما تطبخ، أو تفاجئنا بـ"كيكة".

في أوقات مبهجة كان بابا "يحممني"، و"يزغزغني" في باطن قدمي، فتنطلق الضحكات في البيت، أحيانًا أفكر الآن في أنهما؛ هو و"رمزي" كانا يعوضانني عن الألعاب المفقودة، التي طالما نعمت بها في بيت الألف مسكن، بالزغزغة كي أضحك. وكي يرانني "أضحك"، وكان "راجي"

و"رمزي"، يعوضانني، أيضًا، بقالب شوكولاته "كورونا"، يضعانه، بعد عودتهما من السينما، تحت الوسادة، لأراه فور أن أصحو، وأتنطط "مين اللي جاب لي دي؟!"، عادة ما كان "رمزي" يتولى الشرح: "امبارح جه ملاك صغير وقعد يدورعليكِ ولقاك نايمة حطها لك تحت المخدة"، لكنني كنت أعرف أنهما من أحضراها، وأقبلهما بامتنان.

أصدقاء "رمزي"، المنتشرون في البيت، كانوا يمنحونني متعة إضافية، يغافلونه أحيانًا، وهو يعد لهم الساندويتشات والشاي، لزوم المذاكرة، وينفرد بي أحدهم ليقبلني، قبلة طويلة تمنحني نشوة طازجة، وتعرفني، وأنا أنظر إليه، بضرورة أن أغلق عيني أنا أيضًا، فأغلقهما نصف انغلاقة، كي أشاهد عينيه، يمكنني أن أستعيد النشوة بالليل، وأنا وحدي، في فراشي الصغير، أكتشف متع جسدي السرية، دون أن يلاحظ أبي وأمي شيئًا من وراء الستارة، حتى حين شاهدني أبي مرة، وهو يفتح الستارة ـعفوًاـ ليطمئن عليَّ، سحبت يدي بسرعة، فتجاهل ما رآه.

لكن النشوة لا تدوم، فذات يوم دخل أبي علينا، دفعني صديق "رمزي" برفق، وتظاهر، أمام أبي بأنه يضعني على ركبتيه، ويدللني ببراءة، انتفخت عروق أبي، وخرج من الغرفة، واستدعتني ماما بالليل، لم تستمع طويلًا إلى اعترافاتي هذه المرة، قالت، بتجهم وحسم: "بابا بيقول لك لو شافك قاعدة على حجر حد تاني حيضربك"، كان تهديدًا صارمًا، لا لبس فيه، وعرفت أنه لن يتم تجاهل ما يحدث، هذه المرة، فتجنبت حجرة "رمزي"، حين يكون معه أصدقاؤه.

لا أعرف تمامًا ما الذي حدث لصديق أخي، لكنه اختفى من بيتنا،

ولم يعد مرة أخرى للظهور، إلا حين عدنا إلى مصر الجديدة، وبعد أن مات أبي، كنت في أولى ثانوي، قابلته ماما و"رمزي" بترحاب، لأن أمه كانت صديقة لأمي، كان قد اشترى سيارة جديدة، وتخرج من كلية الهندسة، أخذني ليفرجني عليها، واقترح عليّ أن "نلف بيها شويه"، وحين حاول أن يقبلني، كما كان يفعل في طفولتي، دفعته بلطف، وخرجت، مسرعة، من السيارة.

"رمزي" كان محبوبًا، بشعره الأصفر، وعينيه الخضراوين، يقضي الساعات الطويلة، وهو يضع جوارب أمي النايلون المهترئة على شعره، بعد أن يغسله كي لا "يهيش"، ويرتدي البنطلون "الشارلستون"، والقميص "المشجر"، كانت ألوان قمصانه هادئة، رغم تشجيرها، لم يلبس أبدًا بنطلونًا "أحمر" وقميصًا "دانتيلا بمبي" كما كان يفعل الشباب في الستينيات، ظل محتفظًا بقدر من "الرجولة" كما قال، متماشيًا مع موضة الشعر الطويل، والسوالف الطويلة، بخلاف "راجي"، المحتفظ دائمًا بزي "كلاسيكي" مع شعر"هائش" قصير، وسوالف طويلة، تتصل بلحية مشذبة.

البنات يحببن "رمزي"، رغم ضيقه بقصر قامته، وشكواه المستمرة، هو و"راجي"، من هذا الإرث اللعين، الذي أورثته أمي لهما، كانا يداعبانني بغيرتهما مني، لأنني سأكون أطول منهما، سأكون في طول أبي، يعاتبان ماما بحسرة: "يعني البنت تطلع طويلة، وإحنا الولاد قصيرين كده يا ماما؟!" فتبتسم في خجل، ثم تداري خجلها: "ما أنتو طالعين زي القمر، مش عايزين يبقى فيكم عيب خالص؟!"

يكفي أن يظهر "رمزي" في الشرفة، ويشير لإحداهن حتى تلحق به

في الشارع، ويكفي أيضًا، أن يشير إليها، في نفس الوقت، من شرفة ما في العمارة المقابلة أحد الطلبة الفلسطينيين، الآتين للدراسة في مصر، حتى تقوم معركة حامية، في مداخل العمارات، يستدعي "رمزي" أصدقاءه الكثيرين، من كل الفئات، ونسمع الصراخ.

يأتي البوليس في النهاية، ويضمنه بابا، بعد التصالح والاعتذار للجيران المتضررين، وينزوي في غرفته ليداوي الجروح الناشئة عن المعركة، وحين يأتي الصباح، يحكي لنا، بحماس، عما فعله في "العيال اللي ف شقة الطلبة"، وعن بكاء أحدهم بين يديه مستعطفًا، ويقسم أن المسألة ليست مسألة بنات، ولكنها مسألة "نخوة" و"كرامة وطنية"، وأنه لا يمكن أن يقبل أن ولدًا فلسطينيًا، يعاكس بنت بلده، و"يفتكرها بنت سهلة"!

كان "راجي" يتدخل في الشجار، أحيانًا، وبخاصة إذا ما رأى أنه شجار جاد، تستخدم فيه العصي والسلاسل المعدنية، ويشارك فيه بوابو العمارات المجاورة، في هذه اللحظة يتدخل ليدعم أخاه الأصغر، وهي اللحظة المرعبة لأمي، يدق قلبها بعنف، وتهرع منصببة بالعرق، إلى مدخل العمارة، مخترقة المتعاركين، لتصل إليه، فتدخّل "راجي" ليس سهلاً، سيمسك برأس أحدهم صامتًا، ويظل يضربها في إفريز الرصيف، ضربات متلاحقة، حتى ينتزعوه من بين يديه القويتين، قبل أن يموت. ظلت ماما مرعوبة من فكرة أن يقتل أحدًا ذات يوم، بهذا الغضب الصامت العنيف، المخزون، دائمًا، في داخله، لم تكن تقلق كثيرًا من معارك "رمزي"، رغم صخبها، كانت مجرد معارك مراهق، ستسفر، فحسب، عن كدمات وخدوش.

(٣٤)

للسنة الثالثة على التوالي، خرج من البيت، جلس على المقهى، حتى انتهى امتحان الثانوية العامة، ثم عاد، يطمئن ماما المتلهفة على الباب، أن كل شيء على ما يرام، وأنه سيدخل كلية "الهندسة، طبعًا"، ما إن تظهر النتائج حتى ينكشف الغياب المتتالي المؤدي إلى الرسوب. تجنبًا لأي لوم لا جدوى منه، سيُغلق عليه باب غرفته الواسعة، يستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية، ويقرأ كتابًا من مكتبته الضخمة، التي اقتناها، بدأب، من مطبوعات "كتابي" لحلمي مراد، وروايات "الهلال". لديه مكتب واسع، تحت زجاجه قصائد مكتوبة، بخط يده، لبودلير، وصورة خاله "المنتحر" وتحتها كتب: "أنت هنا، في قلبي، إلى الأبد يا خالي".

لحق به "رمزي" في الثانوية العامة، بشعور حاد بالذنب، كنت أسمعه يبكي، ويتضرع إليه في غرفته: "لو ما روحتش الامتحان مش حأروح أنا كمان"، فعلها في السنة الأولى، ولم يذهب إلى امتحانه، لكنه لم يكررها، فذهب العام الذي يليه، لكنه لم يحصل على مجموع، يؤهله لكلية الطب، التي طالما حلم بها، التحق بمعهد التكنولوجيا (قبل أن يصير كلية) وقرر أن يعيد الثانوية العامة، مع وجوده في المعهد، ليلتحق بالطب، بعدها بعامين.

خيم حزن ثقيل على البيت؛ بابا عاد في ما يبدو إلى الشراب، ماما لم تعد تقف على باب الأسانسير لتطمئن على أنني هبطت بسلام، أو صعدت بسلام، كثيرًا ما جلست على أرضه المظلمة وحدي، بعد أن تعبت من الدق على الباب، حين يتوقف بي معطلًا بين الأدوار، إلى أن ينتبهوا لغيابي، لم تعد تطالبني بخلع المريلة بعد العودة من المدرسة، فكنت أواصل

اللعب بها، إلى أن يأتي موعد النوم، حتى عنفتني إحدى الأمهات: "أمك ساياكي إزاي كده"؟! ثم جاء اليوم العصيب، وأنا أحدث إحدى زميلاتي في المدرسة، رأيت عينيها تستقران على كتفي، في اشمئزاز واضح، ثم مشت وتركتني، حين نظرت إلى كتفي وجدت "قملة" تتمشى على المريلة، ضربتها بيدي بعنف، وادعيت المرض، كي لا أذهب إلى المدرسة، لبضعة أيام، حتى تُنسى الحكاية.

مضى وقت طويل لم يحممني فيه أبي، لم تضع لي أمي مرهم "الزئبق" المضاد للقمل، وهي تسرح شعري، وتعقده في ضفيرة طويلة، أو "ديل حصان". مضى وقت طويل وأنا أراها تمسك برأسها، بعد أن تقضي الساعات في غرفة "راجي"، تنصت إليه، وما إن تخرج حتى يناديها بصوت رتيب، لا تتغير نبرته: "ماااما.. مااما.. مااما" فتهرول إليه ثانية. مضى وقت طويل، وأنا أسمع حوار الثلاثة: ماما، ورمزي، وراجي، حول الاكتئاب، والأطباء النفسيين، الذين يتغيرون، كل أسبوع، لعدم جدواهم.

حين رأيته يستند على أخيه في طريقه إلى غرفته، ثم سمعت شكواه من ألم "الصدمات الكهربائية"، وبكاء ماما وحيدة في المطبخ، لم أعد أتذكر شيئًا، سوى عربة "العفش"، و"ميشو" يتملص، ويعوي، في حضني، في التاكسي، وهو يمضي في طريقنا إلى البيت الجديد، "الإيجار" هذه المرة، في النزهة ـ مصر الجديدة.

(٣٥)

أسوأ ما يمكن أن يحدث لي بعد موتي هو أن يأخذ الآخرون أقوالًا مأثورة مما أكتب الآن، أن تصير حياتي قولًا مأثورًا، هو ما يصيبني بالغثيان، أن تصير درسًا، أو عبرة، هو الجحيم ذاته، أحاول أن أتجنب هذا المصير وأنا أكتب، بلغة عارية تمامًا، لا ترتدي ما يستر عورتها من المجازات، لأن الحياة تصير أكثر شبقًا بعد أن نموت، كذئب مسعور، لا يروي ظمأه، إلا الحكايا.

(٣٦)

لم يكن البيت الجديد واسعا كسابقيه، على الأقل مما وعيته من بيوت، ثلاث غرف، نعم، لكنها أتت على حساب الصالة الصغيرة بلا شباك، أمام باب الحمام، ورغم أن المطبخ الضيق كانت له شرفة طويلة، فإنها كانت ضيقة، كل الشرفات كانت طويلة، وضيقة، حتى تلك التي تستدير كأفعى في الغرفة الأمامية، المطلة على الشارع الواسع، والتي احتلها "راجي"، كالعادة. الشرفة الثالثة، كانت الوحيدة الطبيعية، في الغرفة الخلفية، الواسعة نوعًا ما، والتي تُطل على حديقة، وواسعة أيضًا، نوعًا ما.

لكنني لم أكن أعبأ بكل ذلك، يكفيني الأرض الرملية في الحديقة الخلفية، قبل أن يزاحمني فيها أبي بحديقته الصغيرة، كانت أول ما هرعت

لاكتشافه في البيت، ووضع "البلي" في الرمل، وابتهجت جدًا لأنه لا يتدحرج، يثبتُ في مكانه، بخلاف الشوارع الملساء، في مدينة نصر.

سرعان ما صار لي أصدقاء، أنسوني أصدقائي في مدينة نصر، وبالقطع من كانوا في الألف مسكن، أولئك الذين انطمسوا تمامًا. التحقت بمدرسة خاصة كان صاحبها زميلًا لبابا، "وربنا فتح عليه"، التحقت بها، على مضض، لأن الالتحاق بمدرسة خاصة، كان عارًا، في تلك الأيام البعيدة.

لكن الأمر لم يخل من متع صغيرة: ركوب المترو إلى المدرسة، وشراء ساندوتش الفول، من المحّل الصغير على ناصية المدرسة، حسب تشديدات ماما. ولم يخل من آلام صغيرة أيضًا، فالأستاذ "عبد الرافع" كان رعبًا مقيمًا لنا جميعًا، يضع القلم ما بين الأصابع، وينهال على ظهر الأكف الصغيرة، المرتعشة، بسن المسطرة!

لم أتعرض أبدًا لهذا النوع من العقاب، من أجل خاطر أبي بالطبع، ولأن ابن عمي اشتُهر بتفوقه فيها، وتخرج منها إلى الإعدادي، ممهدًا لي أرض التفوق، غير المحتاج، لإثباتات كثيرة.

"حفلات تعذيب" الأستاذ "عبد الرافع" كانت مؤلمة، ومخيفة، وعلى الرغم من طمأنة بابا لي بأنه "لا يجرؤ" على فعل هذا معي، كنت أجلس في الصف الأخير، على غير عادة المتفوقين، أتجنب تمامًا أي التقاء لعيني بعينيه. ماما كانت تطمئنني: "أهي سنة وتفوت، وتدخلي إعدادي، مصر الجديدة الإعدادية.. مدرسة بابا"؛ فكنت أمني النفس بانتهاء العام، ولقاء كل المدرسين والمدرسات، "أصحابي" هناك، حيث عقدت صداقات

طويلة، حين كان بابا يصطحبني معه، بل ما يزال لديَّ صور تذكارية، أعلقها بزهو، في بيتي الآن، وأنا في الابتدائي بلبس الكشافة ـ الزهرات وقتها ـ مع المدرسات، والناظرة.

أظن أن هذه الفترة هي التي هددتُ ماما فيها بالانتحار.

(٣٧)

لتفوق "ابن عمي" مزايا أخرى؛ فسرعان ما أهداه عمي "دراجة جديدة" هدية النجاح الباهر، في الشهادة الابتدائية، وحين ذهبت مع ماما للتهنئة، وجدت دراجته القديمة مركونة في إحدى الغرف، فهمست في أذن ماما باكتشافي هذا، وعُدنا بها إلى البيت.

رغم السعادة العارمة بتحقق حلم الحصول على دراجة، حين وصلت للبيت اكتشفت حالتها المزرية، صدأت ويلزمها إطارات جديدة، تركتها في الحديقة، ونمت باكية، لكن بعد ظهيرة اليوم التالي حمل لي مفاجأة، لم أزل أشعر بزلزالها وأنا أتذكر، وجدت الدراجة داخل البيت بإطارات جديدة، وهي تلتمع، حتى إن الصدأ كاد أن يختفي، وماما تقف إلى جوارها مبتسمة: "بابا ما راحش المدرسة النهاردة مخصوص عشان يروح يصلح لك العجلة"، أحببت بابا جدًا في تلك الليلة، وأذهلني اهتمامه المباغت، امتننت له، وتمنيت أن أقبّله، لكنني خشيت أن يدفعني بيده في ضيق، كما يفعل دائمًا، كلما هممت بتقبيله، لكنني أرسلت له قبلة في الهواء، وهو

واقف يتأملني أمام باب البيت، فلوّح لي مشجعًا، وأنا أقفز في الهواء بالدراجة، أجرب كل الألعاب البهلوانية التي طالما حلمت بها، ولم يكن من الممكن أن أجربها في الدراجات المستعارة، "لفة"، من الآخرين.

(٣٨)

عادتْ ترتجف، سمعتُ الحكاية، وهي ترويها لرمزي، حكت أنها دخلت إلى حارة غريبة، حارة من حارة، من حارة، لتلتقي برجل غريب، له زوجة مخيفة، ورغم صديق الأسرة، المصاحب لها في هذه الرحلة، كانت موقنة أنهم ـ لو شاؤوا ـ سيقتلونها، أو يغتصبونها، دون أن يدري بها أحد، أخيرًا عادت من عند "المعلم" و"المعلمة": "تجار مخدرات.. شكلهم كده، وبيسلفوا بالفايظ، أنا مش قادرة أتصور إزاي وافقت على الحكاية دي! بس حنعمل إيه؟ يسافر زي ما هو عايز.. يسافر يمكن يفلح!".

بعد كتابة كل إيصالات الأمانة المطلوبة بفوائد القرض، أعطت المبلغ بكامله لراجي، ليشتري تذكرة السفر، وبعد يومين، وجدته يرتدي ملابس جديدة، ولم يتبق معه مليم واحد.

(٣٩)

سافر صديقه "الفاشل"، المطرود دائمًا من بيت أبيه، والقاطن في بيتنا

معظم الوقت، شفقة من ماما عليه، إلى ألمانيا، وسرعان ما أرسل صوره في معرض السجاد، الذي عمل به، وإلى جواره "بنت سماوية جميلة"، فانبثقت الفكرة، وظلت تراوده بأن يسافر - كباقي الشباب - إلى أوروبا في الصيف، يعمل في محطة بنزين، أو حتى يغسل الأطباق، ليعود، على الأقل بسيارة "بيجو، ليُشَغلها تاكسي".

لكن الفكرة ماتت بإنفاقه المبلغ، الذي جاهدت ماما في الحصول عليه، فوعدها بأخذ الأمر بجدية أكبر، والتخطيط له بدقة. ثم راسل إحدى كليات الهندسة في ألمانيا، وأرسل لهم شهادة النجاح الوحيدة، التي التحق بها بكلية التربية، في أسيوط، فقبلوا به.

انكشف أمر الغرفة المؤجرة، في العمارة تحت الإنشاء، لبابا، فاندلعت الحرائق في البيت، على أية حال، لم يكن من الممكن إعادة الثانوية العامة للمرة السابعة، وخصوصًا أن أمل السفر بدأ يلوح في أفق مبهم، لكنه مجرب من الآخرين. بدوره كان "رمزي" قد شق طريقه، بعيدًا عنه، ودخل الطب، مما جعله محاصرًا تمامًا.

في هذه المرة، لم تخض ماما مغامرتها المخيفة، نصحتها طنط "شريفة" بشراء بعض الأجهزة الكهربائية بالتقسيط، وبيعها، فاستطاعت شراء التذكرة، بنفسها هذه المرة، ولم تعطه مليمًا واحدًا في يده.

توالت الصور: من "باريس" أولاً، ثم من "ألمانيا"، وكروت "البوستال" من متاحف وشوارع نظيفة، وتوالت أزمات البيت، بسبب المبلغ المقتطع لدفع الأقساط.

كان بابا أول من يتسلم الخطابات، يقرأها، ويصحح لماما: "لأ هو قال في جوابه التالت، إنه كذا وكذا.. ". بدا وكأنه يحفظ الرسائل عن ظهر قلب، وحين أتت أول مكالمة تليفونية بذلك الرنين المتصل غير المعتاد، انتفض بابا: "ده ترنك.. ده أكيد ترنك من ألمانيا"، جاءنا صوته منفعلا: "أكلم بابا الأول.. بابا الأول"، وبدا بابا منفعلًا جدًا، بدوره: "أنا لسه عايش يا راجي، أنا ما موتش لسه يا ابني".

لم أنس العبارة الأخيرة، مطلقًا، طوال حياتي، لكنها لم تمح العبارة القديمة: "أنا مش حأسامحك أبدًا ياًبابا"، بدا من الواضح أنهما تصالحا، وتسامحا، ويبدو لي الآن أنني لم أنس تلك العبارة، لأنني أنا التي: لم "تسامحهما"، أبدًا.

(٤٠)

أنا في الشهادة الإعدادية، و"رمزي" في كلية الطب، أصيب بابا بذبحة صدرية، بعد أن خرج على المعاش، وأمره الطبيب، دون لبس، بالامتناع النهائي عن الشراب. عمل مدرسًا "أول" في مدرسة "الليسيه" المرموقة، استطاع أن يتعلم تدريس الرياضيات بالإنجليزية، واستطاع، كذلك، أن يُنمي مهارات لغوية فائقة منذ طفولته بالتحدث بأكثر من لغة، منها الفرنسية، جاءته فرصة السفر للجزائر، فتنفس البيت الصعداء، الراتب جيد جدًا، سيفي بكل أقساط تذكرة "راجي"، وسيؤهلنا مرة أخرى لاستعادة أمجاد "إعارة" السعودية، التي طمسها الزمن.

قالت أمي في حسرة: "لو كان بيدي دروس كنا بنينا عمارات"، كان يعطي دروسا قليلة، رغم مهارته وشهرته، كان يعطيها في الساعات القليلة، التي يمكنه فيها أن يتوقف عن الشراب، في الفترة، التي سمحت له فيها ماما أن يشرب في البيت، لكنه كان يعود دائمًا من الدروس القليلة، خاوي الوفاض. إلا من بضع زجاجات، ظلت تتراكم فارغة، في صندوق، تحت سريره.

(٤١)

انفصلا تمامًا، في تلك السنوات، هي في الغرفة الواسعة المطلة على الحديقة الخلفية، وهو في الغرفة الواقعة في منتصف البيت، بينما احتل "رمزي" الغرفة المطلة على حوض الزرع الصغير، وعلى الشارع، تلك التي كانت لراجي، قبل سفره، ليسهل على زملائه في الكلية أن يقفزوا، مباشرة، من الشرفة، دون المرور علينا، ليذاكروا معه.

أظن أنني كنت أنام في الصالة الضيقة، المواجهة للحمام، على الإستوديو الموروث من جدتي، وأحيانًا إلى جوار ماما، أجهدت نفسي كثيرًا، وطوال حياتي، في محاولة أن أتذكر أين كنت أنام في تلك السنوات؟! حتى إنني أخبرت صديقة لي، ونحن نضحك: "عارفة أنا لو افتكرت أنا كنت بأنام فين وأنا ف إعدادي، كل مشاكلي في الحياة حتتحل!".

(٤٢)

جاء الانفصال التام، دون رجوع، بعد مشاجرة عالية الصوت، من الممكن أن تكون عادية في بيوت أخرى؛ دخل بعدها بابا إلى الحمام، وضرب النافذة الزجاجية الصغيرة بيده، فانكسرت، بعد أن قال لها: "أنتِ بنت كلب"، فردت عليه: "أنت اللي ابن ستين كلب"، للمرة الأولى؛ يسبها وتسبه علانية أمامنا، ظل شجارهما مكتومًا، أتولى فيه الذهاب إليه لأطلب مصروف البيت، وهو ما كان يزعجني جدًا، لأن "رمزي" لم يقبل أبدًا، ورغم قربه من بابا، أن يقوم بهذه المهمة. ذات ليلة فتح لي قلبه: "عارفة أنا قعدت مع أمك دي عشانكو، لولاكو كنت طلقتها من زمان"، كدت أقتله، شعر بنفوري، فلم يواصل الحديث معي، حين رأى نظرتي المستنكرة، والغاضبة، ذهبت إلى ماما بالنقود، وقلت لها غاضبة: "ماتتطلقو، ونعيش مع حد فيكو وخلاص، بدل النكد اللي عايشين فيه ده، قال بيضحي عشاني قال؟!"

جاء الانفصال التام هذا، والمشاجرة العنيفة، بعد أن طار حلم السفر للجزائر، لما سألتْ ماما لم تبح لي بما حدث، كنت فتاة على وشك المرحلة الثانوية، وكنت لم أزل أتذكر إهانته لي، ومناداته عليَّ، وهو مخمور، على رصيف المترو، وسط زميلاتي في المدرسة، ففضلتْ ألا تفاقم غضبي منه، أجابت بضيق، وهي تشيح بيدها: "سقط في الإنترفيو، ما لناش نصيب"، حتى "رمزي"، من يحكي لي كل شيء، أغلق عليه باب غرفته، كراجي، أيامًا بطولها، ولم أستطع، على الإطلاق، اختراق عزلته تلك، رغم تلكؤي، وأنا أدخل له بصينية الأكل.

عرفت الحكاية بعد موت أبي، بسنوات. أصبح حديث "رمزي" معي عن بابا أكثر سهولة، بعد أن كبرتُ، وصرتُ أخته المُطلّقة، صاحبة التجربة، وكذلك، لأن ردود فعلي، وحتى كراهيتي نفسها، لم تعد ذات جدوى، وبخاصة مع العبارة، التي كان دائمًا يفتتح بها الحديث عنه: "بصي، أنتِ ما تعرفيش بابا كويس، عشان كده مش بتحبيه، أنا أكبر منك بتمن سنين، وأعرف بابا كويس"، أخبرني أنه ذهب معه إلى المقابلة؛ "كنت حريص أوصله بنفسي هناك"، عند الباب نهره: "أنا مش أخوك.. أنا أبوك" فاضطر إلى المغادرة، بعد أن حذره مستعطفًا: "بلاش النهارده يا بابا، النهارده بس" وحسب ما توقع، غافله بعد الوعد القاطع، ذهب للمقابلة مخمورًا، وطار حلم الجزائر.

البـــدايـــة..
حبّ، وشجنُ أوتارِ كمان.

(١)

نقص عدد أفراد الأسرة اثنين؛ "راجي" بسفره، و"ميشو" بموته. صرنا أربعة أفراد، ماما وبابا، ورمزي، وأنا. كنت على وشك دخول المرحلة الثانوية، بعد تفوق باهر اضطر بابا للاعتراف به، والتخلي عن عادته القديمة في معايرتي قائلا: " جبتِ خمسة وتسعين في الميه بس؟! ده أنا تلامذتي جابوا ثمانية وتسعين"! كان النجاح مريرًا كالفشل تمامًا، حين يعلّق عليه، لكنني عرفت بعد ذلك أنه كان يفخر بي "من ورائي"!، حين كان زملاؤه يتصلون به في التليفون، وأرد عليهم: "أنتِ بقا البنت المتفوقة في الدراسة، والمزيكا، والألعاب؟! طب سيبي لإخواتك حاجة! ده باباكي فرحان بيكي قوي". لم أكن أفرح كثيرًا بمثل هذا المديح، بل أشعر بالصدمة، وأزداد نفورًا منه.

"رمزي" يمضي في طريقه في كلية الطب، بشيء من التعثر، و"شيل" المواد، لكنه لم يرسب، يقترض الكتب، والملازم، من زملائه، إلا ما يضطر إلى شرائه اضطرارًا؛ كالجمجمة، والعظام، والكتب، التي يفرضها الأساتذة ـ فرضًاـ شرط النجاح. ويتخلى، هو، وماما، عن قطع اللحم بدعوى الشبع، كي يتركاها لي.

صرت أشارك "رمزي" المذاكرة، حين لا يحضر إليه أصدقاؤه، نشعل "وابور الجاز" في الغرفة لنستدفئ في الشتاء، ونغرقها بالماء في الصيف، وحين يبدأ في التذمر من جديتي الشديدة في المذاكرة، ننهمك سويًا في إعادة تلوين الجمجمة، ووضع شارب لها، ونظارة سوداء، يمسكها بيديه، ويحرك فكيها، ويتكلم بصوت "أراجوز"، فتنفجر الضحكات في الغرفة.

لا أعرف حجم تضحيات بابا في تلك المرحلة، انقضى ذلك الزمن الذي كان يدخل فيه البيت فيمنحني كيس "العسلية"، وكيس "البونبوني"، يقتسم الكمية الشهرية بيني وبينه، أجهز على ما لديَّ في أيام معدودة، بينما يحتفظ بمقتنياته الثمينة، ويأكلها أمامي باستمتاع، لآخر الشهر.

البيت ممتلئ بأصدقاء "رمزي"، لا يتحرش بي أحد، رغم مراهقتي البادية، ونقاط الدم، التي بدأت تلوث أرديتي، تسري بينهم أغنيات الشيخ إمام، وأغاني البيتلز، ويذهبون إلى نوادي السينما، وأحيانًا، يصطحبونني معهم، أسير بينهم متلذذة بسندوتش السجق، ولا أفهم شيئًا من حديثهم عن اللقطات، والإخراج، والسيناريو المكتوب بحرفية.

تنبأ لي أحدهم من من يكتبون الشعر، بأنني سأكون "كاتبة" جيدة ذات يوم، بعد ما أطلعه "رمزي" على بعض خواطري، طرتُ من الفرحة، وأحببته، لكنه في الزيارة التالية أحضر معه صديقته، فماتت الفكرة.

"رمزي"، كذلك، كان يحضر صديقته "مها" إلى البيت، كنا نحبها، أنا وماما، وكانت تحبه، لكنه أسر لي ذات يوم، أنه "بعزها" جدًا، لكن لا يحبها، وقد قال لها ذلك بوضوح، "لأنه مبيحبش يلعب بمشاعر حد"، وعلى الرغم من كل هذا الوضوح، فإنها ظلت متمسكة به، لوقت طويل.

تركت مدرستي الإعدادية، حيث عقدت صداقات مع المدرسات والناظرة، امتدت لسنوات طويلة منذ طفولتي، لم أزل أتذكر "الكمان" الذي كانوا يسمحون لي، أحيانًا، بحمله إلى البيت قبل الحفلات، للتدرب، تعلمته "سماعي"، وعلى الرغم من ذلك فقد فزنا في مسابقات كثيرة، أهمها مسابقتنا مع مدرسة "الإنجلش سكول"، ذات المسرح النظيف المهيب، الذي لم نتعود على مثله، ولولا مُدرّسة الموسيقى، وإدارتها الحكيمة لشعورنا "بالنقص"، لما هزمناهم: "دي راحت ولا جت مدرسة "خاصة"، إيه مش حتغلبوا مدرسة خاصة يا بنات إعدادي عام؟!".

طورت مهاراتي في "أكروبات" الدراجة في القفز على الحصان، في فريق الجمباز، كنت أسمع "الآهة" العالية من زميلاتي، ومدرساتي، وأنا أطير في الهواء، لكنني لم أفز أبدًا في مسابقات المدارس. رغم الصور العديدة للاحتفالات، التي ما أزال أحتفظ بها حتى اليوم.

(٢)

اختلف الأمر، تمامًا، في ثانوي، أعادني "فصل المتفوقات"، الذي التحقت به، إلى حجمي الطبيعي، ما إن دخلنا امتحان التيرم الأول حتى لاحت الفاجعة، وبصعوبة شديدة استطعت البقاء في "المركزالعاشر".

لم يعلق أبي على هذا الانحدار المفاجئ، بدا كأنه لا يعنيه، على الرغم من تلك الأيام الطويلة، التي لم أتوقف فيها عن البكاء، وعدم الرغبة في الذهاب إلى المدرسة، مرة أخرى، ورغم كل محاولات ماما لتشجيعي،

ودفعي لتخطي الكبوة، ظل لديَّ ذلك الإحساس الثقيل بالفشل: "أنا كنت الأولى طول عمري يا ماما، دلوقتي العاشرة. ومهما بأذاكر بأفضل برضو العاشرة بس!"، تدخل "رمزي"، وفي حوار منفرد بيننا، استطاع إقناعي بأن فصل المتفوقات مختلف عن مدرستي الإعدادية، به بنات آتيات من "الليسيه"، و"النوتردام"، و"الإنجلش سكول"، و"متعلمين كويس"، انكسرت أسطورتي عن المدارس الخاصة وفاشليها، أخبرني، أيضًا، أن التفوق له شروط أخرى، ليست المذاكرة، وحدها: "البيئة لازم تكون "مستقرة"، إحنا حياتنا مش مستقرة يا حبيبتي، شوفي زميلاتك الأوائل دول، كلهم مستريحين ماديًا، ومستقرين، وما مروش بمشاكلنا.. دي شروط التفوق، غصب عنك، أنا كمان يادوب بأنجح في الكلية، ظروفنا زفت، كتر خيرنا أننا مكملين أصلا". أعجبني التبرير، وبدا مقنعًا جدًا لي، فاستطعت في التيرم الثاني الوصول للمركز الثامن، دون تعاسة، وكما ينبغي لمن ارتضت، باقتناع تام، دور "الضحية"!

(٣)

ما إن نلعب أدوارًا حتى تصير جزءًا منا، يقسمها علينا القدر كما أردنا تمامًا، فنصير "ضحايا" بالفعل، فما إن أتى "التيرم" الأول من ثانية ثانوي، حتى بدأ بابا في التقيؤ المستمر، والإسهال، جرى "رمزي" ليحضر له الطبيب، فبقينا وحدنا، أنا، وهو، وماما، أخذته ماما إلى الحمام فتواريت قليلًا، لكن صرختها، وهي تناديني، اقتلعتني من مكاني، هرعت إليها

فوجدته على وشك الوقوع من بين يديها، كان نصفه الأسفل عاريًا تمامًا، بعضو صغير يلتصق بفخذه، لا أعرف إن كان لاحظ انهماكي بمشاهدته أم لا، لكن ماما، وبحنان بالغ، طمأنته: "ما تتكسفش، دي بنتك" أرقدناه على الإستوديو أمام الحمام، وغطته أمي، كان شتاء، وكان يرتجف، وبدا كأنه يريد أن يقول لنا شيئًا، لكن الكلمات كانت تخرج من فمه مدغومة، ولا معنى لها، طمأنته ماما: "أنا مسامحاك، مسامحاك يا "غريب" يا ابن "زهيرة" مسامحاك يا حبيبي"، لكنه لم يكن ينظر إليها، الشيء الوحيد المؤكد لي الآن أنه كان ينظر إليَّ، ويحاول أن يقول لي شيئًا، لم أفهمه.

(٤)

نقله "رمزي" حين عودته إلى فراشه، حتى يأتي طبيبه المعالج، ظل هو، وماما، معه في غرفته، بينما انسحبتُ من المشهد، بعد قليل، حضر الطبيب، ومشى، حمله "رمزي" وماما في سيارة جارنا، وحكت لي ماما أن الطبيب قال: "الأمر انتهى، ساعات قليلة"، لكنهما، هي و"رمزي"، قررا بذل محاولة أخيرة بالذهاب إلى مستشفى "هليوبوليس"، حين وصلا إلى هناك، أفهم "رمزي" طبيب الاستقبال أنه طالب في الطب، فجامله بالنزول إلى السيارة، ونصحه بالعودة، حتى لا "يتبهدل"، قالت ماما إن كفه كانت تقبض على كفها، وإنها أحست ببرودتها طوال الطريق إلى المستشفى، لكنها لم تُرد التصديق، وقال الطبيب: "البقية في حياتكم".

(٥)

لم أكن أريد توديعه، لكنني لم أستطع الرفض، كنت قد رأيت ما يكفيني في تلك الليلة، رأيت ما لم يره حتى أخي، حين قبلته في جبينه، كما أشاروا عليَّ، رأيت عينيه تنظران لي، لكن ماما و"رمزي" قالا لي: "بابا مات، وعينه مغمضة، دي تهيؤات"، لم أصدقهما، وبخاصة أنه بعدها بأيام ظل يدق على باب غرفتي، دقات ملحة، ومتوالية، حتى استيقظت، وهرعت إلى "رمزي"، فزعة، أسأله: إن كان هو من دق بابي عند الفجر فنفى، وكذلك ماما، ظل يأتي إلى عدة أيام، أحيانًا في الحلم، بوجه يغطيه جير أبيض، وهو مرتد كفنه، يكلمني من وراء الباب بنفس الكلمات المدغومة، التي أراد أن يقولها لي، وهو يحتضر، لم أفتح له أبدًا، حتى رحل للأبد، ولم يعد يزورني، ولو مرة، طيلة حياتي، وحتى الآن.

(٦)

أرسلوني في الصباح إلى بيت صديقاتي، حتى لا أرى طقوس الدفن، حين عدت إلى البيت الفارغ منه، انكفأت على وجهي، وأخذت أبكي، صرخت ماما: "ضعنا يا بنتي"، وهدأتنا الجارات، وانتزعتني إحداهن من انكفاءتي على وجهي، بصرامة: "ما تتكفيش على وشك أبدًا.. فاهمة؟!".

ما كان باقيًا كان الأصعب، تشخيص سبب الوفاة، ظل سرًا بين

أفراد العائلة، والمقربين، كتب طبيبه المعالج، الموقن بالنهاية، قبل ذهابه إلى المستشفى، مجاملة للأسرة المكلومة، وسُمعتَها: "وفاة بسبب أزمة قلبية"، وتواطأ الجميع على ذلك.

ما كان باقيًا بكاء "رمزي" الدائم، أقرب الأبناء إليه، و"دلوعة بابا " كما كنا نعايره، وذلك الشعور الدفين بالذنب، الذي لم تفلح ماما لسنوات في محوه عني: "أنا كنت بأدعي عليه يموت كل يوم يا ماما، مش يمكن أكون أنا اللي موتته؟".

في نهاية العام لم أذهب إلى الامتحان، كان مستواي قد تدهور حتى أتيت في ذيل فصل المتفوقات، وهددتُ من الناظرة بإبعادي منه، كنت أترك المذاكرة ـ أنا التي كانوا ينتزعون الكتب عنوة منها كي تكف عن المذاكرة ـ وأشاهد التليفزيون لساعات طويلة، دخلت ثلاثة امتحانات، وتغيبت عن ثلاثة، بدا، محتومًا، أن أُعيد السنة، لولا أستاذ اللغة العربية، المحب للشعر، الذي ذهب إلى الإدارة التعليمية، وأفهمهم الظروف، التي أمر بها، وكتب تعهدًا على مسؤوليته، فسمحوا لي بملاحق لثلاث مواد، حين أعلنت رفضي الذهاب، كلمني في التليفون: "يعني حتدخليني السجن يا بنتي؟! ده أنا زوّرت ورق علشانك". فبكيت، وذهبت لامتحان الملحق، وفاء بوعدي له، ونجحت، وعبرت السنة الثانية الثانوية بسلام.

(٧)

تأثرت صحة أمي كثيرًا على مدى تلك السنوات، لم تكن تأكل كثيرًا، تُفضلنا على نفسها في ما هو "مغذي"، حتى وإن كان "جزرة مسكرة"، نقضم قضمة منها لتتذوقها، ثم تحتفظ بها حتى نعود، ونتقاسمها، أنا و"رمزي"، تفرح، وتدعو لنا، وهي تتأمل "قبيلتها" تحيط بها. موت أخيها، الأحب إلى قلبها، منتحرًا، لم يكن سهلًا، وقطيعة الآخر، بقيت لها خالتي، أختها الأكبر، حتى نهاية عمرها، وبرغم اختلافهما الجذري، أو ربما بسببه، لم ينقطعا أبدًا.

في البداية، وبعد سفر "راجي" أصابتها "الدودة الشريطية"، تختفي وتعود، رغم العلاج، وبعد موت أبي ظلت كسور اليد، والقدمين، تداهمها، الواحدة تلو الأخرى، حتى إنها أصبحت مادة للتندر الأسري.

تعثر الولدين، وها هي البنت وراءهما، انتقالها من الثراء إلى الفقر، منحنيات حياتها الدرامية؛ حب مستحيل، ثم زيجة للهروب، انتهت بطلاقها، وزواجها ثانية من أبي.

أبي، أيضًا، كان تعسًا في تلك الأيام، التي التقيا فيها، زوجًا وزوجة، ظلت حلمًا بالنسبة إليه، تجمعهما روابط عائلية بعيدة، وموطن واحد، حين اضطرته الظروف لأن يتخلى عن حلم الالتحاق بكلية الهندسة، ويلتحق بمعهد المعلمين المتوسط، كي يوفر لأسرته ما يعولها، وكي يصرف على أخيه الأصغر، ليحقق حلمه هو بدخول الهندسة، ويصير مهندسًا مرموقًا بعدها، بل رئيس مجلس إدارة إحدى الشركات

الكبرى، وهو ما كان.

لا يمكن له أن ينالها، هي ابنة التاجر الثري، حبيبة أمها، و"دلوعة" أبيها، دون باقي أخواتها، وهو ابن التاجر البسيط، الذي أشهر إفلاسه عند أول ضربة سوق.

خريجة المدارس الفرنسية الابتدائية، ثم مدرسة "السنيّة" الثانوية، تكتفي منها بشهادة الثقافة، ولا تكمل الطريق إلى البكالوريا، ثم الجامعة، رغم تشجيع الأب، تدللاً منها لا عجزًا، ورغبة في الكسل وكتابة الشعر. ما لم تقترفه أختها الكبيرة، أبدًا، وبدأب، ودون دعم، أو اهتمام، دخلت المعلمات العليا، وتخرجت منها بنجاح، أشادت به مدرساتها الإنجليزيات، صحيح إنها لم تعمل، وتزوجت مدرسًا، لكنه متخرج من المعلمين العليا، أيضًا، استطاعا معًا أن يوفرا، ويضعا القرش إلى جانب الآخر، فأمِنا انهيارات التاجر الثري، واشتريا بيتًا جميلاً بحديقة، في حي راقٍ، وتوافد الأبناء حاملين شعلة النجاح نفسها، فنالا الدكتوراهات في الهندسة، لا الهندسة فحسب، والتفوا جميعا حول الأم الصارمة، حد القسوة أحيانًا. وهو ما كان يدهش أمي، ويبعث في نفسها شيئًا من الحسرة، وبخاصة حين تعاتبها أختها، أو صديقاتها، على الانحدار العنيف لأسرتها، وعلى منظرها المزري، بفستان واحد تلبسه عاما بعد آخر، بعد أن كانت ترتدي أفخر الموديلات من عند الخياطة اليونانية الشهيرة "مدام بايوكي"، كن جميعًا يعيبون عليها "تدليلها" لأبنائها، نحن، حتى فسدوا.

أفلس التاجر الثري، بعد مغامرة، غير محسوبة، في البورصة، فباع كل شيء، إلا "اسمه"، سدد ديونه، حتى لا يشهر إفلاسه، وزاد عنفه

على جدتي حين يشرب.

تحكي أمي أنها الوحيدة من بين أخواتها، التي كانت تتصدى له حين يعنف جدتي، وهو سكران، وحين تقف بينهما تتحداه "أن يلمسها"، كان ينكسر أمامها، ويتراجع، ويملأ البيت بعويله، وندبه، وصراخه، على ما ضاع. حين صارت الحياة مستحيلة، في بيت الأبوين، قررت الزواج من أول عريس تقدم، رغم حبها لآخر، حبًا لم يكن الزواج طريقًا ممكنًا له، ولم يكن "العريس" سيئًا أبدًا، حسبما تروي، كان يحبها، وبدا لها أنها "تحبه" تتلمس طريقها لنسيان الحب المستحيل، لكن إخواته البنات دمرن كل شيء، حسب روايتها، سافرت مع "وكيل النيابة" الشاب، إلى بيتهم بالمنيا، الولد الوحيد على أخوات بنات، وهناك انفردن بها، وعاملنها "كضرة"، و"قلبوه عليها"، وانتهت الزيجة الخاطفة بطلاق مدوٍّ، كما حكت لي.

ما تزال صورة أمي مع "العريس الأنيق" في بيتي، أعلقها باعتزاز على جدار الصالة، بالقطع لم أره، لكنني تمنيت دائمًا لو كان أبي، وربما، لأنها الصورة الوحيدة لأمي في شبابها "بفستان الفرح"، فليست لها صورة به مع أبي، وفي الغالب لم ترتدِه إلا هذه المرة.

حين عادت مطلقة إلى بيت أبيها، لم تجد جدتي في البيت، فإثر نوبة هياج من جدي "رفع يده عليها"، وكامرأة، ذات أصول، ونسب هددته: "لو مديت إيدك عليَّ مش حاقعد لك في البيت". لم تكن أمي موجودة لتحول بينهما، وانفصلت جدتي عن جدي يومها، فأصبحت أول امرأة في العائلة تنفصل عن زوجها، وتعيش بمفردها، دون طلاق، لم يكن الأمر

مزعجًا لها كثيرًا، شعرت أنها احتملته عمرًا بكامله، ولم يعد في مقدورها المزيد في شيخوختها، رحلت مع خادمة صغيرة، وتناوبت أمي البقاء معهما، لفترة قصيرة، بدا لها فيها، كما تحكي، أن جدي نفسه آثر البقاء وحيدًا، حتى موته. وتولى الإنفاق على جدتي، بكرم شديد، أخواها، اللذان ركبا "وابور البحر" ذات فجر، لينالا الدكتوراه في الطب من إنجلترا، وعادا موفوري الرزق، إلى جانب إرثهما، الذي لم يضع.

ظهر أبي في حياتهما، بشكل متكرر، وبزعم الاطمئنان على جدتي، بعد طلاق أمي، كانت جدتي تحبه، وكانت الظروف قد تغيرت تمامًا، أبي طلق زوجته بعد أشهر قليلة، يقولون إنها خانته، ورأى ذلك بعينيه، لم يقتلها، ولم يحدث فضيحة، تكتم الأمر، فهو لم يكن يحبها، حسبما عرفت، لكنها هزمته، بعد أن "انتشلها" من الطرقات، كما يحكون، لاح الحب القديم في الأفق، ولم لا؟! فتقدم لأمي بمباركة جدتي، وعدم اعتراض جدي، المنشغل بهمومه، وتزوجا.

بشيء من الإحساس بالرضاء بما هو أسوأ، والسقوط من طبقة إلى أخرى، والتسليم بالقسمة والنصيب، تمت الزيجة، هكذا يحلو لي تأويل مصيرهما أحيانًا، لم أكن قد جئت إلى الحياة بعد، لكن الحكايات تقول إنهما كانا زوجين جيدين، جمعت بينهما الهزائم، ولولا غيرة أبي الشديدة عليها، التي وصلت أحيانًا إلى حد الشك، غير المبرر بالنسبة لها، لسارت حياتهما دون أزمات، خصوصًا أن الصور، التي تجمع الأسرة الصغيرة حينذاك: هي، وهو، والابنان الطفلان، في أول إعارة له إلى ليبيا، توحي بأسرة مستقرة، تمتلك رفاهية الثلاجة الكهربائية، التي حرصا على التقاط الصور إلى جوارها.

لولا "راجي"، الابن الأكبر! فحسب روايتها، كان يعامله منذ طفولته بقسوة غير مبررة (أجزم بأنه كان يشك في الحب القديم، ولم يكن جرح الخيانة قد برؤ!) إلى الحد الذي دفعها لمحاباته دائمًا، لما شهدته من تمييز واضح من جهته بينه وبين الابن الأصغر "رمزي"، الصور الأبيض والأسود، والحق يقال، تدعم روايتها، فعادة ما يظهر أبي محتضنا رمزي ومبعدا راجي، بينما ينظر إليه الأخير، ولم يتعد السادسة، محرومًا، وبائسًا.

حين أصيبت جدتي بسرطان العظام، عادت أمي، من ليبيا هذه المرة، وجدت المرض قد استفحل، ولا شفاء منه، لم تكن تصرخ بغير: "يارب، وأخفت عليَّ مرضها طويلا" كما روت أمي، كان راجي يشارف العاشرة، ورمزي الثامنة، وكنت جنينا عمره شهر.

لاحظت جدتي حمل أمي، وسألتها، فأجابت أمي أنها تعد للإجهاض، "كالمعتاد"، توسلت إليها جدتي: "بلاش المرة دي والنبي يا سعاد، خليه عشان خاطري"، فرضخت أمي لأمنية ما قبل الموت، وقالت: "خلاص يا ماما لو طلعت بنت حاسميها فاطمة"، أغمضت جدتي عينيها، وكأنها استراحت من الألم، وأجابتها ممتنة: "طيب يا ختي". ظهرتُ بعدها إلى الوجود بثمانية أشهر، بوصية جدتي الأخيرة، واسمها في شهادة ميلادي، ماتت بعد الأمنية بأيام، وكما قيل لي ظلت أمي تجلس طوال شهور حملها، مرتدية السواد، على كرسي، دون حراك، تبكي، يطعمونها بشق الأنفس، وكنت أتلقى تلك الدموع، وذلك الفتات في بطنها.

(٨)

أصرت ماما، هذه المرة، إصرارًا لا شبهة تراجع فيه، على أن نخفي عن راجي خبر موت بابا. وعلى الرغم من الصور، التي كان يرسلها تباعًا، بين أصدقائه الألمان في المدينة الجامعية، وهو يدهن الحوائط مبتسمًا، وهو يجلس على مائدة الإفطار المشتركة، الطويلة الأنيقة، فإنها الوحيدة التي كانت تأخذ "إلماحاته" بالغربة، والحنين للوطن، والبيت، على محمل الجد. لم يكن قد أمضى أكثر من ثلاث سنوات، ورغم حرماننا من ممارسة طقوسه المحببة، كشيّ اللحم في عيد الأضحى، كي لا نذكرها به، فإنها قاومت، هذه المرة: "لو رجع.. حيدخل الجيش عسكري بثانوية عامة.. يعني ضاع للأبد، أنا ما صدقت لقيت له سكة". كانت قد أرهقت تمامًا، من سنوات المراوغة مع شيوخ الحارات، تارة بالاستعطاف، وتارة بالرشوة.

عرف بعدها بأشهر قليلة من صديقه، الذي كان سبب سفره، والذي تزوج من ألمانية، تكبره في السن بضعف عمره، منحته الإقامة، ثم الجنسية الألمانية، وهو ما حلمت به أمي لراجي، لكن "هيهات"، هكذا كان يقول لها: "مش أنا اللي أتجوز بالطريقة دي"، وكان ـ صديقه ـ قد ترقى في محل بيع السجاد، وصار خبيرًا، ومديرًا له، واستقر في شقة أنيقة، في فرانكفورت، امتلكتها زوجته، موظفة المخابرات الألمانية، الثرية.

كان، أيضًا، قد تباعد تمامًا عن "راجي"، بسبب "راجي" نفسه، الذي أخذ عهدًا على نفسه بمقاطعة العرب، أيًا من كانوا، والحياة "كألماني"

صميم، يتقن اللغة في بضع سنوات كأهلها.

تباعدت خطاباته بعدها، كأنه كان يرسلها، فقط، إلى أبيه، ليؤكد له أنه استطاع تحقيق "حلمهما" القديم، بدخوله كلية الهندسة، كان بابا يردد فرحًا: "هندسة؟! وكمان من ألمانيا"!

لكنها لم تشعر بالراحة، أو الثقة الكاملة في ما يرسله إلينا، هي الوحيدة التي تفهمه، والتي تعرف مراوغاته، كنا نتهمها أيامها بإشاعة حالة "اكتئابية" لا مبرر لها، حزنها الدائم على فقده من ناحية، وتخوفها على مصيره، ظللت أتهمها "بالمبالغة" في الشك، والحزن، أنا و"رمزي"، حتى كفت عن إبداء الأسى والخوف، وتظاهرت بالمرح أمامنا، كلما استطاعت. في ما بعد، ومنذ سنوات قليلة، عثرت من بين الكراسات، التي كانت تكتب فيها، على كراسة صغيرة، حملتُها من بين ما حملتُ من البيت القديم، لم تُرها لي أبدًا، كسائر ما كتبتْ، كانت تدون فيها آلامها لفراقه، ومعاناتها من اضطرارها لإخفائها عنا، فبكيت.. كانت تلوذ بالكتابة، تمامًا كما أفعل أنا منذ سنين، وكما أفعل الآن.

حين ذهبتُ إليه "مفاجأة"، بعد انهيار ثانية ثانوي، وعدم قدرتي على التصدي للثانوية العامة، وأنا على هذه الحال، وبإقناع من الصديق القديم، وهو يمضي إجازته في القاهرة، "تشوف أخوها وتغير جو.. مش فارقة سنة يعني ياطنط، أنا حاأخد أختي معايا كمان"، سافرت معهم، بتذكرة ذهاب فقط، دبرتها ماما بصعوبة، واشتركت في "جمعية" لتوفيرها.

لا شيء يعدل حدس الأم، بوغت بحضوري، وانكشفت أوراقه، كان الوضع "كارثيًا"، أمهلته الجامعة شهورًا قليلة، قبل فصله النهائي،

منها، ومن المدينة الجامعية، يعمل ليومين ليدبر قوت باقي الأسبوع، ثم ينام، تثقله "القروض" المتراكمة، وديون "الخمر"، طلب مني إخفاء الأمر، وعدم الاتصال بأحد، لا ماما ولا "رمزي" بالقطع، لا أحد من العرب المقيمين في المدينة الصغيرة، التي يعيش فيها، والذين حاولوا، بشتى الطرق التودد إلى تلك الفتاة اللطيفة "العربية"، ولا حتى الصديق القديم، الذي حنق عليه، لأنه صاحب الفكرة البغيضة بإرسالي إليه!

في الحجرة الضيقة الصغيرة في المدينة الجامعية، أمضيت أسوأ أيام حياتي، وفي النهاية، وبعد أن مرت الشهور هناك، دون بارقة أمل في قدرته على تدبير تذكرة عودتي، أرسل إلى ماما خطابا بالفاجعة، بتفاصيلها كلها، واتهمها، و"رمزي"، بأنهما لا يقدران أبدًا "هول" ما يمر به، بل إنهما يرسلان له ضيفة ثقيلة.

ارتعبت أمي، ودبرت لي تذكرة عودة على الفور، واستقبلتني في المطار بعد أن زاد وزني لأضعاف ما كان عليه، وهي تتحسسني، وتبكي: "مالك.. فيكِ إيه؟ حصل لك إيه؟!"، كنت قد أمضيت شهورًا لا آكل سوى الخبز المقدد، وبقايا الجبن، ما يتركه لي الطلبة الألمان في "الويك إند" في ثلاجتي، كي لا يفسد، أمضي الوقت كله بين الغرفة والمطبخ، مراعية عدم ظهوري إلا للطلبة فقط، المتعاطفين مع الموقف، كي لا نطرد، أنا وهو، من المدينة الجامعية.

لم أستطع أن أحكي لها ما حدث لي، حتى وهي تسألني عن ذلك الجرح، الذي لم يلتئم تمامًا في رسغي الأيسر، لكنني أخبرت "رمزي" وهو يبكي، ويحتضنني، بانتحاري الأول من هول ما لاقيته منه، وبأنني لا أريد

أن أخبر ماما بما وصل إليه، فطلب مني أن أخفي عنها ما حدث، واتفقنا على طي الصفحة، والبدء من جديد.

قبلها، ساعدني "رمزي" في كتابة خطاب له، أصف فيه كل مشاعري تجاهه، وتجاه ما فعله بي في "الغربة"؛ تركه لي لأيام دون نقود، حرماني من إرسال أي خطاب أستنجد فيه بماما، لترسل لي تذكرة عودة، "الحبس الانفرادي" كما سميته، الليالي التي كان يصر ألا أنام فيها، أغالب النوم، بمصباح واهن، أمام الحوض الصغير في الغرفة، وقد أغلق الستارة بيني وبينه، حتى ينام، لأوقظه في الفجر، وإلا لن يذهب إلى العمل، ولن نأكل لباقي الأسبوع، حتى حين انتحرت كان: "كل ما يهمك: عايزة تموتي؟! موتي بعيد.. مش ناقص مصايب".. إلخ. أرسلت الخطاب دون علم ماما، بالطبع، وفي نهايته جملة: "أنت لست أخي، ولا أريد أن أراك أبدًا"، وأسمينا الخطاب، أنا و"رمزي" خطاب "التشفي والانتقام"، حتى بعد أن أرسل لي اعتذارًا مقتضبًا، عما حدث منه، لم أبرأ مما فعل، وحتى وأنا أكتب هذا الآن، لا أريد أن أتذكر، وما تزال تلك الذكرى ثقيلة، كصخرة، أزيحها بعيدًا، وبقوة عن ذاكرتي.

(٩)

اختفى، لم يعد يرسل أية رسائل، ولم يعد يتحدث إلينا في الهاتف، تنفرد ماما بنفسها، وتبكي، تسأل عنه كل من تصادفه آتيا من "ألمانيا"، ترسل معهم شرائط الكاسيت، لعلهم يرونه صدفة، متوسلة له بعذاب

قلب الأم، الذي يحترق، فلا تعرف هل هو ميت؟ أم ما يزال حيا؟ حتى الصديق القديم قطع صلته به، وكان مصدر أخباره، لكنه طمأن ماما أنه حي، فلو حدث له شيء، سيعرف.

لم يظهر إلا بعدها بسنوات، وتحديدًا حين قابله الصديق القديم، صدفة، في محطة قطار، حين عرف أن "رمزي" صار "طبيبًا" في "السعودية"، تلقينا منه مكالمة، أثناء إحدى إجازات "رمزي" في القاهرة، لم تكن ماما في البيت، تلقيت المكالمة، وهللت من الفرحة، كأن ممحاة محت جرحي القديم، كنت قد كبرت، وعرفت جراحًا أمرّ، طلب مني أن أخبر "رمزي" بضرورة الاتصال به، وترك لي رقم صديقة له، حين طلبت منه أن يتصل، مرة أخرى بعد قليل، لأن ماما "ستجن" من الفرحة، تغير صوته: "لأ.. ماما لأ. مش عايز عواطف، مع السلامة"، بهتُ، وانفجر شلال الغضب القديم في قلبي.

لم أخبر ماما، وهي تتقافز فرحًا، وتبتهل حمدًا لله على نجاته، بما جرى في المكالمة، أعدت تفاصيلها عليها، عشرات المرات، إلا جملته الأخيرة، لم أتخيل فكرة أن أخبرها بأنه يرفض سماع صوتها بعد هذه السنين، كانت قد اطمأنت أنه بخير، ورأيت أن هذا كافيًا.

استطاع إقناع "رمزي" بمشاركته في تجارة السيارات، عاد متحمسًا للفكرة، هو وزوجته، تجميع سيارات قديمة، وإعادتها إلى حالها، وبيعها، أرسل له خمسمائة دولار كي يبدأ، على أن يكون الربح "مناصفة"، ولى حلم الهندسة، على أية حال، ولم يعد سوى ذكرى، انتظر "رمزي" طويلاً، كانا يتهاتفان، دون علم ماما، وبدأت أحلام مزيد من الثراء تخايل زوجته،

لكن "راجي" اختفى مرة أخرى، وخسر "رمزي" الدولارات، وخسر أخاه، كي لا يغضب زوجته، وعلى الرغم من محاولته، في البداية، تبرير ما فعله أخوه لها بظروفه الصعبة، التبرير المحمل ببقايا حب قديم جمعهما معًا، حتى إن الناس كانوا يظنون أنهما "توأمان" من شدة ارتباطهما، فإن كل هذا لم يصمد، أمام التوصيف العاري، وضعته زوجته، ليحسم كل تضارب مشاعره: "أخوك سرقك".

(١٠)

فوجئ بابا برجل يدق جرس الباب، ويطلب من ماما مقابلته: "لأمر عائلي"، نادرًا ما كان يزورنا أحد، سوى أصدقاء "رمزي"، صديقاتي مُنعن من زيارتي منذ وقت طويل، قالت أسرهن: "ده بيت فيه جدعان"، فكنت أزورهن أنا، عادة، مقدرة تخوفات ذويهن.

كان بابا لا يحب الاختلاط بالناس، وكثيرًا ما أفشل مخططات ماما بتبادل الزيارات، بكل الحجج الممكنة، قالت لي: "لما كان بيقعد في قعدة كان بياكل الجو من كل الناس، بس ما كانش عنده ثقة في نفسه، أول ما يمشوا يقول لي: بلاش زيارات تاني من فضلك".

أتت زيارة الرجل الغريب قبل موت بابا، ببضعة أشهر، حين رآه "رمزي" من غرفته، حيث جلس للمذاكرة مع صديقه، بدا عليه الانزعاج، وأغلق الباب عليهما مسرعًا.

تنصتنا، أنا وماما، على الحوار، وعرفنا أن "رمزي" ذهب إلى الرجل ـ منذ أكثر من أسبوع ـ مع صديقه ليخطب ابنته! لكن الرجل طلب منه أن يحضر أباه وأمه لخطبتها فوعده، ولما لم يحضر في موعده، قرر المجيء بنفسه للأب، لاستجلاء الموقف.

بدا أبي هادئًا، تمامًا، وأقر ـ كذبًا ـ أن ابنه فاتحه في الموضوع، بالفعل، وأن ابنه رجل بمعنى الكلمة، واختلق حوارًا، دار بينه وبين "رمزي"، بأنه نصحه بإرجاء المسألة، حتى ينهي السنة الثالثة من كلية الطب، "ونتمم الخطوبة بإذن الله".

أذهلني وماما هدوء أعصاب بابا، واحترافيته في إدارة أزمة كهذه، خرج الرجل بعد أن تواعدا بزيارة الأسرتين، ودخل بعدها بوجه محمر إلى غرفة "رمزي"، ولما كان صديقه قد قفز من الشرفة، أتيح لهما أن يتحدثا بصوت خفيض، لم نتمكن أنا وماما من سماعه، لكننا رأينا آثار الحديث على وجه "رمزي" لأيام بعدها.

غضبت ماما، وقاطعته، لم تكن تصدق أنه سيبدأ في التفكير في الزواج قبل تخرجه، وقبل أن تجني الأسرة أية ثمرة من ثمرات عمل "الدكتور" الذي "شقيت علشانه"!

بدا الأمر وكأن البيت قد تحول إلى مشهد "حسنين" وهو يخطب "بهية" في رواية نجيب محفوظ "بداية ونهاية"، هكذا علقت ماما باستهانة (راجمة بالغيب وهي لا تدري!) ولم يرق قلبها، كعادتها، له، حين رأته يغلق عليه باب غرفته لأيام، ويستمع إلى أغنية: "في يوم.. في شهر.. في سنة" لعبد الحليم، بشكل متواصل، بل يكتبها بخطه، ويعلقها على باب غرفته،

فلم تصالحه، كما كانت تفعل دائمًا، ولم تستمع إليه، وهي التي استمعت بالساعات لشكاوى "راجي"، و"كانت تقدر مشاعره، إنما أنا لأ!" كما شكا لي بعدها.

(١١)

أنا، كذلك، لم أقدر مشاعره، كنت أعرف "البنت" التي هام بها، وهي في الشهادة الإعدادية، لا يرضى أن يركب المترو ليوصلني إلى المدرسة ـ كعادته ـ في طريقه إلى الكلية، إلا إذا أتت، يجلس قبالتها، ويتعمد أن يطيل النظر إليها، بينما "تتصنع" الارتباك.

نعم.. كانت تتصنع الارتباك، ففي طريق العودة كنت أقابلها في المترو، أنا بزي ثانوي عام، وقد أغلقت أزرار القميص حتى الزر الأخير، وعقدت الكرافتة، المستعارة من كرافتات بابا، بإحكام، بينما هي بأزرار قميص مفتوحة، وشعر متهدل، وضحكات تجوب المترو، مع صديقاتها، تلميذات المدرسة الخاصة، المشتركة، سيئة السمعة، الشهيرة بشعار "لم ينجح أحد" في ميدان الحجاز.

طالما سخرت مني هي وزميلاتها، بزيي الصارم، وحقيبتي الثقيلة المملوءة بالكتب، وهي تشير إليّ بكراسة وكتاب فقط.

وطالما رأيتها تشير إليه من شرفة بيتها، حيث اعتاد، في الآونة الأخيرة، أن يقيم، مع أصدقائه، ماتشات الكرة، بالقرب من بيتها.

فهمت، بعدها، لماذا تركته "مها" التي أحببناها، وصارت جزءًا حنونًا من عائلتنا، واختفت من حياتنا للأبد.

(١٢)

بعد موت بابا أتى المعزون، أولهم أبوها وأمها، رغم أن الأسرتين لم تبادلا الزيارات، بعد واقعة زيارة أبيها لأبي، ولأنه استطاع المرور من ثالثة طب بمقبول ومادتين "رغم ظروف موت بابا" كما قال، استطاع ـ بضغط متواصل على ماما، لم تتمكن من الإفلات منه ـ أن يعقد الخطوبة، وأن يكتفيا "بلبس دبلتين" مؤقتًا، رغم تدخل خالها، كبير أسرتها، الذي أشبعه سخرية: "وإحنا نجوز بنتنا لعيل ليه؟! ده أنت لسه بتاخد مصروفك، من ماما". أمام تعهده، الذي بدا صادقًا لخالها، تم التغاضي "مؤقتا"، عن ظروفه، أو هكذا قال لنا، وهو يداري شعورًا لم يستطع أن يخفيه بالإهانة، بأنه: "حأبقى دكتور، وحأبقى غني، وحاخليها أسعد إنسانة في الدنيا".

حُسم الأمر، وعلى مضض مني، ومن ماما، تبادلت الأسرتان الزيارات الرسمية، وبدأت ماما في مطالبته ببعض الالتزامات تجاهي: "أختك تخرج معاك لوحدكم مرة كل أسبوعين، زي ما كنتوا متعودين"، وافقها على الفور، والتزم مرة، ثم بدا عليه الضيق والتذمر، فآثرت أن أحرره من الالتزام، وأحرر نفسي من انتظاره بالساعات الطويلة، ولا يأتي.

أظن الآن، أن مسألة أزماتي في الثانوية، لم تكن بسبب أنني وجدت

نفسي في "ذيل القائمة" في فصل المتفوقات، بعد موت أبي، كنت قد نسيت "راجي" بعد سفره، ولم يعد لي سوى "رمزي"، أقرب الناس إلى قلبي، وها هو ذا يختطف مني إثر قصة حب عارمة!

نطيل ثلاثتنا، أنا وماما وهو، الزيارات حتى النصف الأخير من الليل، رغم إشارات ماما بأنه وجب الرحيل، والوقت تأخر، لكنه يتجاهلها، ويتجاهل تثاؤب الجالسين كلهم، محدقا في حبيبته، بوجد، وكأن العالم خلا، إلا منها.

وحين نعود، ثلاثتنا في آخر الليل، يتوقف في منتصف الطريق، متذرعًا بضرورة العودة إليها، لأنه رأى "نظرة شجن" في عينيها، وهو يغادر، وسط تذمر ماما، وحنقها: "طيب وصلني أنا وأختك الأول.. حتسيبنا في الشارع ف نص الليل؟!"

كان كمن أخذه تيار جارف، لايرى شيئًا سواها، كأنها قارب نجاة يتهادى من بعيد لمن يوشك على الغرق!

(١٣)

"أنا عايزة أدخن".
قلتها بتحدٍ، بعد عقد خطبته بأسابيع، نظر إليّ غاضبًا:
"لو شفتك بتدخني حأطفي السيجارة ف وشك".

كل البيت كان يدخن إلا أنا؛ ماما، وبابا، وهو، و"راجي"، لم يكن

هذا هو السبب الحقيقي لشروعي في تحديه، فمن وراء الزيارات الأسرية الرسمية، كنت أراها في غرفته، يغلقان الباب، وحين يفتحانه في النهاية، أراها وقد تمددت في فراشه، بسيجارة، يشعلها لها خصيصًا بسعادة، وهيام.

كانت أصغر مني ببضعة شهور فقط، جميلة، ومغوية، يمضي النهارات معها في بيتنا، يعد لها الشاي والساندوتشات، ولم يفلح تذمر أمي، وطلبها "مراعاة مشاعر أختك" إلا في مزيد من الشقاق بينها وبينه.

لكنني في النهاية اشتريت علبة سجائري الخاصة، وذهبت إلى ماما، وبنبرة أخف كثيرا من التحدي، وأقرب إلى الاعتراف، قلت لها: "ماما أنا بأدخن، ومش عاوزة أدخن من وراكِ". نظرت إليَّ، ولم تتكلم، مددت يدي إليها بسيجارة فأخذتها بهدوء، كانت من الصنف الذي تدخنه، وأشعلتها لها، وجلسنا ندخن سويًا في صمت.

(١٤)

لكنها هجرته، أتت إليه ليلة امتحان السنة النهائية بالطب، وأخبرته أنها لا تحبه! حاولتْ، لكنها لم تفلح، ونزعت دبلتها، وسرت الشائعات باتفاقات سرية، تمت بين أسرتها وابن عمها الطبيب المتخرج منذ سنوات، يمتلك شقة وعيادة، و"الأقربون أولى".

لم يكن هذا هو السبب الحقيقي، لم تكن هي نفسها، موافقة على

ابن عمها، من فترة، لكنه حب قديم، كان يعلم به أخي، لاح ثانية في الأفق، بعد ما ظن أنه "أبرأها" منه.

هذه المرة حمل نفسه إلى الإسكندرية بقلب كسير، كان متأكدًا أننا لن نتعاطف معه، بل على العكس، قد نبدي شيئًا من الراحة، مهما حاولنا إخفاءها، ظل هناك حتى انقضت الامتحانات، بينما ماما تذهب وتجيء في البيت تسبها: "يعني ما كانتش قادرة بنت الكلب تستنى لما يخلص امتحانات.. منها لله، منها لله".. ضاعت السنة الرابعة في الكلية، على أية حال، وحين عاد من الإسكندرية قابلناه بالأحضان، وكأن شيئًا لم يكن.

(١٥)

شهور مضت، وبدا في طريقه إلى النسيان، شاغلته صديقتي "هيام" المتزوجة اللعوب، تكبرني بأعوام، كان زوجها مسافرًا، وكانت كما قالت لي: "منفصلة" عنه، دون طلاق، من أجل طفلتيها. تحكي لي عن مغامراتها، التي لا تنتهي، حتى مع الفتى الصغير، الذي طالما لعبتُ معه، ونحن صغار، صار مراهقًا، يضرب أمه وأخته فور تعاطيه حبوب "الماكستون فورت"، ويصير كالمجانين، تخلصهما من بين يديه، وتطلع به إلى شقتها، لتهدئه، وفي الصباح تحكي لي عن "عضلاته" القوية، وجسده الفتي.

رغم اختلافنا كنت أحبها، هي أيضًا لم تحاول، أبدًا، أن تستميلني

لطريقها، عرفت بذكاء فطري، أنني أصغر منها عمرًا، ولا تجربة حقيقية لي، لم تكن جميلة، لكنها تمتلك تلك الروح الخفيفة، تطلق النكات كبالونات ملونة تطير حولها، وتغرقني في الضحكات، طوال جلستنا.

صارحتني بحبها الجديد، واستغرقت في حوار "رومانتيكي"، بدا غريبًا عليها، عن أول مرة في حياتها تشعر بالحب، وأنها ستغير كل حياتها من أجل حبيبها الجديد، ستطلق زوجها، وتمضي معه، ولن تعرف سواه، لم تستطع كتمان السر أمام إلحاحي، وفي النهاية أخبرتني بما كان يدور من وراء ظهري، بينها وبين أخي، فضحكتُ، وحين عدت إلى البيت، وواجهته ضحك هو الآخر، وعدنا كما كنا : أختًا وأخًا.

(١٦)

وعيت ـ بعد ما كبرت ـ تلك الهاوية التي استشعرتها أمي، كانت تصطحبني معها في طفولتي لزيارة أقاربها؛ عمها المهيب الأنيق، الذي حاول إصلاح ما بينها، وبين خالي، والذي كان يزورنا في أوقات متباعدة، "طنط جيلان" لم تكن تزورنا، أبدًا، لكنها كانت تقابل ماما بالأحضان، في شقتها الكبيرة ذات التراس الواسع، والسقوف العالية في "الكوربة"، أجوب التراس بالدراجة، دون أن يوقفني أحد، كان يحلو لأمي أن تذهب إليهم بالمترو، ثم تنزل قبلها بمحطة، أو في "روكسي"، كما أطلب، كي تشتري لي تفاحة مغلفة بالحلوى الحمراء، ولها يد صغيرة، ألتهمها كالآيس كريم، من البائع اليوناني الواقف أمام "صيدناوي". تصر على

اختراق الشوارع مشيًا، وتقول لي، للمرة الألف، إن الشارع، الذي نسير فيه الآن، سموه على اسم عمها "عبد السلام جردانة" المهندس الشهير، تقديرًا لنبوغه، وشهرته.

في أيام أخرى، كانت الأسعد بالنسبة إليّ، كنا نذهب إلى بيت بنت عمها "طنط نانا"، زوجة الطبيب الشهير، رفيقة الصبا، وأسرار الحب الأول، في شقتها بالزمالك. كانت جميلة، بملامح سمراء، تستقبلني بأكياس الحلوى، والشوكولاته، تعدها خصيصًا لي، وتقدمها لي ـ مُصَنفة ـ واحدة تلو الأخرى، في مفاجآت متعاقبة، وحين نجلس على السفرة للغداء، يحيط بنا السفرجي بجلبابه الأبيض، والحزام الأحمر، أشعر أنني أمام طقس مهيب، وخصوصًا أن ماما كانت تذكرني ـ همسًا ـ قبل الجلوس دائمًا، بما تعلمته منها ومن طنط "شريفة"؛ الأكل بالشوكة والسكينة، وإغلاق فمي، وأنا أمضغ. وكنت أؤدي دوري بنجاح، وبخاصة أنني أمارسه في البيت، حين تطلب مني ذلك، لكنني كنت أشعر في بيت "طنط نانا" بشيء من التوتر، خشية أن أقع في خطأ غير مقصود، فكنت أختار الأطعمة، التي لا يمكن أن أخفق في تقطيعها، وأتجنب الدجاج الشهي المحمر، الذي يحتاج إلى مهارات خاصة في تقطيعه، وأدعي أنني لا أحبه، وكانت ماما تؤمن على كلامي.

كانت ماما تحب "طنط نانا"، وهي أيضًا كانت تحبها، لديَّ حتى الآن صورة تجمعهما معًا، تحتضن كل منهما الأخرى، في سنوات الصبا. كان يحلو لماما أن تتأمل صور صباها، من وقت إلى آخر، وهي تقول لي: "كانوا بيقولوا أيامها مفيش أجمل مني، وحاتجوز أحسن جوازة في البنات كلهم!".

تباعدت الزيارات، حتى انقطعت تماما، بمرور السنين، ولم أعد أرى "طنط نانا"، وسائر أقرباء ماما، إلا في عزاء أبي، حضروا، وحضرن، بسيارات فارهة بسائقيها، تقف قليلا أمام بيتنا، ثم تنطلق بالمعزين، أولئك الذين لم أرهم بعدها، أبدا.

كانت ماما هي التي آثرت الابتعاد عن "طنط نانا"، كما أخبرتني بعد أن كبرتُ، طالما قابلتْ في بيتها أقرباء، وأصدقاء طفولة، باتت مقابلتهم عبئًا، لم تعد تحتمل نظرة الاندهاش، والإشفاق، في أعينهن، وهن يرينها بفستان بهت من كثرة ما لبستْه، وحذاء مشقق، تداريه تحت أرجل المقعد، ولم يفلح دفاع "طنط نانا" عنها بأنها ضحت كثيرًا من أجل الأبناء، في زيجة ـ لم يكن من الممكن أبدًا، أن يتصوروها، ولو على سبيل التخيل ـ في محو إحساسها بالمهانة.

تركتهم أمي جميعًا، دون ندم، وربما بارتياح من أزاح عبئًا. على الرغم من كل شيء، فإنها لم تحب في حياتها سوى قبيلتها الصغيرة من الثلاثة أبناء، كانوا كل حياتها، كل عالمها، ورغم أنها كثيرًا ما كانت تحدثنا عن تضحياتها تلك، فنتجاهلها، أو نحولها لنكات نضحك عليها جميعا، بما فيهم هي نفسها، فإنها كانت تقدم لنا كل التبريرات الممكنة حين تشتري لنفسها شيئًا جديدًا. حين كبرتُ أرتني حذاءها المفتت، كي تقنعني بأنها لم تكن مسرفة، حين اشترت هذا الحذاء الرخيص اللامع، بدلا منه، لكنني لم أقابل الأمر بنكتة هذه المرة، بل رددت عليها بشيء من الحدة: " ماما. أنت مش محتاجة تقدمي مذكرة دفاعية عشان جزمتك اتقطعت، وحتشتري واحدة جديدة. كفاية بقا. ده حقك. مبروكة عليكي"، لم تغضب من حدتي، أيقنتْ، ربما، أنني كبرت وفهمت، فابتسمت لي

في امتنان، وارتدتها، وسارت بها في البيت، طوال اليوم، حتى "توسع شوية".

(١٧)

أحببت بيت جدي لأبي، غرفة جدي، بمشمع أرضيتها ذي الرائحة الثقيلة، طربوشه المعلق، وبدلته الأنيقة. ما أزال أحتفظ بصورته، التي تبدو "مهيبة" حتى الآن. لكنه لم يكن، أبدًا، مهيبًا بالنسبة لي، وهو يرقد في فراشه، مدعيًا إصابته بالشلل، لسنوات عدة، وبعد ما راحت تجارته، كي يرغم أبي على التخلي عن حلم الهندسة، والتفرغ لإعالة الأسرة.

غرفته تطل على المقابر، في "السيدة عيشة"، كنت أفتح شباكها، وأتفرج على الجنازات، وشواهد القبور في الليل، ربما لطول ألفتي بالمشهد، لم أشعر أبدًا بالخوف من الموت، بل لعله صادفني أكثر مما ينبغي، دائما أكون هناك حين يحل الموت، دائمًا يتصادف حضوري أمام إنسان يحتضر، دائمًا ما تبحث عني أعين الأهل، والأصدقاء، حين تبدأ طقوس "الغسل"، ودائمًا ما أبادر لتلبية إشاراتهم المحرَجة، وبخاصة حين تكون من ماتت أقرب إليهم مني، دون أي تردد، وأمارس الطقس "المخيف" بالنسبة لهم، بألفة مع الميتة؛ بقبلات على الوجه المسجى، وحنان بالغ.

يهتز البيت، بشدة، حين يمر الترام، لكننا واثقون أنه لن يقع، شقة رطبة في الدور الثاني، أصعد إليها قفزًا، كي أتحاشى السلمات المكسورة، وحمام "بلدي" كنت أسعد جدًا، وأنا أشعر بالهواء يضرب مؤخرتي، من

فتحة الباب، الأعلى، قليلاً، عن الأرض.

جدتي كانت تزورنا، بجلباب أسود، وطرحة، أوصلها لمحطة الأتوبيس في عودتها، وأراها، وقد جلست على الرصيف لانتظاره، فأتركها، وأتمشى قليلاً، ثم أعود فأجدها قد ركبت الأتوبيس فتنتهي مهمتي. كانت سيدة فائقة الجمال، تسير فتتلفت الأعين، بشعر أصفر يتناثر على كتفيها، من وراء غلالات طرحة، غير محكمة، وعينين واسعتين خضراوين. جدي أيضًا كان وسيمًا، حين كبرتُ كنت أراه التجسد الأمثل للسيد أحمد عبد الجواد، يناديها فتلقي بما في يديها، كي تلبي طلبه، في التو، متوترة.

أحيانًا، على سبيل الدعابة، كانت أمي تقف في طريقها: "ما يقوم يا تيزة يجيب اللي هو عايزه، هو عاجز، والنبي ما أنتِ رايحة". لكنها تتملص منها خائفة، وتهرع إليه فور أن تسمع نداءه الصارم: "يا زهيرة.. أنتِ يا بنت".

لا قوالب شوكولاته في بيت جدي وجدتي، لكنني كنت أستغرق تمامًا مع جدتي، وعمتي، في المطبخ، نحضر الغداء، ودائمًا ما يمنحاني شيئًا أعده بنفسي، فطيرة أصنعها على شكل عروسة، سلطة طحينة أنهمك في تقدير نسب الماء والخل، وأنا أقلبها، حتى لا "تفرط" مني.

عمتي "إحسان" لا تخرج من البيت أبدًا، أصابها "داء الفيل"، ومرض القلب، فصارت تتحرك بجسدها الشحيم، من غرفة إلى أخرى، وهي تلهث. لم تتزوج (عرفت بعدها أنها تزوجت سرًا، من رجل متزوج، إثر قصة حب حقيقية، ومتبادلة، أسرت بها لأمي وحدها).

كنت ابنتها الفعلية، لست أنا فحسب، كل أبناء وبنات العائلة أبناؤها، تقضي النهارات الطويلة مع جدتي، تفصصان الزيتون الأخضر، ثم تضعان مستطيلات دقيقة من الجزر في قلبها، مكان البذر، ثم تخللان الليمون، وتضعان العُصفر، ويمتلئ المطبخ بالبرطمانات، كلٌ سيذهب إلى بيته المنتظر.

تحمل الحمولة الثقيلة ـ بعد أن تنضج ـ عمتي الأصغر "ناهد"، التي لا تقل جمالًا عن جدتي، لكنها أكثر جرأة، بروح مشبعة بالفكاهة، كنت أراها دائمًا صورة من "نادية لطفي"، بشكلها، وروحها. تجلس في الأتوبيس بفستان قصير، دون أكمام، على الموضة، وتشعل السيجارة، وتصادق الجميع بنكتة، أو بتعليق ساخر، جارح، أحيانًا، لكنهم كانوا يرونها سيدة جميلة و"بنت بلد"، حتى سائقو التاكسي، بعد أن "تفاصلهم في الأجرة، وتطلع عينيهم"، تطلب منهم الانتظار تحت البيت، ثم ترسل لهم صينية الطعام، مما لذ وطاب، فيضربون كفًا على كف، ويأكلون شاكرين لها الكرم.

تزوجت من صحفي شهير، وانتقلت معه من بيت "السيدة عيشة"، إلى شقة كبيرة، وفاخرة في "جاردن سيتي"، أحبته بصدق، وأنجبت منه الولد والبنات، كان يكبرها بضعفي عمرها، وظلت واثقة أنه سيموت قبلها، لكنه عاش، بعد ما ماتت بسنوات طويلة، بقلب مكلوم، كقلبها، حين كان الموت ينتظرهما في مكان لم يتوقعاه، افترس ولدهما الوحيد في طفولته، غرقًا، وبقيت البنات، وعاشت عمتي، بعد موت الابن، بمزاج متقلب، وعقل شريد.

(١٨)

بيت عمي، أيضًا، كان جميلاً، لم يكن أنيقًا كبيوت عائلة أمي، لكنه كان مرتبًا بكلاسيكية، وأثاث غالٍ ومتين من "دمياط"، الموطن الأصلي لعائلتي أبي وأمي. استقر في الإسكندرية، بحكم عمله، حيث زيارته تعني، بالنسبة إليَّ، متعة ذات نكهة خاصة، نذهب أنا وماما، ونقضي يومين أو ثلاثة، على الأكثر، بخلاف إقامتنا الطويلة في بيت طنط "أم فؤاد" في السويس، كانت ماما تقول: "بلاش نتقل عليهم"، لم يذهب معنا أبي أبدًا، لا إلى بيت جدي، ولا إلى بيت عمي، أحيانًا كان يمر وحده، وعلى عجل، ليرى أخته "إحسان"، الوحيدة التي لم تتمكن من زيارتنا، أما جدتي، وعمتي ناهد فكانتا تتناوبان زيارتنا. لم يكن يرغب في رؤية جدي، كما أخمن الآن، ولا بد أنه لم يغفر له أبدًا تعليقه في عامود السرير، وضربه بالحزام، كي يصير، هو الأخ الكبير، رجلًا. ولابد أنه لم يغفر له ضياع حلم الهندسة، بسبب "تمثيلية الشلل اللي عاملها" كما كان يقول.

حتى عمي تباعدت زياراته لنا، بعد أن صار رئيس مجلس الإدارة، وبعد أن أثقل عليه أبي بالاقتراض، ثم انقطعت تمامًا، بعد أن علا صوت أبي ـ ذات مرة ـ وهو يتحدث إلى أمي: "ضحيت بحياتي عشان أعلمه، وآخرتها يقول لي "أسلفك بس بشيكات".. ابن الكلب"!



(١٩)

انقطعت علاقتنا بعمي تمامًا، بعدها، لم نره إلا في موت أبي، حاولت ماما إقناع "رمزي" بأن يكون لطيفًا مع عمه، كان "رمزي"، كعادته، منحازًا لبابا، أعطته درسًا مقتضبًا بأنه الآن رجل البيت، وأن علاقة أبيه بعمه لا تخصه، وأنه عمه، على أية حال، و"أختك محتاجة أهل برضو"، لكنه حين مال عليه عمي ليخبره بما دفعه من مصاريف الدفن والجنازة، هرع إلى ماما ليخبرها، فذهلت، وحين أصر "رمزي" على أنه من الكرامة أن يرمي له "الفلوس في وشه"، أجابته ماما بصرامة غير معهودة "مش حياخد ولا مليم، لو عنده هو كرامة مكنش قال كده، خلاص أهي ليلة وتعدي".

لم أر عمي بعدها إلا في عزاء أمي، بعد أن مر عشرون عامًا، وقفت السيارات على الباب، وترجل منها رجل مسن، بصحبته زوجة عجوز، وأختها، وبنتا عمي، وزوجاهما، وابن عمي وزوجته، امتلأ البيت عليَّ، وأنا أتفرس في وجوه أبناء عمي، رفاق الطفولة، واللعب، والبحر، وبلهجة، بدت لي حاسمة، قال: "ياللا لمي هدومك.. حستناكي" لم أفهم، بادرني: "حتروحي بيت عمك، مينفعش تقعدي لوحدك، بيت عمك مفتوح"، بدت لي كلمة "بيت عمك" غير مفهومة، كأنها تأتيني من عوالم أخرى، ومن لغات أخرى، ترددت قليلًا في اختيار الكلمات قبل أن أجيبه: "ما ينفعش يا عمي.. هنا ورايا مذاكرة..". رنّت كلمة "ورايا مذاكرة" غريبة في أذنيَّ وأنا أنطقها، أحسست بأنني أقع في كمين، حين أخاطبه بتلك اللغة الطفولية، أحسست بأنني أستسلم لسيناريو، تم وضعه في اللحظة نفسها: إنه بالفعل "عمي"، وإنني "الطفلة" ابنة أخيه، وإن ما

يمنعني من الذهاب معه، هو إنني "ورايا مذاكرة"! شجعته الكلمة هو أيضًا فألح: "هاتي كتبك معاكي، ياللا حنستناكي"، لكنني استعدت حضوري الفعلي: "لا.. لا.. هنا حياتي، ما ينفعش.. نهائي".

رحلوا ـ على وعد ـ بأن أفكر في الأمر، وقبل أن أسرح في أفكار من قبيل: "هل ظلمه بابا؟!"، "هل ظلمته ماما؟!"، رأيته يتوكأ على عصاه، يفتح له السائق الباب، فيجر قدميه ليصعد إلى كرسيه، وتلحق به زوجته، وأختها، تتوكأ كل منهما على الأخرى، بينما يسرع الأبناء بركوب سياراتهم، بدا عجوزًا، ووحيدًا، وبدوا جميعًا منشغلين عنه، ففهمت إلحاحه عليّ.

لم أفكر في الأمر، بل تحول إلى نكتة مع صديقاتي في المساء: "أنا طلع لي عم، وعايزني أسيب كل حاجة، وأروح أعيش معاه، وأمرّضه، وأغير حياتي كده في خمس دقايق!"، كنت أداري بالضحكات، ذلك الشعور بالعبء، عبء ظهوره في حياتي، عبء إلحاحه المتوقع عليّ في الأيام التالية.

لكنه لم يفعل، لم يزرني، أبدًا، بعدها، ولم يتصل بي، لا هو ولا الأبناء، بالتليفون، رغم إصراره يومها على تدوين رقمي، والتأكد منه أكثر من مرة، وبعدها ـ بأقل من سنة ـ سمعت أنه مات.

(٢٠)

عاد الزوج المسافر، فجأة، وبعد مناقشات، ومداولات، وعويل، ونحيب، عادت "هيام" إلى زوجها، من أجل "البنتين اللي لسه صغيرين دول"، هكذا قالت لي، وهي تمشط شعرهما، وتبكي بدموع حقيقية، وتطلب مني أن أبلغ "رمزي" بالقسمة والنصيب، وترجوه ألا يغضب منها.

لكنه غضب، غضبة عارمة، وكتب لها خطاب وداع، شديد اللهجة، يتهمها فيه بالخيانة، واللعب عليه، وطلب مني أن أوصله لها.

حين دخلت بيتها قابلتني بالأحضان، وقابلني زوجها بترحاب غامر، بينما جلست البنتان تختلسان النظر إلى حقيبتي، حيث اعتدت أن أخرج لهما الشوكولاته، بمفاجأة، اعتادتا عليها.

خيم على البيت، بعد الانفصال، الذي لم يمتد طويلًا على أية حال، حالة بهجة، دعمتها "هيام"، وهي تختلي بي في غرفتها، لتريني هدايا زوجها، وتسألني عن رد فعل "رمزي"، أخبرتها بغضبه، فحزنت، ثم قالت بهدوء: "بكره لما يتجوز ويخلف يفهم". لكنني لم أرها الخطاب، شعرت بعدم جدواه، وشعرت، أيضًا، بالخجل من أداء هذا الدور، أن أدخل بيت رجل قابلني بكل الود والطمأنينة، لأسلم زوجته، من وراء ظهره، خطابًا من عشيقها!

كان الأمر واضحًا لي تمامًا، ولم يستدع أي تردد، لكنني حين عدت، وأخبرت "رمزي" بأنني لم أستطع أن أعطيها الخطاب، دون أن أحكي له،

بالطبع، عن أجواء البهجة ـ التي رأيتها بعيني ـ ثار عليَّ ثورة عارمة، حين حاولت تبرير موقفي "الأخلاقي" لم يفهم، وزادت ثورته: "هو أنتِ فاكراني كنت عايزها ترجع لي؟ دي مين دي اللي حأجري وراها؟! أنا بهدلتها بس، وأنت ما رضيتيش تساعدي أخوكِ حتى في الاحتفاظ بشيء من كرامته".

امتد بيننا الخصام لأكثر من شهر، وفجأة عاد كل شيء إلى طبيعته، لم يكن السر هذه المرة في أنه نسى، ولكن بسبب الزيارات المتكررة لأم بثينة، حبيبته، إليه، لم تكن تزورنا، بالطبع، في بيتنا، تجنبا لمقابلة أمي، كانت تمر من أمام البيت، فتراه يجلس في الشرفة مع أصدقائه، يذاكر في السنة الرابعة، التي أعادها بسبب فك الخطبة، تشير إليه من بعيد، فيقفز من الشرفة ليلقاها في الشارع، لم ندرِ أنا وماما بشأن هذه المقابلات، لكنني عرفت من تندر أحد أصدقائه عليه: "هي الست دي حتشاور لك كل يوم؟ أنا مش فاهم هي اللي بتحبك وللا إيه؟!".

أخبرت ماما، فاكتأبت، ثم تجاهلت الموضوع، وقبل إعلان النتيجة مباشرة، أتى إلينا معا، أنا وماما، وأخبرنا بأنه، وفور ظهور النتيجة، سيتزوج "بثينة"، التي عاد إليها، وعادت إليه.

نزل الخبر على ماما كالصاعقة، كانت تنتظر تخرجه بفارغ الصبر، كي يحمل عنها شيئًا، ولو بسيطًا، من حملها الثقيل، ونزل الخبر عليّ كحكم إعدام، تم النطق به من زمن، وآن تنفيذه.

(٢١)

حين عدت من ألمانيا كان المتبقي على امتحان الثانوية العامة شهرين، فكرت في تمريرهما، والإعادة من أول السنة، لكن ماما كانت قد دبرت كل شيء في غيابي، تسجيلي "منازل"، بعد إعلان رفضي "البات" الذهاب إلى المدرسة، مرة أخرى، بل إنها ذهبت إلى المنطقة التعليمية، واشترت الكتب. كانت تعرف أن الوقت الباقي ليس كافيًا للمذاكرة، لكنني أدركت "رعبها" القديم، من مسلسل إعادة الثانوية العامة.

بنصف عقل أجلس للمذاكرة، أفكر في ألمانيا، ورحلتي التعسة، وأتأمل، من حين إلى آخر الندبة في رسغي، وأول محاولة انتحار. لم تطلب مني ماما أن أنجح، رجتني، وتوسلت إلي: "ادخلي الامتحان بس.. وحياة ماما.. واسقطي مش مهم"، لكنني نجحت، من المرة الأولى، بخبرة الطالبة المتفوقة القديمة، وبمجموع، رغم ضعفه بالنسبة إليّ، هو الأعلى في شارعنا!

لم أجرؤ، وأنا أشاهد زميلاتي في فصل المتفوقات، يدخلن الطب، والهندسة، والصيدلة، كما كان متوقعًا لي منذ عامين، أن أطالب بإعادة الكابوس القديم لأمي، إعادة الثانوية العامة لتحسين المجموع، كنت أراهنّ، صدفة في الطريق، فأتجنبهن تمامًا، كي لا يجرنا الحديث إلى حلمي القديم بدخول كلية الطب، والتخصص في "أبحاث السرطان"، هذه العبارة، التي طالما أثارت السخرية، لكنني كنت أسكت الجميع فور أن أقول: "عشان أعالج اللي ماتوا بمرض جدتي".

كان عليَّ أن أحمل إرث "رسوب أخويَّ المتتالي" على ظهري، وأرضى بما كتب لي: "كلية الآداب، قسم علم النفس"، دون حماس، ودون رغبة، وبعد أن أقنعني "رمزي" بأنه في إمكاني بعدها الحصول على دبلومة "معالج"، والعمل بها، وأن هذا الدور لا يقل أهمية عن دور الطبيب!

بدت الرحلة وكأنها شارفت على الوصول؛ "رمزي" تخرج أخيرًا، وأنا في كلية الآداب، قسم علم النفس، وماما تبدو هادئة، وراضية.

(٢٢)

بماكياج ثقيل، كقناع سميك، وفي الثامنة عشرة، من عمري، أعبر ببطء "ممر جيمي"؛ الممر الأشهر في آداب عين شمس، والذي استمد اسمه من اسم صاحب كشك المشروبات والساندوتشات، حيث يجلس جنبًا إلى جنب، فتيان وفتيات الطبقة الوسطى العليا في مصر. يعاكسني الأولاد، وتمتعض البنات، وهن يعلقن على "كيلو المساحيق"، الذي أضعه على وجهي، لم يكن لديَّ أصدقاء، من البنات، صديقتاي الوحيدتان، وجارتا الطفولة، والمراهقة، تزوجتا، وسافرتا في العام نفسه (لم تكن "رئيفة" قد ظهرت بعد في حياتي)، حتى "هيام" منعها "رمزي" من دخول بيتنا، لأن "بثينة" تغار منها. آثرت صديقتي الابتعاد بعد ما علمت بالمشاجرة العنيفة، التي دارت بيني وبينه: "يعني حأطرد صاحبتي من بيتي عشان بثينة؟! يا سلام، والله حتيجي غصبن عن الكل"، ورغم انحياز ماما لي، لم أفلح في

إقناع "هيام" بمعاودة زيارتنا، وإقناعها بقراري، وقرار ماما بأن: "اللي مش عاجبه يتفلق".

لم أستطع تكوين صداقات في السنة الأولى في الجامعة، كنت أشعر أنني مررت بخبرات كثيرة، وأشعر أنهم أطفال بالنسبة لي؛ من منهم، على الأقل، خاض تجربة الغربة كما خضتها؟! من منهم نام في محطة القطار ذات ليلة بملابس رخيصة و"تجمد" من البرد؟! من منهم "كسر" إقامته، وتركه أخوه أمام محطة القطار في الطريق إلى المطار، موصيًا إياه: "أوعي تقولي لحد كنتِ فين طول المدة دي، أنا مش عاوز مشاكل"؟ من منهم لف المطارات "ترانزيت" بتذكرة دبرتها أمه "بالعافية"، وتعرض للمساءلة المهينة من البوليس في المطار، بسبب إقامته غير المشروعة؟! ونفذ "بإعجوبة"! كانوا صغارًا، خارجين للتو من الثانوية، يعتبرون الجامعة تجربة جديدة!

حتى "ممر جيمي" صرت أتجنبه، لا بسبب سخرية البنات من المساحيق، وإنما بسبب ملابسي، أو فستاني الجديد الوحيد، الذي اشترته ماما لي، احتفالاً، وتشجيعًا، والذي انكشف أمام آخر موضات الأزياء، وتغيرها اليومي في الممر الشهير. كنت فتاة جميلة، وكنت أعرف هذا، "مغرورة" كما يقول البنات، و"حقها" كما يقول الأولاد لإغاظتهن.

(٢٣)

تزوجا بعد أسبوع من إعلان نتيجته، لم تستطع أمي الصمود أمام توسلاته، أعطته معاش بابا لشهر، على أن يرده فور الحصول على

"النقطة"، واشترى غرفة نوم بالتقسيط، واحتلا معًا الغرفة نفسها، التي كان يحتلها "راجي"، ذات الشرفة الطويلة، "كأفعى"، والمطلة على الشارع.

صرنا مرة أخرى "أربعة" في البيت، في معسكرين طبق الأصل، لكنني انضممت هذه المرة لأحدهما، فبعد أن كانا: ماما وراجي، وبابا ورمزي، صرت أنا وماما، في جانب واحد.

ظلت ماما تنتظر "النقطة" كي تصلح من اعوجاج المصروف الشهري، لكن "رمزي" ظل يسوّف، حتى اضطر إلى الاعتراف بأن زوجته حصلت عليها، واشترت بها هدايا لأخواتها، توسل لماما: "معلش ياماما، أنا اتخانقت معاها، عروسة بقا، فوتي".

تقاسمنا الحياة، بمعاش بابا الهزيل، دخل "رمزي" الجيش، وذهبت زوجته لتقيم عند أهلها، في الشارع المقابل. بعد عودته، كان كل منا يتجنب الآخر، وذات صباح لاحظت أمي تحت فراشهما زجاجات مليئة بالبول، فعرفت أنه يتبول فيها ليلاً، حتى يتجنب المرور بنا، وهو ذاهب إلى الحمام، اقترحت عليه أن ينقل غرفته إلى الغرفة الواسعة الخلفية، فرحب. كنت أسكنها، لكنني لم أمانع، كانت قريبة من الحمام، وكان من الممكن أن يقفز أي منهما من الشرفة ليخرج، دون أن يرانا، أو يضطر إلى تجنبنا: أنا، أو ماما.

(٢٤)

بيت "طنط شريفة" بيت هادئ، إلا من الصوت الرتيب لماكينة الخياطة في النهارات. رائحة القماش النافذة تعبق المكان، لكننا اعتدنا عليها، وصارت من ملامح البيت، واعتدنا على صوت مضرب الذباب، وهو ينقض على ذبابة، نادرة، في الغرفة، يصيدها زوجها "أونكل سالم" بمهارة المحترفين. عادة ما يتمشى في أرجاء المنزل طوال اليوم، قبل أن يختلي بنفسه في غرفة مكتبه بعد الظهيرة، يرتدي بنطلون البيجاما المقلم، والفانيلة، نصف كم، ناصعة البياض، ويضع على كتفه الأيسر فوطة نظيفة. لا أتذكره أبدًا إلا على هذه الهيئة، وكأنه لم يرتد في حياته ثياب الخروج!

للبيت "فراندة" واسعة، تطل على حديقة، في أحد ضواحي مصر الجديدة الهادئة، كنا غالبًا ما نجلس فيها في الصيف، أنا، وماما، وطنط شريفة، يمر علينا ابنتها الكبيرة "سلمى"، أو ابنها "شهاب"، يتبادلان الحديث قليلًا ثم ينصرفان، وقد يمنحني، أحدهما، قطعة شوكولاته.

كنت أفضل الجلوس معهما في الفراندة، خوفًا من غضب "طنط شريفة" إذا لعبت في الصالة الواسعة، وأخللتُ بنظام الأنتريه، أو السفرة، المرتبين دائمًا بعناية فائقة، كان يمكنني الجلوس في المطبخ، على منضدة الطعام، أتلقى نفحات "طنط شريفة"، ولقرب المطبخ من باب الشقة، كنت متأهبة، دائمًا، لأداء مهامي في فتح الباب، كلما دق الجرس.

لم أكن أحب الجلوس على مائدة الطعام الرئيسية مع العائلة، خصوصًا إذا اكتظ بيت "طنط شريفة" بالأقارب، ساعتها سأتلقى تأنيبًا

علنيًا: "اقفلي بقك وأنت بتاكلي"، أو "امسكي الشوكة صح"، وعلى الرغم من أنني مدينة لها بتعلم آداب المائدة، فإن تأنيبها الصارم، أمام الناس، كان يبكيني لليالٍ طويلة.

لكنها كانت تكافئني، تحتفظ لي بقطع القماش الفائضة من الزبائن، وتصنع لي فساتين جميلة، أتباهى بها أمام صديقاتي، حتى حين بلغت الثانوي، وأخبرتها بغرامي بفساتين سعاد حسني في فيلم "خللي بالك من زوزو"، وجدت في الأسبوع التالي كل الفساتين معلقة على الشماعات في غرفة الخياطة، فأغرقتها بالقبلات، رغمًا عنها، وهي تدفعني ضاحكة: "خلاص بقا يا بت.. مبروكين عليكي".

"سلمى" و"شهاب"، بالطبع، كانا عنوانين للأناقة، تفوح منهما العطور، كما تفوح من فمهما الكلمات الإنجليزية، والفرنسية، أصرت "طنط شريفة" على إلحاقهما بتعليم أجنبي، منذ الطفولة، ولأنها تخرجت في معهد التدبير المنزلي، أخذت قرارها فورًا، بالعمل "خياطة" لتوفر للبيت نفقات حياة كريمة، ذاعت شهرتها في مصر الجديدة، وأتت إلى البيت الممثلات، والراقصات الشهيرات، فاكتسبت، بزبائنها، مكانة اجتماعية مرموقة في الحي كله.

لم يكن أونكل "سالم" مقصرًا، ربما كان يعيش على معاش ضئيل، يأتيه من السودان، حيث جذوره، وعائلته، انقطع عنهم بعد نفيه إلى مصر، تزوج "طنط شريفة" بعد قصة حب، هامت فيها بالمُعارض السوداني، وعلى الرغم من أنها لم تكن تعنيها السياسة بشكل عام، فإن وسامته الباذخة، وخفة ظله، أوقعاها تمامًا في غرامه.

لم يكف أونكل "سالم" عن إبداء آرائه اللاذعة، وكراهيته لعبد الناصر، وهي كراهية شاركه فيها أبي، لكنها كانت آراء مبثوثة في مقالات لا يقرأها سوي القليلين، لذا حين أتى "زوار الفجر"، واقتحموا بيت "طنط شريفة"، وأخذوه، كان الأمر جللًا.

انفض الأصدقاء عن البيت، انقطع رنين التليفونات الدائم، وانقطع الزبائن، لشهور عدة، وسرت مفردات غير معهودة في بيتهم: "تجهيز الزيارة"، "التليفون المراقب".. إلخ.

كل ما أعرفه أنه لم يكن معتقلًا، بالمعنى الذي كنا نسمع عنه، بل إن طنط "شريفة" كانت تحكي لنا عن مشاغباته مع الضباط، وردهم عليه ضاحكين: "بالراحة يا أستاذ سالم ما توديناش في داهية"، لكنها كانت تشكو لماما، دائمًا، في تلك المحنة، من انكشاف "معادن الناس".

ظلت ماما تزورها باستمرار، غير عابئة بتحذيرات بابا، وفي ما بدا لي فإن تحذيراته كانت من قبيل فعل الواجب، وأنه فخور بها بشكل ما.

كثرت أحاديث ماما، في تلك الآونة، عن وطنيتها في الثانوي، وكيف أنها في إحدى المظاهرات ضد الإنجليز، استطاعت أن تمر، بالكاد، من تحت حوافر حصان العسكري، قبل أن يدهسها، وهي تهتف: "داون ويز إنجلند". لكننا لم نكن نأخذ كلامها على محمل الجد.

حين عاد أونكل "سالم" إلى البيت، منهكًا، يثور لأتفه الأسباب، معتزلاً أغلب الوقت في غرفة مكتبه، احتملته طنط "شريفة"، رغم شكواها الدائمة لماما، وبدت طنط "شريفة" أكثر عاطفية مما مضى معي، كنت أحبها، وأعرف أنها تحبني، بطريقتها، وكنت أعرف أنها من يوقف طيشي

في المراهقة، من طرف خفي، فعادة ما كانت ماما تستجيب لنزقي، إلا حين تبدي طنط "شريفة" اعتراضها، فيحسم الأمر ضد رغباتي.

عاد البيت يضج بالزوار، وعادت أثواب القماش تصطف، في نظام محكم، إلى جوار ماكينة الخياطة، لكن طنط "شريفة" صارت ترجئ حياكة ملابسي الجديدة بحجة انشغالها، حزنت ماما من تغيرها غير المتوقع، ومن تحججها طوال الوقت بكثرة العمل، إذا ما رغبت في زيارتها، ومن "شلتها" الجديدة، أولئك اللواتي: "باعوها في أزمتها، دلوقتي بقوا أعز الحبايب!" كما كانت ماما تقول لي، تخرج معهن، ويرتدن السينما، والمسرح، وكلما حدثتها ماما عن مشاكلها، كما كانتا تفعلان، عادة، بتبادل الفضفضة، قاطعتها طنط "شريفة" بالحديث عن روعة ملابس "فرقة رضا"، التي حضرت حفلتها أمس، أو عن إبهار مسرحية "سيدتي الجميلة"! شيئًا فشيئًا، قلّت الزيارات بينهما، لكنهما ظلتا صديقتين، وظلتا، كلتاهما، أول من يظهر معًا إذا احتدمت الشدائد.

(٢٥)

لم تنقطع، أبدًا، علاقتي بهيام، أحكي لها عن كراهيتي للجامعة، ولقسم علم النفس، فتواسيني، لم تعد تزورنا، كنت أنا التي أذهب إليها، في مواعيد، متفق عليها. كانت قد التحقت بالعمل في أحد مكاتب الاستيراد والتصدير، التي كانت تزداد انتشارًا بأسرع من البرق، في أواخر السبعينيات، وخمنت من أحاديثها المتكررة، أنها في علاقة، من علاقاتها،

مع صاحب العمل، لكنها لم تفصح عنها لي، ربما خشيت هذه المرة أن أخبر "رمزي"، فتنكأ جرحه القديم، ونقمته عليها. تحكي لي عن مغامرات المدير النسائية، التي لا تحصى، وتحكي لي، أيضًا، عن الفنادق الفخمة، التي ترتادها معه، في أوقات الفراغ من العمل، يتناولان زجاجات البيرة، ويتحدثان، ويضحكان.

لكن زوجها بدأ يلاحظ ما يجرى، فطلب منها ترك العمل، فوافقته مذعنة، وأفضت لي بالمشاكل، التي قد تنجم عن هذا، فمسؤوليات العمل كلها تقع على عاتقها، ولا بد من البحث عن بديل.

في تلك الليلة، تحددت المصائر. تحددت وسط ضحكاتنا معا: "بس. تاهت ولقيناها، اشتغلي أنت مكاني"، حين أبديت دهشتي، وعدم خبرتي بالعمل، ردت ساخرة: "يعني أنا اللي كنت بأفهم في السكرتارية؟! اتعلمي".

بدت الفكرة هروبًا سعيدًا من الجامعة، حين أخبرت ماما غضبت، وأصرت على إكمال دراستي، دون تعطيل من أي نوع، لجأتْ لرمزي لكنه رحب، على غير توقعها، وتوقعي، بل إنه بذل كل جهده، حتى أزال مخاوفها: "كل الشباب بيشتغلوا جنب دراستهم، سيبيها يا ماما".

"سابتني" ماما، مذعنة، على وعد قاطع بألا أهمل دراستي، مهما كان الثمن. لكن ترك الدراسة لم يكن إلا أوهن تلك المصائر، التي تحددت، وسط ضحكاتي أنا و"هيام"، على أجنحة "الخفة" التي تحلق مع دخان سجائرنا، وتحوم حول زجاجة البيرة المفتوحة أمامها، وكوب شايي الثقيل، تلك "الخفة" التي قررت، في تلك الليلة، أن أتعلمها من "هيام"،

ولو لمرة واحدة، في حياتي: "طيب. حطي لي شوية بيرة بقا معاك، قبل ما أروّح".

لم تندهش! بل لم تبد عليها أية علامة، ولو بسيطة، على أن ما أطلبه غريبًا. كانت كثيرًا، وبخاصة في بداية صداقتنا، ما تلح عليّ بمشاركتها زجاجة البيرة "المشبرة" فأرفض، بحسم، حتى كفت عن دعوتي، لكنني الليلة، أنا التي أطلب منها، ببساطة، أن أشاركها الشراب، بساطة لا تليق أبدًا بمن يمد يده لأول كأس في حياته، ارتشفت الكوب في جرعات متلاحقة، وسريعة، قبل أن تقوم، كما تفعل دائمًا، لتحضر زجاجة أخرى، قائلة في مرح: "الترمس خلص، حأجيب لك سوداني بقى".

(٢٦)

ولماذا أرث كراهية أمي للشراب؟! لا تجارة لديّ أخسرها، كأبيها، وكجدي لأبي، ولا أبناء ينبغي عليّ أن أضحي من أجلهم، كما ظللت أصِم أبي؟! ولا أجد له أي مبرر. لماذا لا أقبل إرثًا آخر، بالرحابة والمحبة نفسها، إرث هؤلاء الذين أضاعوا كل شيء، إرث المتعة الخالصة، النشوة، تَقبُل أن تكون "مدانًا"، و"موصومًا" من الجميع، وأن يكونوا، جميعهم، ضحاياك؟! لا.. بل أكثر، أن تظل في ذاكرتهم دائمًا، كما ظل أبي، وكما ظل جداي في ذاكرة أمي وأبي، تبرر بما فعلوه معك كل ذلك الظلام، الذي يطفح في أعماقك، كل قصص حبك الفاشلة، كل مهانتك، وأنت تستدين، فيتعالى عليك من لا يشبهونهم، ولا يشبهونك! حتى بعد

أن يموتوا، يظلون "كمعركة"، قائمة بينك، وبين العالم، معركة، تمنحك الحياة، أو تمنحك الرغبة، والقوة، في الاستمرار فيها، كي تكون واحدًا من اثنين: منتصرًا، أو مهزومًا، ضحية أو جلادًا، ليس هناك فرق، لقد منحوك الحياة، وأنت أخذتها منهم، بسذاجة من يقضم حبة من التين الشوكي، كي يقشرها! أولئك الوحيدون، العراة، الذين اختاروا، أول مرة، أن يكونوا مشاجب، ولم يكن في إمكانهم، أبدًا، بعدها، أن يختاروا تلك الملابس التي عُلقتْ فوقهم!

(٢٧)

اصطحبتني "هيام" في اليوم التالي، إلى مدير العمل، ووسط ضحكاتهما، على قفشاتها، تسلمت عملي على الفور، اختار صاحب المكتب من تدربني من بين الفتيات، كانت الأقدم، الأقل جمالًا، والأكثر عملية، و"المخطوبة" فعليًا لأحد زملاء العمل. تجنبتني السيدات والفتيات، بحس مؤكد بالخطر، أو بحس "الغربال الجديد"، لكنهن كن يبتسمن في وجهي، ابتسامات مصطنعة، ويشجعنني، فيما أتعلم الدق على الآلة الكاتبة "الأوبتيما"، وأحدث مزيدًا من الضجيج، يمر بي صاحب العمل، ويميل عليَّ في حنو، ويمدح سرعة تعلمي.

كنت في أواخر الثامنة عشرة، ما إن مرت بضعة أشهر، حتى بدأت بوادر نقض العهد، تؤرق أمي، قبل الامتحان بشهر، أمسك بالكتب، أدخل الامتحانات، إلا الامتحانين الأخيرين، حين تبدأ قواي في الانهيار،

أعبر بـ"مقبول" ومادتين.

في الصباح يصطحبني المدير معه في سيارته الفارهة، كان لديه العديد من السيارات، ينتقي السيارة الملائمة للون بدلته، ويداري بأناقة مفرطة، جسده الضئيل، وملامحه الأقرب إلى الدمامة، نمر على الشركات الكبرى، فيحيط به الجميع بترحاب حقيقي، وإذعان، مشوب بالإجلال، من العمال، وفي طريق العودة نمر على أحد الفنادق الكبرى، نتحدث، وينصت لي باهتمام، يشرب زجاجتي بيرة، ويحضر لي "الفروت سالاط بالآيس كريم"، بعد أن أبديت استياء شديدًا، حين عرض عليّ كأسًا من البيرة، فآثر السلامة.

لم يكن مجرد رجل أعمال، يدير مكتبًا كبيرًا، يصبح كخلية النحل أيام المناقصات الكبرى، وينتفض فيه "الموظفون" كبار السن أمام صاحبه، ويرتجفون حين يعلو صوته عليهم، كان رجلاً مهمًا، استشاريًا لكبرى الشركات في مصر، والأهم بالنسبة لي "دكتورًا مهندسًا"، نال شهادته من إنجلترا، واستقال من عمله الحكومي، ككبير مهندسين، ليمارس عمله الخاص.

في العقد الخامس من العمر، حذرتني منه إحدى الموظفات الجدد، التي لم تطل إقامتها، عيّنها لقرابة ما، جميلة، ومتزوجة، وتحب زوجها وطفلها، تأتي إلى العمل بسيارة فارهة، كإحدى سياراته، لم تكن تعاني سوى من "الملل" وسرعان ما قررت الاستقالة، بعد جلسة لطيفة معه في أحد الفنادق، فهمت الأمر. وقبل رحيلها اختلت بي: "أنا ملاحظة أنك مهتمة أكتر من اللازم بالدكتور، خللي بالك، ده راجل متجوز، والنوع

ده بيلعب مع البنات، وأنت صغيرة، ومش فاهمة، بس أنا حبيت أنبهك عشان أرضي ضميري"، أمام النظرة المذهولة في عيني، لانكشاف أمري أمامها، رغم جهودي المضنية في تكتم مشاعري، لم تنتظر ردي، جمعت أوراقها، ورحلت، ولم أرها، أبدًا، بعدها.

(٢٨)

قبل أسابيع من احتفالي بعيد ميلادي التاسع عشر، جاءني خطاب من "رمزي"، وضعه إلى جوار سريري، كي أراه حين أصحو، وخرج، وأمضى اليوم بكامله، حتى الساعات الأولى من الصباح، خارج البيت، فلم أره، بل ربما تعمدت ألا أراه، حتى أعفيه، وأعفي نفسي من حوار لا طائل منه. زوجته، بدورها، باتت هذه الليلة عند أمها، ويبدو أنه لحق بها، لأنني لم أره إلا في الليلة التالية، تبادلنا "تصبحون على خير"، وذهبا، وذهبت إلى فراشي، أبدى لي في رسالته حيرته، وإشفاقه عليّ، كنت قد أخبرت ماما بحبي العارم لصاحب المكتب، وحبه لي، ورغبتنا في الزواج، فأخبرتْه "بالمصيبة"، كتب لي أنه لو كان من أحببته شخصًا آخر غير "الدكتور محمود"، الذي يكن له كل التقدير والاحترام، لما شعر بالحيرة، "عزاني" لأن قدري أوقعني في حب شخص مثالي، لكن ظروفه صعبة، وأخبرني أنه لا يعرف كيف يتصرف أمام هذا الحب، ولذا فإنه مضطر- وكله حسرة- أن يتخلى عني، وأن يترك القرار لماما، وحدها.

لم توافق ماما، بالطبع، وقضت ليلة كاملة بمفردها، تحاول تدبير

مخرج لهروبي من القصة، بالسفر، أو بإرغامي على ترك العمل، الحل الأخير كان هو الأصعب، وكانت تفكر في كيفية إرغامي وأنا في هذه السن، لكنني آثرت تضييق الحصار عليها، فأثناء تفكيرها المضني، كنت قد تناولت علبة كاملة من المهدئ، وحين جاءت لتخبرني بقرارها الأخير، صرختُ، فهرع "رمزي" إليها، وحملاني سويًا، إلى طبيب العائلة، وكاتم أسرارها، لينقذني.

تزوجنا سرًا، بمحام وشاهدين، كان "رمزي" واحدًا منهما، وبمشقة استطاع أن يقنع "أونكل سالم" زوج طنط "شريفة"، بأن يكون الشاهد الآخر، كي يمنح الزيجة "ثقلها"، كما قال له، وافقه بعد تعهد بإعلان الزواج، فور "ترتيب الأوضاع". حتى طنط "شريفة" نفسها وافقت، بل إنها هونت الأمر على ماما، ولم تقف، كعادتها، أمام رغبتي الطائشة، سمعتُها تقول لماما: "شوفي يا سعاد ما منوش فايدة، حنمنعها حتتمسك بيه أكتر، هي ما بقتش صغيرة، تعملها تاني وتموّت نفسها وما نلحقهاش! خلاص، أهو قضا أخف من قضا".

صارت لي غرفة "زوجية" في البيت نفسه، حتى نبدأ في البحث عن شقة تمليك "فاخرة"، كما أخبرني زوجي. ينظر "رمزي" وزوجته إلى الغرفة كلما مرا بها بحسد بالغ، غرفة "بمئات" الجنيهات، بيضاء، غطى أرضيتها "موكيت" برتقالي، بسرير واسع، بسماعتين، تنساب منهما الموسيقى، تنازل لي "رمزي" عن الغرفة الخلفية، كي تتسع لهذه الغرفة الفاخرة، المليئة بالتفاصيل، وصار لرمزي "أخًا كبيرًا" كما كان يدعوه، يستمع إلى مشاكله، ويحلها، ماما، نفسها، وبمرور الوقت اعتبرته واحدًا من العائلة، تفضي إليه بهمومها، ويستمع إليها، ويساعدها على حلها۔

بقدر ما يستطيع، ولولا تنبيهاتها المستمرة له بضرورة إعلان الزواج، لعشنا ـ ولأول مرة ـ كأسرة سعيدة.

(٢٩)

أفكر، أحيانًا، بأنني كنت أعاقبها على محاولة انتحارها القديمة في طفولتي. كلما أردت شيئًا ورفضت الإذعان لي، أرغمتها على أن تأتي بي، من فكي الموت. كنت الوحيدة التي تمارس معها هذه اللعبة، حتى "راجي" المكتئب، دائمًا، لم يحاول الانتحار أبدًا، حتى وهو يضع صورة خاله المنتحر، بتقديس، تحت زجاج مكتبه، لم يهددها، ولو لمرة، بالانتحار. كنت أنكأ جرحها القديم، جرح انتحار خالي، وجرحي القديم؛ محاولة انتحارها. بعد موتها، لم أحاول الانتحار إلا مرة، حقيقية، دون أن أبتز بها أحدًا، كنت بالفعل أريد أن أرحل، لكنني لم أكررها أبدًا منذ عشرين عامًا، وحتى اليوم.

طلبتُ مهرًا بسيطًا؛ "عيادة لرمزي"، وسلسلة "ما شاء الله" من الذهب. كانت السلسلة "فقط" مطلب ماما، حتى لا يبدو في الأمر "شبهة استغلال". لم يكن من الممكن أن أرتدي "دبلة"، خوفًا من تفشي الأمر في المكتب، وبين الجيران. ارتديت دبلة فضية، وكتبت عليها اسمي، واسمه، وتاريخ زواجنا، بسن مسمار صغير، وضحكنا معًا، حين كنت أكتشف مباهج جسدي، في فراشنا الوثير.

(٣٠)

عيادة صغيرة، لكنها جميلة، في حي شعبي، "إمبابة" على ما أتذكر، اشترط زوجي أن يؤجرها، ويؤثثها له، كما يشاء، على أن يمنحني نصف إيراداتها الشهرية. لم أكن أهتم، بل لم أكن أهتم بمرتبي ذاته، أقتطع منه سجائري، وأعطي الباقي لماما. كانت فرحتي، وفرحة "رمزي" طاغية بالعيادة، نحصي الزبائن، معًا، كل يوم. أزوره فيها، وأجلس وسط الزبائن، كي أسعد بتزايدهم يومًا بعد يوم، و"بنجاح الدكتور الكبير"، زوجته، هي الأخرى، التحقت بعمل كبائعة في أحد محال بيع العطور الفاخرة، وبرغم توتره، وغيرته عليها، ووقوفه أمام المحل أحيانًا، ليراقب سلوكها، فإنه امتدح "نذالتها"، كما أسماها ضاحكًا، في مشاركته الأعباء، واحتفاظها بدخلها لنفسها، و"شطارتها" في شراء ما تحبه.

في الليلة التي أخذت تفرجني فيها على ملابسها، وأحذيتها الجديدة، تلك التي لم أكن أجرؤ على شرائها، انفجرت، غضبًا، في ماما، وطالبتها بأن أحتفظ، أنا كذلك، بمرتبي، لكنني لم أحتمل ذلك الحزن الجارف، الذي غطى ملامحها، وتراجعت عن قراري، وقبلت رأسها.

عاتبني "رمزي" على معاملتي لماما، بعدها، قال لي: "ماما كبرت، وبقت ضعيفة، لو كنتِ كلمتيها كده زمان كانت ضربتك، بس أنت بتستقوي عليها عشان ضعيفة، ودي سفالة منك".

كانت ماما قد قاربت الستين، أنجبتني قرب الأربعين، وبابا يقارب الخمسين، جئت متأخرة، أو جئت "غلطة" كما كان يحلو لماما أن تداعبني،

فكنت أرد عليها، في مرضها الأخير: "ما تنكريش أن الغلطة الوحيدة في حياتك هي الصح الوحيد". فتبتسم لي في حب، وتغني، وهي تتمايل على فراشها، يمينًا ويسارًا: "لما قالوا ده ولد، انشد ضهري واتسند".

(٣١)

باع "رمزي" العيادة، عرفت بعدها متأخرًا، غضب زوجي غضبة عارمة، حين اكتشف أنني "ضحكت عليه"، وأوهمته أنني أتلقى منها أموالًا شهرية. لكنه لم يواجه "رمزي". كان يعرف أن مواجهته تعني وضع الأمور في نصابها، ومطالبته بإعلان الزواج. كان "رمزي" قد رزق بابنته الأولى، وبرغم الفرحة العارمة، والحياة الجديدة، التي بدأت تسري في البيت، فإن زوجي آثر السلامة، كي لا أطالبه بالإنجاب، ظلت سعادتي بالطفلة الجديدة تؤرقه، وتؤرقني أنا نفسي، وحين حاول "رمزي" تبرير بيعه العيادة "من وراء ظهري": "لو عندك عيل كنتِ حتفهمي". انهرت في البكاء، ولم يعرف كيف يداوي هذا الجرح المباغت، الذي لم يدر بباله، فظل يعتذر، ويحتضنني حتى كففت عن البكاء، وداعبت الطفلة، وأنا أطمئنه: "ما هي بنتي برضو، مش بيقولوا العمة والدة؟".

(٣٢)

لم يكن تحذير "رمزي" لي بألا "أستقوى" على ماما في ضعفها، هو الأول، نلت في الثالثة عشرة، "الألم" الوحيد "التاريخي" من بابا، اقترب مني، في هدوء، وكاد أن يطيح بي، بكف تصدعت منه أذناي، لم يضربني في حياتي، قط، ولم أكن معتادة على هذا النوع من الصفعات، كانت ماما ترقد في الفراش مصابة بانزلاق غضروفي، وتصرخ من الألم، طلبت مني عمل شيء لا أتذكره، ويبدو أنني عاندتها، وتطاولت عليها، ما دفع بابا للتدخل الصارم هذا. يومها أقام "رمزي" الدنيا، ولم يقعدها، كنت منزوية، أبكي إلى جوار جدار، بينما علا صوته على بابا: "مش من حقك تضربها كده.. مش حأسمح لك تضربها كده"، لكن بابا رد عليه، دون انفعال: "عشان تتعلم إزاي تكلم أمها"، لم يتكرر "الألم" أبدًا، بل لم يتكرر أن تصدى لي بابا بعدها، إلا حين شتمني "رمزي"، وأهانني، لسبب لم أعد أتذكره، فعلا صوت بابا: "أنا لسه ما متش، فاهم؟ لما أبقى أموت أبقى بهدل أختك كده، طول ما أنا عايش، مش حأسمح لك، فاهم؟".

ماما، وحدها، كانت تضربني؛ يطير "الشبشب" فأتفاداه بخبرة اكتسبتها، وحين تمسك بي تنهال عليّ بيديها، ثم تعود فتبكي، وتصالحني. ذات يوم، وكنت في الرابعة عشرة انهالت عليّ بيديها، فلم أصرخ، ولم أحاول ـ كعادتي ـ الانفلات من قبضتها، ظللت أنظر في عينيها، ولا أعرف إلى الآن ما الذي أرعبها في نظرتي، حتى أن يديها تجمدتا في الهواء، وأخذت ترتعش وهي تصرخ فيّ: "أنت بتبصيلي كده ليه؟! هاه؟! بتبصيلي

كده ليه؟!"، كانت هذه آخر "علقة" منها في حياتي، ولم تمد يدها عليّ، بعدها، مطلقًا.

(٣٣)

مشاجرة حادة، وفراق، بقلب كسير! على ألا أعود إليه، مهما فعل! قدمت أوراقي بشهادة الثانوية العامة، إلى إحدى شركات الطيران الألمانية، في المقابلة عرف المدير الألماني أنني عشت شهورًا في ألمانيا، وربما أثرت شيئًا من حنينه لبلده، فوضع الأوراق المعدة لأسئلة المقابلة جانبًا، وسرى بيننا حوار أدهش الطاقم المرافق له. بدا كأنه حوار بين أصدقاء، وهو ما تأكدت منه، حين سألت من سبقوني إلى المقابلة، فحكوا لي عما بها من "جفاء" و"تعالٍ" ألماني! مسار الحوار بيننا كان مقلقًا لي في البداية، خشيت أن يتطرق إلى رحلتي إلى ألمانيا، ويوقعني في الكلام، ليعرف مدى التزامي بقوانين الإقامة هناك، لكنه بدا غير مشغول بتقصي ما حدث، بل إنه عبر هذه النقطة، بعد أن سألني عما إذا كنت أتحدث الألمانية، فأجبته: "أفهمها جيدًا، لكنني لا أتحدثها بطلاقة". لم أكن أكذب، مما دفعه لأن يسألني، مبتسمًا، عن هواياتي، فأجبت: الكتابة، والقراءة، والشعر، وسط ابتسامة من المترجمة، التي تنحت جانبًا، كأن الأمر، برمته، لم يعد يخصها، طلب مني أن أذكر له كاتبًا أحبه، أجبت، ببساطة، بأول من ورد على خاطري، من أسماء رنانة: "تشارلز ديكنز"، تحدثنا عن ديكنز، وعن جوته، وعن بودلير، عن محبتي الفائقة في المسرح لـ "تنيسي ويليامز"،

والموسيقى؟ أجبت "باخ"، طبعًا، و"موتسارت"، بدا الرجل مبتهجًا، ومندهشًا، ورغم ركاكة إنجليزتي (التي كنت أدخل مفرداتها عمدًا في الحديث)، وضعف ألمانيتي، قبلني على الفور، وصرت مشروع "مضيفة طيران" وابتهج البيت كله بالخبر، حتى زوجة أخي، أعارتني بعض ملابسها الأنيقة، لأذهب بها إلى "كورس" التدريب.

لم أكن أكذب، في أي شيء قلته، "راجي"، بالفعل، كان يمدني بالكتب، على الدوام، لا أنهي كتابًا حتى يدفع لي بالآخر، لم أكمل الخامسة عشرة، حتى كنت قد قرأت عيون الأدب الروسي، والفرنسي، والألماني، والإنجليزي، واستمعت لأهم السيمفونيات، التي كنت أكره أغلبها، من بين كل هؤلاء لم أحب سوى إميلي برونتي، وفرانسواز ساجان، معشوقتي الأبدية، ولم أتحمل سوى "موتسارت"، بينما كنت أرى بيتهوفن ثقيلًا، ومضجرًا!

لكنها كانت الوسيلة الوحيدة كي يدرك "راجي" وجودي، وأدرك وجوده، دون تعقيد، ومشكلات، وأزمات نفسية. يصبح في أفضل حالاته، حين يعطيني الكتاب، أو "يحبسني" في غرفته لأسمع الموسيقى، وينتشي تمامًا حين أعود إليه، وأحكي له عما أعجبني، وما لم يعجبني في كتاب قرأته، ويبذل جهدًا مخلصًا في إيضاح ما استغلق عليَّ.

ظللت طوال حياتي أشيد بما فعله، وكنت حين يسألني أحد عما قرأت في طفولتي، أذكر، بفخر، أخي الأكبر، وأقر بأنه صاحب الأساس الأول في تثقيفي، ولولاه، لأن علاقتي بالقراءة انتهت تقريبًا بعد سفره، لما صرت كاتبة.

حين ذكّرته بهذا الدور الذي لعبه في حياتي، وامتناني له، بعد عودته، كي أمهد طريق الحوار، بيني وبينه، بماض مشترك، وبعد أن أمضى أكثر من ثلاثين سنة في ألمانيا، بدا مندهشًا، وكأنني أحكي له قصة خيالية، ولا تمت، بأية صلة، لما عاشه في البيت. كنت قد أمضيت رحلة حياتي، بعد أن هدأتْ، حتى عودته، منشغلة بالقراءة والكتابة، ما دفعه، إلى السخرية مني! بدا لي "تافها" لا علاقة له بالأدب، ولم يعد يعرف عنه شيئًا، حتى ما كان يقرأه نسيه تمامًا، وكأنه ألقاه وراءه، دفعة واحدة، في غرفته، قبل أن يرحل. حاول أن يجتذبني إلى عالمه الجديد، فيسمعني موسيقى إلكترونية، من تلك التي يحبها الشباب الآن، لكنني نفرت منها، بدا غريبًا، غريبًا تمامًا، كأنه قصة، من بين القصص، قصة اختلقتها أنا نفسي في ذاكرتي!

(٣٤)

بأمل في حياة أخرى، استعدت البنت المتفوقة القديمة، أمامي فنجان قهوة، وعلبة سجائر، وسِفر من أسفار الطيران بالإنجليزية، وقاموس المورد! عُدّتي للنجاة، أفك الشفرات، وأدون ملخصاتي، تمر ماما عليّ فتشجعني، ويطبطب عليّ "رمزي"، سعيدًا.

في الصباح أصحو مع شقشقة العصافير، أعد أوراقي، وأذهب للدروس، أول من يجيب وأكثرهم دقة، وفي أوقات الراحة، والوجبات الفاخرة، لا أمانع في شرح بعض ما استغلق على زملائي، وزميلاتي، أصعد الطائرة للتدرب، وأتامل الأفق من زجاجها، حيث قريبًا جدًا ستبدأ

الرحلات، وأجوب العالم.

"أجوب العالم"! كان للكلمة رنين خاص؛ للفنادق الفاخرة، التي سأبيت فيها، وحدي، دون زوجي، هذه المرة، طعم الغواية، والرعب، أيضًا، ضحكات المضيفات العالية، روائح عطورهن الفاخرة، "تبسطهن" مع الزملاء، وبخاصة رئيس الطاقم، ونفوري منه، حين نظر إليَّ، وضحك قائلا: "الله.. الله.. أيوه كده، هاتوا لنا بنات حلوة تفتح النفس!". كان كل ما يدور حولي، يدور من وراء زجاج، كزجاج الطائرة نفسها، علبتي، التي سأجوب منها العالم.

لم يبق سوى أسبوع على انتهاء الكورس، والامتحان الأخير، أعمل بجد، كأنها الفرصة الوحيدة الباقية للحياة، حتى سمعت نفير السيارة "الحبيب" على باب البيت، وبقلب يرتجف هرولت، فوجدته، ينتظرني في سيارته، تجنبًا للاحتكاك؛ بـ"رمزي"، أو بماما، عابسًا وحزينًا، طالما فعل ذلك في مشاجرات خلت، يومان، على الأكثر، وأجده أمامي، هذه المرة طال الفراق لأكثر من شهرين، احتملته كسكين تشق قلبي، بينما أروح، وأغدو. لم يكن العمل "كمضيفة طيران" حلمًا بالنسبة لي، حتى وأنا طفلة، لم يكن يختلف كثيرًا عن عمل بنات خالي، الذي كنت أتعالى عليه، في الفنادق، لكنه كان هروبًا، آمنًا، ماديًا على الأقل. كنت أرى علامات التجاهل في عيني ماما و"رمزي" حين أخبرهما عن الغثيان الرهيب، الذي ينتابني من زيارة "الكاترينج"، وروائحه العفنة، وعن الشاحنة، التي كدسونا فيها، كي نزوره، ونتعرف على مفردات عمل الضيافة، ومدى إحساسي بالمهانة، وأنا أرتطم بزملائي، وزميلاتي كلما تحركت الشاحنة، وتوقفت فجأة، لتدربنا على تحمل الاهتزاز، كنت

أشكو، من "تفاهة" مغازلات المضيفين لي، لكنها كانت أسبابًا واهية، لا يمكن أن تشكل ضغطا لترك مثل هذه الوظيفة "المرموقة"، واهية حتى بالنسبة لي، لأن بديلها الوحيد، بعد أن فقدت الحب، العودة إلى الجامعة.

في تلك الليلة تناولنا العشاء معًا، في أول مكان جلسنا فيه، وتعاتبنا، وفي نبرة حاسمة قال لي: "أنا مش حأوافق مراتي تبقى مضيفة طيران"، فأذعنت له، طربةً برنين كلمة "مراتي" في أذني، كأنها تحقق وشيك للوعد المرجأ، بالحياة معًا! عدنا نكاد نطير من الفرحة، ووعدته بالعودة للعمل، في المكتب، من جديد.

حين أطلعت أمي على ما جرى، تذمرت، لكنها لم تطل تذمرها، وحين أخبرت "رمزي"، بعد عودته، بقراري، ببساطة، كان رد فعله مباغتًا لنا، أنا وماما، ولأول مرة في حياته يدمر البيت على رأسينا، انزويت قرب الحائط، وهو يلقي عليّ بكل ما وقعت عليه يداه، حتى ماما بدت مرتعبة، تلقي بجسدها عليَّ، كي تحميني من ركلاته، ومن سبابه المتواصل: "مش حتخرجي من البيت تاني.. مرغتي شرفنا في الوحل"، حين هدأ قليلًا، ولزم غرفته، وأدركنا أنه نام، تسللنا، أنا وماما، من الشرفة في الفجر، هربنا معًا، إلى بيت مربية طفولتي "دادة سعدية"، هاتفت زوجي، وأخبرته بما جرى، فذهب إليه. في ما بعد علمت أنه وضع السكين في وجه زوجي: "يا تتجوزها على الملأ يا حأقتلك"، اتفقا على موعد لحسم الموقف، وأخبرني زوجي بضرورة العودة للبيت، "لأن أخوكِ حالته سيئة جدًا". عدنا خائفتين، وما أن فتح الباب، حتى احتضننا معًا، أنا، وماما، كأنه طفل أوشك أن يفقدنا معا، وانهار في بكاء هستيري، حتى هدأناه.

(٣٥)

عاد الصديق القديم من ألمانيا في إجازة، وأقنع رمزي بالسفر معه، هناك يمكن أن يساعده؛ يلتحق بإحدى المستشفيات كطبيب، يتعلم الألمانية، ويحيا معه. قال له: "أنت مش حتخسر حاجة.. كله على حسابي، ولو ما نفعش كأنك اتفسحت يا سيدي"، اصطحب زوجته، وابنته الطفلة، ورحل.

كانت أخبار "راجي" قد انقطعت تمامًا، كأن الأرض قد انشقت، وابتلعته، في هذه المرة لم تخش أمي من تكرار المصير، ابنها طبيب، على أية حال، وله زوجة وابنة، لكنها أوصته بالبحث عن أخيه، و"حلفته" بحياتها.

قضيا بضعة شهور، هناك، في شقة صديقه، وزوجته الألمانية، لكبر سنها لم تتمكن من إنجاب طفل منه، هو، كذلك، لم يكن بمقدوره الإنجاب، لكنه أخفى الحقيقة، التي كنا نعرفها جميعًا، عنها، كي يظل أمامها، في موضع "الشاب" الأقوى، فاعتبرا الطفلة ابنتهما، وأغدقا عليها، حنانًا، وهدايا.

بمرور الوقت، وفشل المحاولات، أصبح حلم العمل، "كطبيب" في ألمانيا، بشهادة البكالوريوس، وحدها، عسيرًا، كما أن العمل في أية مهنة، وترك الطب لم يكن ممكنًا، عادا بخفي حنين، عدا مبلغ صغير من الدولارات كهدية صداقة، لمواجهة متطلبات الحياة في مصر، أثناء البحث من جديد عن عمل، وبعض الملابس الجديدة للزوجة والطفلة، اشتراهما

لهما الصديق، وزوجته.

وتجنبًا لموقعة "سكين" جديدة، وحسب وعده، ذهبت وزوجي إلى المأذون أثناء سفرهم، ارتديت فستانًا صيفيًا عاديًا، وارتدي قميصًا وبنطلونًا، على غير عادته في التأنق، لم تذهب ماما معنا، كمدًا، على الأرجح، استأجرنا الشهود، وأتممنا العقد. حين جلسنا بعدها في كافيتريا أحد الفنادق، بدأ يهذي، مرتبكًا، ومذعورًا، من رد فعل زوجته، حين تصلها ـ حسب القانون أيامها ـ وثيقة زواجي، يحدث نفسه عما يمكن أن يقوله الناس: "عن الرجل، الذي تزوج بفتاة في عمر ابنه، وعن الزوجة، عشرة العمر، التي ستعاقبه حتمًا، وتحرمه من رؤية الأبناء!" كان فعليًا غير موجود، يتحدث، ويرد على نفسه، بينما جلست صامتة، أرتشف زجاجة البيرة، بعد أن تعودت شربها معه، بقلب ثقيل.

(٣٦)

لم تكن حالة المكتب طيبة، في تلك الأيام، فإثر مغامرة مغرورة، وعنيدة، أراد بها احتكار سوق إحدى المعدات، ضربه "الكبار" في مقتل، وتركوا بضاعته، التي وضع فيها كل ما يملك، مكدسة في المخازن، يبيعها "خردة" كما قالوا له. فصل معظم الموظفين، لضيق ذات اليد، لكنه لم يفرط في سيارتين فارهتين، يتبادل الذهاب بهما إلى الشركات لحل الأزمة. لم يعد هناك سواي في المكتب الغارق، ومعي المحاسب العجوز الطيب، رفيق رحلته، منذ أن كان مهندسا صغيرا.

عاد "رمزي" مع أسرته، واطمأن إلى سير الإجراءات الرسمية للزواج، كنت قد اتصلت به هاتفيًا، وأخبرته، لكنه أمسك بالوثيقة، وأخذ يمعن النظر فيها: "أشوفها بعيني".

لم يكن زوجي خاوي الوفاض تمامًا، فلديه سمعته، وشهرته، وقبل عودة "رمزي" بأيام سافر إلى ليبيا، استشاريًا في واحدة من كبرى شركات البترول هناك، كان هروبًا عظيمًا من كل شيء؛ من الديون، ومن حساب الزوجة الأولى العسير. وبعد سفره، ظللت أترقب جرس الباب كلما رن، أتوجس أن تأتي لي مع أهلها، والولدين، لتضربني، أو لتثير الفضائح، لكنها لم تفعل أبدًا، احتملت أزمتها في صمت، وترفع، واعتبرتها، كما عرفتُ بعدها، أزمتهما معًا، ولا دخل "للعيّلة دي" بها.

مرت الشهور وأنا أتلقى خطابات منه، ظلت تتباعد، حتى اختفت، كانت العلاقات أيامها، في بداية الثمانينيات، مقطوعة بين مصر وليبيا، بسبب معاهدة "كامب ديفيد". أرسل لي تأشيرة لألحق به، فتحتها، بقلب يخفق، ويد ترتجف، لكنني اكتشفت من المظروف أنها تأخرت في البريد، وبَطُل سريانها. في ما بعد، عرفت أنها مزورة، مكتوبة على الآلة الكاتبة، بتاريخ أقدم مما أرسلت به، وفي ما بعد، أيضًا، عرفت أن من زارته، في تلك الفترة، هي زوجته الأولى، وابناه، قضوا معه إجازة الصيف، كما أخبرني حين لقيته في إحدى البلاد العربية، وبعد مواجهات عنيفة بينهما، قررا الإبقاء على الوضع القائم، حفاظًا على حياة الأبناء، وبعد مواجهات عنيفة معي، واتهامات مني بنقض عهود الانتقال للحياة معه، وطرح بديل وحيد ممكن، هو أن نلتقي كل فترة في أحد البلدان "لنتفسح ونعيش" كما قرر، ويعود كل منا إلى مكانه، وهو ما رفضته، اختفى تمامًا،

لثلاث سنوات "إما توافقي أو حاسيبك معلقة" كما هددني، وفعل، لثلاث سنوات بعدها، وبحكم "محكمة" للغياب والضرر، حصلت على أول ورقة طلاق في حياتي، وحين تسلمتها، دخلت إلى غرفتي لأكون معها وحدي، ورغم دقات أمي المتوالية على الباب، وهي تسمع نشيجي عاليًا، لم أفتح لها، إلا في صباح اليوم التالي.

(٣٧)

لم تطل إقامة "رمزي"، وزوجته، وابنته، بعد عودته من ألمانيا في بيتنا، سوى بضعة أشهر. كان، ومنذ إنهائه فترة الامتياز، قد عقد عزمه بألا يعمل في مستشفى حكومي، "حتى لو شحتّ"، كما كان يردد، وكانت الأقدار تعد له مصيرًا آخر. أتاه عقد عمل في السعودية، فتهلل الجميع، سافر وحده، هذه المرة، حتى يعد لأسرته شقة، وذهبت زوجته، كعادتها في غيابه، لتقيم عند أسرتها. يكلمها كل يوم تليفونيًا، يحدثها عن الألم، الذي لا يحتمله في فراقها، يبكي، وتبكي، لكنها تتمكن من حسم الأمر تمامًا، حين تلوح في أحاديثه، فكرة العودة.

شهران من "العويل"، كطفل يتيم، لم يرسل لنا، أنا وماما، إلا خطابًا، أو اثنين، عودته لم تكن ممكنة قبل ثلاثة أشهر، هي فترة الاختبار. فوجئتُ به ـ ذات ليلة ـ يتصل بي تليفونيًا، ويرجوني، رجاءً حارًا، أن أرسل له "تلغرافًا" أذكر فيه أن ماما مريضة، مرضًا خطيرًا! وترغب في أن تراه قبل أن تموت! لم تكن غرابة الفكرة وحدها ما أثار استيائي، خصوصًا

أن ماما بكامل صحتها! وإنما "التشاؤم" من حيلة كهذه! رق قلب ماما له، وحاولت أن تزيل انقباضي: "يا بنتي هو العمر ده ف إيد حد؟! ده كله بتاع ربنا"، رق قلبي له، أيضًا، فداعبتها: "ابنك ده لو مكدبش حيموت". وبعد تمتماتها: "بعد الشر عليه"، "إن شا لله أنا"، أرسلتُ التلغراف، رق له، في ما يبدو، كذلك، قلب الكفيل السعودي، فمنحه بضعة أيام ليودع أمه! عاد في إجازة سريعة، هبط من طائرته مهرولاً إلى المحل، الذي تعمل به زوجته، وقف أمام الباب الزجاجي ينظر إليها، وحين انتبهتْ له، هرعت إليه، واحتضنا بعضهما في الشارع، وأمام المارة، كما حكيا لنا، وهما يضحكان بعد عودتهما، معًا، إلى بيتنا.

شيئان تعلمت ـ مؤخرًا جدًا ـ ألا أهزل فيهما، المرض والموت، ما إن ننطق بأي منهما حتى تتلقف الصوت آذانُ الأثير، لا يعرف الموت، والمرض شفراتنا، ومجازاتنا، وأكاذيبنا البريئة، يستقبلان الرسالة "حرفيًا" وينفذان ما فيها، بكل دقة، أحمق من يظن أنها أقدار مكتوبة، نحن نرسل الرسائل، في غفلة منا، وننساها، حتى يباغتنا الرد، حادًا، وعاصفًا.

(٣٨)

مات جدي قبل موت أبي بعامين، حزنت ماما، ولم يبد بابا حزنًا عليه، حزنتُ عليه، وبكيته طويلًا، وظللت لفترة أفتقد غرفته، حيث كنت أجلس معه، يسمعني شعرًا عظيمًا، ويوهمني أنه من تأليفه. ذات مرة حفظت البيتين الأولين من "أراك عصي الدمع" ورددتهما أمام زميلاتي

في المدرسة الابتدائية، وعلى مسمع من مدرسة اللغة العربية، بعد أن صفقوا لي، أعلنت، بفخر، أنها من تأليف جدي! فتدخلت المدرسة، ونهرتني لأنني "كذابة"! في تلك الليلة لم أنم، حنقًا عليه، وأصررت ألا أذهب إلى المدرسة في اليوم التالي، فوافقتني ماما، وهي تتصنع الجد، متكتمة الضحكات، بعد أن حادثتْ مدرستي من ورائي، وأفهمتها أن لا بد لي في الكذبة، أصررتُ، أن تأخذني إليه في الصباح الباكر، لأواجهه، وأحاسبه على إهانته لي وسط مدرستي وزميلاتي، فأخذتني فعلًا إليه، وحين واجهته بصوتٍ عالٍ، وغاضب، لم يهتز له جفن، بل على العكس، نظر إليَّ في تحد، وهو يقول: " مدرستك دي حمارة"، حين حاولت تضييق الخناق عليه قائلة: "وماما كمان بتقول إنها لواحد اسمه أبو فراس.. أنت بتكدب يا جدي"، تغاضى عن الإهانة، وأشاح بيده: "أمك كمان.."، واستدرك قائلًا: "هي أمك دي بتفهم حاجة أصلًا"!

لا أعرف كيف تصالحنا، وكيف عادت جلساتنا في غرفته، دافئة كما تعودنا، بعدها، وكأن شيئًا لم يكن!

ماتت جدتي بعده مباشرة، كأنه المشيمة، التي ربطتها بالحياة، هزلت، ومرضت، وحزنت، وماتت، دون مرض طويل، فحزنت ماما، وحزن بابا، وسرت موجة من الحنان بين ماما وبابا في بيتنا، كأنه "يتيم" وكأنها "أمه". وبعد موت أبي بسنوات، ماتت عمتي "إحسان"، بكيناها بدموع غزيرة، ولا شك أن بابا، لو كان حيًا، لبكاها هو الآخر، وبموتها، انغلق باب بيت "السيدة عيشة" في وجهي للأبد.

عاش فيه لسنوات أبناء عمي، الأصغر، الذي لم أعرفه أبدًا، كان

غائبًا، ورغم أنني كنت أحبهم، لكنهم بدوا لي كأقارب من "الدرجة الثانية"، ألقاهم بالصدفة مع عمتي، متباعدات ومنزويات، إلا ابن عمي، الوحيد الذي كان يصطحبني إلى السينما مع ماما، ويحضر لي قالبًا كبيرًا من الشوكولاته، كان قد اكتفى من التعليم بمعهد متوسط، ورغم حب أمي له، لم يَرُق لها أبدًا، حين وصلت لمرحلة الإعدادي، تلميح عمتي "إحسان" المستمر، بزواجنا في المستقبل. كفت ماما عن خروجنا معًا، وشاب صدر عمتي، التي كانت تحبه كابنها، شيء من الضغينة، مازجها، دون شك، شعور عمتي "بتعالٍ"، غير معتاد، من أمي، لكنهما تجاوزا الأزمة، حتى طوت الأيام المسألة، برمتها.

غرباء.. يلعبون معًا : "البنج بونج"

(١)

في سيارته الأنيقة، انفجر غاضبًا، حتى إن الجالسين في السيارات المارة إلى جوارنا، تلفتوا بحثًا عن مصدر الصوت! ماما تجلس في الكرسي الأمامي، إلى جواره، وأنا أجلس في الكرسي الخلفي. كانت من المرات النادرة، التي نجتمع فيها ثلاثتنا: أنا، وهو، وماما، وحدنا، دون زوجته. أبدت ماما تشككها في تشخيص الطبيب، الذي كنا عنده قبل قليل، وأمنتُ على قولها، مبدية هواجسي، كذلك. في البداية أخذ "رمزي" يرد علينا بهدوء، مؤكدًا أن من ذهبنا إليه طبيب من زملائه القدامى، و"أشطر" مَن في مجاله. حين ألحت ماما عليه بالأسئلة، والهواجس، انفجر، وكأن هدوءه كان معلقًا على جرف بركان؛ ذكرها بما سببتْه له من عذاب، في طفولته، حين أتاها "المغص الكلوي" وظلت تصرخ، دون أن تراعي مشاعرهما، هو وأخي (لم أكن قد ولدت حينها)، ذكرها بتخليها عنه في أزماته العاطفية، وكأنه ليس "ابنها"، خلافًا لما فعلته مع "راجي"، ومعي، بدا وكأنه يقرأ من كتاب مرير، يحفظه عن ظهر قلب، متتاليًا، مسلسلًا، دون توقف، ثم اختتم ثورته: "أنا محدش وقف معايا غير مراتي!" مسددًا طعنة مزدوجة؛ لي ولها، فبادرته دفاعًا عنها، وأنا أراها تنكمش في الكرسي، واضعة رأسها بين يديها: "لا والله؟! محدش وقف جنبك خاااالص؟!" التفت لي،

وكأنه يشرع في لكمة: "أيوه.. عارف.. زمان.. أنا وهي (مشيرًا إلى ماما) بعناكِ للبيه الدكتور.. مبسوطة كده؟!". ابتلعت توصيفه "المهين" لقصة الحبِ الأولى في حياتي! وفهمت ساعتها، أن أية لكمة سأوجهها إليه، ستطال الجالسة بجواره، ستطالها بتوحش، فصمتُّ.

مررنا في طريقنا، في تلك الليلة، مصادفة، على بيت "مدينة نصر"، مررنا، كلمحة، في السيارة المسرعة الغاضبة، فسالت دموعي، ولم أستطع أن أوقفها. لم تكن ماما تبكي، وكأن وجهها، وجسدها، قد تحجرا، تنظر شاردة إلى الطريق، والسيارات المارقة من جانبها، حتى حين مددت يدي، خلسة، لأضعها على كتفها، لم تبادرني بكفها عليها، كما تفعل، دائمًا، حين شاهد دموعي في مرآة السيارة، لمحت دمعة في عينيه، وحين وصلنا إلى البيت، احتضنني بقوة، واحتضن ماما، لكنها أفلتت من بين ذراعيه، وأصرت ألا يكلمها أحد، أبدًا، في تلك الليلة.

(٢)

كرة "بنج بونج". كأن مجهولًا في هذه السماء الشاسعة، أطلقها، عابثًا، ذات ليلة، فاستقرت في صدرها. تطلع من قفصها الصدري، ما بين ثدييها المترهلين تمامًا، وقد بلغت السابعة والستين. تؤلمها، أحيانًا، تدلكها فلا تتحرك من مكانها. طمأنها الجميع، واعتبروا ثباتها علامة صحية، فالأورام لزجة عادة، وتتحرك تحت الأصابع، وشخّص الطبيب، صديق "رمزي"، المرض، بأنه: "أورام رومانيزمية".

تدهنها بالمراهم في الليل، وقد تعلمتْ، منذ تلك الليلة الصاخبة، ألا تفصح عن هواجسها، وبخاصة أن الألم لم يكن حادًا.

مرت، قبلها، بعمليتين جراحيتين. كان "رمزي" مسافرًا، لكنه أرسل لنا ما يكفي للعمليتين؛ إقامة في المستشفى، والأدوية، مع تمتعنا بالخصم، الذي توفره "نقابة الأطباء"، ومع تنازل زميل دراسته القديم، الجراح، بأجره، وأجر طبيب التخدير، مجاملة لزميل المهنة.

في العملية الأولى، أخرجوا من عنقها المتورم، حتى كادت تفقد القدرة على التنفس، كتلة بحجم "جنين صغير"، جلست أتأملها، وهي تطفو في السوائل الحافظة، كطفل في حضّانة. كانت صديقتي الطبيبة معي في هذا الصباح، تعاملتْ فورًا، مع ارتجافي الهستيري بحقنة مهدئ، فعلت فعلها على الفور، وأنا أداعب ماما ضاحكة، كي تفيق من البنج.

ظلت سنوات تباشر علاجها مع طبيب شهير، وعجوز، تأخذ حبة الغدة الدرقية في الصباح، وتحمد الله، أن الدواء: "سهل، ورخيص". حين اشتدت حالتها، ومات طبيبها، ذهبت إلى طبيب العائلة، الذي عالج بابا، سألته: "أنا حأفضل آخد الدوا ده طول عمري؟!"، فنهرها: "آه.. طول عمرك.. وإلا حتتخنقي وتموتي". لم تغفر له أبدًا هذه "الجلافة" كما وصفتها يومها، وظلت أيامًا تكلم نفسها في البيت من الغضب، وتتوعده بردٍ قاس، ثم هدأتْ، وقررت أن تتجاهل ما حدث معه تمامًا، وتواظب على دواء طبيبها القديم، مادحة فيه: "ده كان دكتور عبد الناصر.. مش الغلس ده"، ولم تذهب له مطلقًا بعدها. تورمت رقبتها، شيئًا، فشيئًا، كادت تختنق، ذات مساء، فحملتها، جريًا، إلى أقرب مستشفى.

(٣)

لم أستطع تخيل حياتي بعد أن تموت ماما! كنت في السادسة والعشرين، وكنت قد نقلت أوراقي قبلها بسنوات من كلية الآداب، إلى كلية التجارة، كي أصير "سيدة أعمال" تليق بإدارة عمل زوجها "الدكتور المهندس"! لم تكن كلية التجارة سوى اختيار أسوأ بكثير من الآداب، لم يعد له مبرر بعد طلاقي، أنظر في الكتب كأنها "لوغاريتمات"، ما دفع ماما، في محاولة لتهوين المذاكرة علي، إلى أن تجلس إلى جواري تقرأ لي كتب الاقتصاد، مؤكدة أنها "سهلة"، وهي نفسها "تفهمها!" وأن تتشفع لي، عند أحد الجيران، ليعطيني دروسًا مجانية، في المحاسبة. سنتان، مرتا بأعجوبة، نجاح بمقبول ومادتين، كانا حلمًا استطعت بمعجزة أن أحققه، ثم تركت الأمر، وطويت الصفحة، وجلست لأكتب شعرًا.

الفاشلة أتت، الفاشلة ذهبت، وها هي "الفاشلة"، وحدها تمامًا، في مواجهة الموت.



(٤)

بعد ظهور نتيجة تحليل "الجنين" أقمنا الأفراح، ووزعت ماما كؤوس الشربات على الجيران، احتفالاً بالسلامة، وهي تتكئ عليّ تفاديًا لألم الجرح. قيل لنا إنه نوع من الفطريات النادرة، نما في غدتها الدرقية، دعم الأمر إصابتها بأشياء نادرة أخرى في حياتها "كالدودة الشريطية" مثلا، دعم

الأمر "رمزي"، أيضًا، متصلا بالتليفون هذه المرة بماما، ولم ينس أن يتصل بزميله الطبيب ليشكره على أفضاله، ثم يتصل به مرة أخرى ليهنئه على الترقية، التي نالها بتقدير كبير لاكتشاف "الفطر النادر"!

لكنني مررت بالتجربة، ولم أستطع أبدًا أن أنزع يد الخوف، وهي تقبض على قلبي: "ماذا سأفعل، وحدي، إذا ماتت ماما؟!".

حين قابلتُه لم أشعر، أبدًا، أنني أحبه. كان "لطيفًا" و"فنانًا" وبدا "مغامرًا" يريد أن "يستقر" أخيرًا. حذرتني ماما حين أتى ليطلبني منها قائلة: "مش عاجبني خالص، ده.. سوقي جدًا". كنت أكتب الشعر، وكان يكتب للسينما والمسرح، ورأيت أن هذا كافيًا، لحياة فنانين.

حين اتصلت برمزي، لأخبره برغبتي في الزواج، طلب مني الانتظار "حتى يأتي في الإجازة الصيفية"، سخر الزوج المنتظر من رد أخي، وسألني: "أخته عايزة تتجوز.. ينزل إجازة يومين.. حاجة هايفة دي في نظره؟!"، كانت الرغبة تشتعل في جسدي، وكان الخوف يزيدها اشتعالا، ذهبنا إلى المأذون، وتزوجنا، وعدنا إلى ماما فرحين، كانت ما تزال في فراشها، في نقاهة ما بعد العملية، باركت لي صاغرة، ولأنه لم يتسلم "شقته الجديدة" بعد، ولأنني ـ وكنت صادقة فعلا في هذا ـ لا أريد أن أتركها وحدها، صارت في البيت نفسه، البيت المؤجر في مصر الجديدة، أسرة جديدة.

(٥)

تلقى "رمزي" خبر زواجي، وإقامتي في البيت، بغيظ مكتوم، ولم يتصل بنا بعدها تليفونيًا، أو يرسل أية خطابات، لم يكن ـ كما قال لنا ـ قد وفر ما يمكنه من شراء شقة جديدة، لأسرته، التي أضيفت لها بنت ثانية، وحين أتى في إجازته السنوية، وأقام عند أهل زوجته، هذه المرة، قابل زوجي، لم ينسجما، لكنه، وبعد عشاء بسيط، لم ينكرر، أعده زوجي في البيت، له ولزوجته، أوصاه بي.

لم يكن يزور ماما كثيرًا، وقتها، كانت تذهب إليه لتزوره في بيت أهل زوجته، وغالبًا شكت إليه من هذا "المجنون"، الذي أتت به ابنتها إلى البيت، كانت محقة، وكان الصراع بينهما قد بدأ فعليًا؛ نحاها عن المطبخ أولا، لأنه يحب الطبخ، وبدأ يطبخ كل ما لا تحبه، ويثير حساسيتها الصدرية في آخر الليل، فتظل تسعل، تطلب منه التوقف، فيتجاهلها.

لم أصدقها حين أخبرتني أنها لا تأكل، وتبيت جائعة، لأنه يضع الطعام كله أعلى دولاب المطبخ، حتى لا تطاله لقصر قامتها، ظننتها تكيد له كيد الحموات، لكنني ذات ليلة شاهدته بعيني يفعل ذلك.

نما صراعي معه في صمت، في فراشنا، وفي جلسات أصدقائه، آثرت أن أداري فضائحه، حتى عن ماما، وهي، بدورها، آثرت عدم التدخل، بقدر ما تستطيع، لكنها لم تملك نفسها حين ناديت عليها، في إحدى المشاجرات العنيفة، في رعب: "الحقيني ياماما"، تدخلت، وخاف منها، وترك البيت لليلتين.

جاء "رمزي" لزيارتي في تلك الليلة، باستدعاء فوري من ماما، أخذ شكل "الاستغاثة"! كنت في الفراش، إثر اعتداء "خشن"، أخبرتُه بأنني لا يمكن أن أستمر مع زوج: "ضربني"، لكنه بدا هادئًا، وحكيمًا، على غير ما توقعت: "خلي بالك دي الجوازة التانية.. لو انطلقتي مفيش جواز تاني". نظرت إليه زوجته في غضب، بدا لي حقيقيًا، ومتعاطفًا، وبدا لي طوق نجاة: "ليه يعني.. تتطلق عادي.. ياما ناس اتجوزو واتطلقو تلات أربع مرات".

بقيت ماما "محايدة"، على غير عادتها، ولم تحضر حتى هذه الجلسة. طالما شكا لها "رمزي" من تدخلها، بيني وبينه، فآثرت أن تتركنا معًا هذه المرة، صحيح إن زوجته كانت طرفًا، لكنها راهنت على ذلك الحبل السري بيننا، ومن يدري؟! ربما كان يتملكها الخوف، هي، أيضًا، من موتها، كما انتابني، وأرادت أن ترى المشهد بعد رحيلها، بأقصى ما يمكن من الوضوح.

سافر "رمزي"، مع زوجته، إلى السعودية، بعدها بأيام، حاولت ماما أن تكون لطيفة بقدر ما يمكنها، حاولتُ تجاوز ما حدث، لكن بذرة الجنون عادت تنمو من جديد، وحين وصل الأمر لـ"سكاكين" تشهر في وجهي، وجيران يطلون من الشرفات، كي يروا امرأة، تجري صارخة في الشارع، ووراءها رجل يطاردها، وحين سمعوا أصوات تكسر زجاج متواصل في ذلك البيت الهادئ، الذي ظل غريبًا هناك، لثلاثين عامًا، بطابقه الواحد، وسط العمارات الشاهقة، ولم يسمعوا لسكانه "حسًا"، كانت النهاية، بمبلغ مطلوب للطلاق، رفض "رمزي" أن يدفعه، وتولى أمر التسويات كلها، زوج صديقتي "رئيفة".

(٦)

لم تدق ماما على باب غرفتي هذه المرة، أنا، أيضًا، لم أغلقها. حين عدت، بعد اختبائي في بيت صديقتي "رئيفة"، بعد الطلاق، كانت أبواب البيت، كلها، مفتوحة، كان البيت خاويًا تمامًا، حتى من "مفاتيح النور" التي اقتلعت بعنف من الجدران، وبانت أسلاكها، كأحشاء مبقورة. حين دخلت إلى غرفتي، ووجدت ملابسي ممزقة على الأرض، ظللت أضرب وجهي بكفي، حين قالت ماما: "غار فـ داهية" كنت لم أزل أضرب وجهي بعنف، فانتبهت، هرعت إليّ كي أكف، بدا كأنها معركة بالأيدي، بينها وبيني، هذه المرة، حتى هدأتُ تمامًا.

(٧)

رأى "رمزي" أن خيار الطلاق كان هو الخيار الوحيد، حين أخبرته بتهديدات الانتقام، بعد طلاقي، وبالباب، الذي يدق، بعنف، في آخر الليل، يقف وراءه رجل مخمور يحاول اقتحامه، وبالفضائح، التي يسببها لنا كلما أتى، وأنني، من رعبي، أفكر في استئجار "بلطجي" يقف أمام البيت، وأنني أحتاج إلى مساعدته المادية، كي أحقق ذلك، تنصل، ولم يطاوعني لتنفيذها، مشددًا: "أنا لما أشوفك حنتكلم، وأفهم موقفك كويس، ويبقى ييجي جنبي بقى، ولا يمس مراتي وعيالي، وأنا أوري له اللي ما شافوش في عمره". كانت العبارة واضحة، تحدد من هم الذين

سوف يحميهم، دون لبس، أدركت، وأنا أسمعها، أننا صرنا "أسرتين"، متباعدتين، أو دائرتين، انفك ما بينهما، وعرفت أنني سأواجه، في ما سيأتي، معاركي وحدي.

انهمكنا، أنا وماما في إزالة آثار المعركة عن غرفات البيت، كانت متحمسة، وسعيدة بالنجاة، متوجسة مني، خشية أن أعيد الكرة، وأن يتجاذبني الشوق، للمجنون، كما كنا نسميه، لكنني لم أفعل، وطمأنتها، غيرتْ "كالون" الباب، وأحضرنا قفلا حديديًا متينًا، كي نضعه عليه، من الخارج حين نخرج، ونظرنا، بحذر، في "العين السحرية" كلما دق الباب.

استعرنا، أيضًا، مرتبة صغيرة من جارتنا الطيبة، كي نضعها على "إستوديو" جدتي، الوحيد، الذي لم تطله أيادي المذبحة، والذي لم يحمله المجنون معه، وهو يرحل، هو والطاقم الأسيوطي الصغير، الذي ورثناه عنها. أغلقت جارتنا بابها عليها، وزوجها وأسرتها، ووضعت حديدًا محكمًا على باب شقتها، كي لا تطالهم نوبة من نوبات هياجه، انتقامًا لدعمهم لي، أو يتخذهم ذريعة للوصول إليَّ، نمنا أنا وماما، أخيرًا، وبعد أشهر عاصفة، جنبًا إلى جنب.

مرت، كأي أزمة تمر، أرسلت ماما إلى "رمزي" تطلب منه مبلغًا من المال لشراء بعض الأثاث "بالتقسيط"، استجاب فورًا، مُقترحًا علينا أن نُرسل إليه بما نريد ـ تحديدًا ـ ونرسل له بالميزانية الإجمالية، وسيرسل المبلغ فورًا. أمضينا أيامًا، أنا وهي، في تحديد ما نحتاج إليه بدقة، وبالورقة والقلم، نحذف ما قد يبدو "ترفًا"، كي لا نُثقل عليه، وقبل أن نرسل له بقائمتنا المتواضعة النهائية، أخبرنا ضاحكًا، ومتهللا، أنه في الطريق إلينا.

(٨)

طُليت أرض البيت كلها بـ "فينيل أزرق" فاختفى البلاط تحتها. أسرت أمي إليّ ـ حين جلسنا وحدنا ـ بنفورها من هذا التغيير، الذي لا داعي له، وشاركتها الرأي. كان بلاط الأرضيات قديما، وجميلا، تختلف كل حجرة عن الأخرى، في منمناتها، وورودها الصغيرة، وكانت ماما تتعهده بالمنظفات، فيظل منطفئا، لكنه حميم.

بدا اللون أزرق داكنًا، كأنه "كدمة" تتسع! ساهم في ضيقنا معرفتنا بمصدر هذا اللون الكئيب؛ مصنع خال زوجة أخي، التي بدت سعيدة، وهي تشير إلى الأرض بعد أن جفت: "دي آخر موضة.. كل ولاد خالي عاملينه في بيوتهم، وخدنا عليه خصم جامد".

استقرت غرفة النوم الجديدة في الغرفة الخلفية، التي كنت أعيش فيها، ولم أشعر بالحزن هذه المرة، كنت أتجنب الغرفة كلما مررت بها، في طريقي إلى الحمام، كي لا تهاجمني الذكريات الأليمة، في الصالة طاقم أنتريه فاخر من الخشب الزان، والقطيفة البنية المشجرة، ومنضدة سفرة تسع ستة أشخاص، يمكن طيّها كي تلائم صغر مساحة الصالة، صار في بيتنا، كذلك، تليفزيون حديث، وجهاز فيديو، وثلاجة، وبوتاجاز كبيران، وجديدان، وصار لي سرير فرد واحد، ودولاب صغير، به مكان لتعليق الملابس، وبضعة أرفف للملابس المطوية.

آثرت ماما النوم على إستوديو جدتي، اشترى لها "رمزي" مرتبة جديدة على مقاسه، وأعادت المستعارة لجارتنا، مع الامتنان الواجب،

محتفظة بتليفزيونها (التوشيبا)، الأبيض والأسود، الأربع عشرة بوصة، بظهره من البلاستيك البرتقالي اللون، ذي الإيريال الداخلي، الذي كانت تقضي معظم الوقت، تميله، يمينًا ويسارًا، كي تنضبط الصورة. ولأن "رمزي" سألها، ضاحكًا، عن سر تعلقها به، فأجابت: "أهو بيجيب المسلسل وخلاص"، آمن على كلامها، ونقل التليفزيون الملون الكبير الجديد، على الفور، إلى غرفة نومه. لم يعد كذلك الطاقم الأسيوطي، الذي يخصها، مرغوبًا فيه، أخبرتها زوجة أخي بأنه سيشوه منظر الصالة، وسيزاحم الأنتريه الجديد، فتقاسمناه معا، أخذتُ كرسين، والمنضدة؛ كرسي، ومنضدة، لأعمل عليهما، وكرسي آخر أستقبل به ضيوفي، إضافة إلى شماعة ملابس بابا في غرفتي، لأعلق عليها الملابس، وحشرتْ ماما في غرفتها الصغيرة؛ "الأريكة، والكرسين الآخرين".

لم يكن كل ما حدث مفاجئًا، على أية حال، ففور وصوله دعانا كلنا؛ أنا، وهو، وزوجته، وماما إلى "قعدة مصارحة" كما أطلق عليها. أخبرنا فيها بأنه لا يمكنه في الوقت الحالي أن يشتري أثاثًا لبيتنا، ثم يشتري لبيته، وأنهما؛ هو وزوجته، قد قررا الحياة معنا، وأن علينا أن نتعاون، كلنا معًا، لإصلاح الموقف. كنت أشعر بالذنب، فلم أجرؤ على أن أعارضه، واكتفيت بالصمت، وبدت ماما مرتبكة، وكأن لا حيلة لها، قبلتْ، ورحبت بالأسرة، التي من صلبها، أيًا ما كان.

(٩)

تسخر زوجة أخي، دائمًا، من عائلتنا، لا أسرتنا الصغيرة فقط، فيضحك أخي من أعماقه، مشاركًا إياها الرأي. كان من الممكن أن نشاركهما، أنا وماما، دون غضاضة، سوى غرابة ما يسخران منه، فزوجة أخي تعتبرنا عائلة "غريبة جدًا"، تذخر بحاملي "الدكتوراه"! لم يكن من المنطقي أن يشاركها أخي السخرية، على الأقل بالنسبة إليّ، أو إلى ماما، من نجاح أفراد العائلة، أو اعتبار نجاحهم هذا، مثار استهجان! كنت أفهم أن "رمزي"، وقد قنع بدبلومة في الطب، دون زملائه، حاملي الدكتوراه، وتفرغ لجمع المال، قد يغار منهم، لكنه بدا مقتنعًا، تمامًا، بوجهة نظرها. لم تكن سخريتهما تثير فيّ سوى سخرية مضادة، بيني وبين نفسي، لكن ماما لم تعجبها أبدًا تلك السخرية، وبخاصة أنها لم تنس تلك المحاورة التي تمت بينها وبين زوجة أخي، قرب حصوله على البكالوريوس: "على فكرة يا طنط، أنا ما يهمنيش ينجح ولا يسقط" فردتها لها ماما، بغضب: "بس أنا يهمني، أنا شقيت عليه"!، ظلت سخريتها تثير حنق ماما، وغالبًا، تذكرها بتلك السنوات المريرة، التي كانت تدفعه فيها دفعًا للحصول على شهادته، وشيل الحمل عنها، قليلا.

لكنه جمع المال على أية حال، وكما حكى لنا، اختار "جلدية وتناسلية" تخصصًا، وبدأ في مشاريع صناعة الكريمات المعالجة للشعر وللبشرة، يحكي لي، بفخر، عما يجنيه من عمليات "تدليك الخصيتين" للكهول، في السعودية، ويسألني عن أماكن بيع "البرطمانات" البلاستيكية "بالجملة"، ليضع فيها عبواته من الكريمات.

(١٠)

تنحدر عائلة زوجة أخي من إحدى القرى الصغيرة، في ميت غمر، التحق أبوها جنديًا بالجيش، ولما كانت أمها تعاني من شيء من البلاهة، يرجع إلى إصابة مبكرة ـ لم تعالج ـ في الغدة الدرقية، فقد زوّجها أخوها من الجندي الشاب، الأصغر منها بخمس سنوات. سرعان ما فتح الله على الخال، من تجارة "السيراميك"، الحديثة في السبعينيات، فبنى مصنعًا، واشترى أرضًا، في منطقة "نائية" هي "النزهة"! وبنى عليها بيتًا، من عدة أدوار، احتلت أسرته الدور الأول، بكامله، فيها، وحين أصيب الجندي الشاب بعد أن قارب الخمسين، وترقى بالأقدمية إلى رتبة "ملازم أول"، بداء الصدر، أحيل إلى التقاعد برتبة "رائد"، تكريمًا لحياته في الجندية، عنها وانتقلت الأسرة إلى بيت الخال، في شقة في أحد الأدوار، منحها لهم، إكرامًا لأخته، وحتى يكون لها "عين" على الرائد، الذي كان يعاملها بشيء من التعالي.

أسرة زوجة أخي، مقلوب أسرتنا، هي الأخت الكبرى، تليها أخت تصغرها، ببضعة أعوام، ثم أتى الولد، الصغير، المدلل.

وبرغم حب الخال لأخته، وتوليه رعايتها، ما جعل له الأمر والنهي في بيتهم، حتى حين تقدم "رمزي" لخطبتها، وأشبعه سخرية، فإن أبناءه الذكور، وبنته الوحيدة، لم يتعاملوا بهذه الرقة مع أبناء عمتهم. عانت زوجة أخي، كثيرًا، من تعاليهم عليها، من دخولهم المدارس الأجنبية، ومن الملابس الفاخرة، على آخر صيحة، التي ارتدوها، ومن السيارات الخاصة بالأبناء والابنة، المرصوصة في صف طويل تحت البيت. كانوا

يحبون أبناء عمتهم، دون شك، لكنه حب مغاير لحب الأخ لأخته، لم يرثوا من أبيهم ذلك العطف، أو ربما ورثوه، مغلفًا بشيء من تعالي "المانح".

كانت زوجة أخي تتباهى بخالها، وبأبنائه، رغم ذلك الأسى الدفين، رمزي، بدوره، حمل لهم الكثير من التقدير، واهتم جدًا بمصاحبتهم، وبرضائهم عنه، ورغم أنه ناله شيء من التعالي، المضمر بين الأسرتين، ظلا، هو وهي، يظهران لأسرة الخال، الكثير من الود، ويظهران لهم، كلما تأتت الفرصة، بالنزول في إجازة، مدى تقدمهما في عالم الثراء، حتى توازت الكفتان تقريبًا، ففترت علاقة أسرة "رمزي" وزوجته، بأسرة خالها، وبدأ "رمزي" في إعلان "امتعاضه" بين الحين والآخر، من معاملة الخال وأبنائه، له ولبناته. هي، بدورها، لم تعد تشعر بالنقص من ملابس ابنة خالها الأنيقة، بل لم يعد يشغلها، كثيرًا، أمر تأنقها، إلا في المناسبات، تتأنق بالذهب، والألماس، المخبأ إلا لهذا الغرض، زاد وزنها، فدارت جسدها تحت ملابس فضفاضة، وحجاب يغطي صدرها، ويخفي شعرها الأسود الفاحم، إلا من خصلة، كفرة، تحرص على أن تبدو غير متعمدة إظهارها، حين يشير إليها "رمزي"، بحسم، أن تغطيها.

(١١)

أنا لا أعرف، الآن، مدى صدق حكاية ماما عن أنها قطعت الطريق، "مشيًا" من الدقي إلى آخر مصر الجديدة، بعد أن لقنتها خالتي درسًا في أضرار

"التبذير"، ولم تقرضها، كما طلبت منها، بل إنها لم تعطها أجرة تذكرة الأتوبيس، عقابًا لها على إسرافها! لكنني صدقت الحكاية في طفولتي حين رأيت ماما تدخل البيت دامعة، ومنهكة. دعم تصديقي لها، هذا الأسبوع المرير، الذي قضيته، مرغمة، في بيت خالتي. كنت صغيرة جدًا، ربما لم أتجاوز السابعة، وكنا لم نزل في بيت "الألف مسكن"، حين أرسلتني ماما إلى هناك، كي لا تصيبني عدوى الحصبة، التي أصابت أخويّ، أعطتني مصروفًا محترمًا، ضعفي ما أتقاضاه عادة، يكفيني أسبوعين، وأخذت، في طريق الذهاب، أمني نفسي بالمتع، التي تنتظرني: على ناصية الشارع محل لعصير القصب، وعلى بعد أمتار منه "مقلة" لبيع اللب والسوداني، زوج خالتي "طيب جدًا"، يترك صرامته، وقسوته، التي طالما سمعنا عنها، على باب البيت؛ الصرامة للتلاميذ، أما البيت للراحة والدعة، وحتى للاستسلام لأوامر الزوجة، الأكثر منه صرامة. ابنة خالتي، تعتبرني أختها الصغيرة، تكبرني كرمزي بثمانية أعوام، بينما المهيبان الكبيران، أخواها، وقد تخرج أحدهما "معيدًا" في كلية الهندسة، والآخر يمضي في الطريق نفسه، يداعبانني على عجل، وأحيانًا، يحاول تعليمي الكبير المهيب كيف أعزف على البيانو، الذي كان يتقن العزف عليه، وحين يسمع ما أطلقه من نشاز، يضحك، ويبعدني برفق.

أعطيت خالتي كل ما أعطته ماما لي، فور وصولي، على سبيل الأمانة، وربما على سبيل إظهار حسن نواياي بالالتزام، وطلبت منها أن تعطيني ما يكفي كل يوم، لـ"شوب" عصير قصب، و"قرطاسين" لب، وسوداني. لكنها لم تفعل، كانت تُسمعني كلما طلبت درسًا قاسيًا في "الإسراف"، الذي ورثته عن ماما، وتطلب مني ـ بحسم ـ إرجاء رغباتي.

في السابعة مساء تدخلني إلى غرفة نومها، حيث وضعت لي "مرتبة" هناك، وحيث لا بد أن أنام فورًا، لأن هذا هو الموعد الطبيعي لنوم الأطفال.

لكن الرحلة لم تخل من متع صغيرة؛ ففي الحديقة الخلفية الواسعة، كان بإمكاني اصطياد التفاح الأخضر من فوق الشجر، لم تكن خالتي صارمة بشأن التفاح، تلقي دروسها عليّ بضرورة أن ألتزم الموعد المناسب لنضجه، فحسب، إلا المانجو، فما إن أقترب من شجرة المانجو، حتى تستشيط غضبًا، تلم الحبات الخضراء منها، ومني، وتلفها ـ بحرص ـ في ورق الجرائد، واحدة واحدة.

زوج خالتي كان صديقي، يُعرّفني على الأرانب، في "العشة"، بأسمائها، أما الدجاج فكان يشغلني بأمور أخرى، حتى لا أراه وهو يذبحه.

لم تسمح لي خالتي باستخدام التليفون وقتها، كان مغلقًا، وإلى جواره آلة معدنية لوضع العملات، فلم أستطع أن أخبر ماما بهذا "الجحيم" الذي أمر به، وبخاصة محاولات النوم، قهرًا، بينما الجميع يتفرجون في الصالة على التليفزيون، لم أستطع أن أخبرها بأنني تشاجرت مع خالتي، ووصل بنا الأمر إلى أنني قلت لها: "أنا إديتك الفلوس، وأنت حرامية، وأخدتيها مني"، لم أستطع أن أخبرها بأنها تصر كل صباح أن تعطيني المقشة والجاروف، كي أكنس الشرفة المطلة على الشارع، حتى "تلمع"، وتختبر بأصابعها الإفريز، كي تطمئن إلى خلوه من الغبار، حتى تسمح لي بأن تعطيني جزءًا من "فلوسي"! ولولا أنني رأيتها تتعامل بقسوة مفرطة مع الخادمة المقاربة لعمري، والتي جلبتها من الفلاحين، بردائها الممزق،

وشعرها المقصوص "زيرو" تغطيه بمنديل، وآثار الكدمات على يديها، لظننت أنها تعتبرني خادمة، أيضًا.

ولكن الفرصة، أو القدر، شاءا لي أن تصر ابنة خالتي على خروجي معها ذات يوم، متحدية أمها، لنزور صديقة لها، وهناك عثرت على تليفون، اتصلت بماما، ووسط النشيج والعويل فهمتْ ما حدث، أخبرتني بأنها ستأتي لتأخذني غدًا، فلم أتوقف عن العويل، خشية أن ترجع في كلامها، لكنها طمأنتني، حين عدت إلى بيت خالتي وجدت "بابا" هناك، أخبرتني ماما بعدها بأنه لم يطق تمضية الليلة قبل إحضاري، فور أن أخبرته، وكان عائدًا من المدرسة، قال لها: "أنا لسه حاستنى لبكره؟! حأروح أجيب البنت حالا"، وفي طريق العودة كدت أطير من الفرحة، محملة بكل ما استطاع أن يشتريه لي من شوكولاته، وآيس كريم، بعد أن توقفنا لأشرب، ما شئت، من أكواب عصير القصب.

(١٢)

على الرغم من كل خيبات الآمال، من كل التخلي والدروس المصاحبة له، لم تنقطع علاقة أمي بخالتي، حتى موت أمي، إلى درجة أن خالتي باعت بيتها في الدقي، كي تعود إلى مصر الجديدة، وتسكن إلى جوار أختها، وأخيها. كانت تحبهما، حتمًا، بطريقتها، يقولون في حكايات الأسرة إنني "أشبهها" تمامًا، وبخاصة في تفوقي الدراسي، واهتمامي بالمذاكرة، لم تكن محبوبة من أبيها، وأمها، كماما، "دلوعتهما"؛ لذا

كافحت حتى تنال شهادة التعليم العليا، كمدرسة لغة إنجليزية، وكرست كل خبراتها، بعد أن أخذت قرار عدم العمل، لتعليم أبنائها، كأننا كنا أسرتين طبق الأصل: ولدان كبيران، وابنة، هي الأصغر، تماما كأسرتنا، كأنه "ثالوث" تم تقسيمه على اثنين، أو توأمين "غير متشابهين".

تنادي كل منهما الأخرى بـ "يا أختي"، ورغم تندرنا على هذا النداء الغريب، الخالي من الأسماء، "الكلاسيكي" في اعتداده "بأولية" صلة القرابة، فإنه، في ما يبدو لي الآن، حافظ على ذلك الرباط الوثيق بينهما، كأنه "قانون" أبدي، لا بد من اتباعه بصرامة، والالتزام به، أيًا ما كانت المشاعر، التي تجري تحته!

لم يكن ما حدث لي في ذلك الأسبوع الطفولي، هو سر نفوري الدائم من خالتي، في الإعدادية تصادمنا صدامًا مريرًا، وحاسمًا، في بيتها في مصر الجديدة، لا أتذكر أسبابه، كانت ماما هناك، وعلقت خالتي على سلوك لي، لم يعجبها، فهددتها بصرامة: "ما لكيش دعوة بيا خالص.. فاهمة؟" وخرجت، بعد أن "رزعت" باب البيت، وتجاهلت نداءاتها الغاضبة، عرفت بعدها أنها أنبت ماما طويلا لأنها لم "تحسن" تربيتي.

كان موقفها من "زيجتي" بعدها، شديد القسوة، لم تواجهني هذه المرة، بل واجهت ماما، وكنت أرى آثار زياراتها على وجه أمي، فكنت أكتفي بالسلام حين تزورنا، بل أمضي اليوم بطوله في غرفتي، إذا طالت الزيارة ليوم كامل.

تمضي ابنة خالتي صيف إجازة الكلية عادة في بيتنا، هربًا من صرامة أمها، وتفضي لأمي بأسرارها، ونستقبل في بيتنا، من وراء خالتي، ذلك

الفتى الوسيم، زميلها في الكلية، بل إنه يخطبها، رسميًا، من ماما قبل الموعد الرسمي للقاء خالتي، في بيتنا، ومتظاهرًا بأنه يأتي للمرة الأولى، يحمل "تورته وجاتوه" وحين توافق خالتي على هذا "الجربوع" على مضض، أفرح لهما، لأنني كنت أنسحب من غرفتي حيث تشاركني ابنة خالتي سريري، لأتركهما غارقين في قبلة، شغلتهما تمامًا عن حضوري.

(١٣)

ينادونه " الحاج أحمد"، أراه كثيرًا هذه الأيام في المسلسلات، وأفرح به، شاب شعره، ولم يزل يلعب الدور نفسه، الذي كان يلعبه منذ أن وطأت قدماه أرض التمثيل، ويبدو لي، وكأنه راضٍ عنه، يسعد في التفات الناس إليه في الأماكن العامة، رغم عدم تذكرّهم، بالضبط، ما مثله من أدوار، لم يخرج عن "الشرير" أو "الطيب"، لا أظن أن الكثيرين، سوى العاملين في مجاله، يعرفون اسمه، أنا، نفسي، لم أحك عنه أبدًا، أطمئن على وجوده، إلى الآن، حين أراه في المسلسلات، وعلى أنه يمارس أدواره المعتادة القديمة، وأقول لنفسي: "من يدري؟! ربما ما زال يبحث عن فرصة، فرصة تجعله، بين ليلة وضحاها، نجمًا من النجوم".

كان صديقًا لزوجي الثاني، زارني ـ خَجِلاـ بعد الطلاق، وأسرَّ إليَّ بأنه حزين جدًا لما حدث، وأن الدنيا "مش وحشة، وفيها برضو ناس كويسين"، وأنني أخته، وطلب مني أن أعتبره أخًا. أرجأت مسألة الأخوة لسنوات، لهواجسي، ونفوري من أي شخص يذكرني بزيجة الثمانية

أشهر، الأكثر جحيمًا في حياتي، لكنه ترك لي تليفونه، مكفرًا ربما عن جريمة، لم يكن له أي ضلع فيها! كنت أعرف هذا، وكان لا يحتاج إلى برهان، كان صديقه نعم، بحكم العمل، لكنه لم ينخرط أبدًا في حلقات أصدقائه الجهنمية، ولا في أماكن تسكعنا، ربما لاقيته معه، ذات ليلة، في مسرح، وربما شعر بمسؤوليته تجاهي، لمجرد أدائه دورًا ثانويًا، في مسرحية كتبها زوجي.

أتصل به تليفونيًا في المساء، فأراه في الصباح الباكر، ينتظرنا، أنا وماما بعربته (الفيات ١٢٨)، تسرع أمي إلى الجلوس بجانبه، تسبقها كلمات الشكر، والإحراج: "معلش يا أستاذ أحمد، صحيناك بدري"، فيؤكد لها، بلطف ليزيل حرجها، بأنه لا يواصل النوم، أبدا، بعد أن يصلي الفجر. لكنها في العودة لا تدري بوجوده، وهو يحملها معي، بعد جلسة "الكيماوي"، شبه غائبة، ينهي إجراءات الخروج من المستشفى، وأنا أعد حقيبة ملابسها، وأجلسها بحرص على الكرسي المتحرك، وأحيانًا كانت تفتعل مشاجرة معي، لا داعي لها، وتبدو كطفلة "نكدة"، لا تريد أن تجلس على كرسيها، حتى أنني فقدت أعصابي ذات مرة ونهرتها: "لو ما قعدتيش ع الكرسي حاضربك.. والله حأضربك". لكنها نظرت لي نظرة لم أنسها، نظرة غضب مكتوم، أخافتني، وأعادت لي أمي، وأعادت الأدوار، إلى طبيعتها، وهي تتوكأ على ذراع الكرسي، وتزيحني، لتجلس عليه، بنفسها، دون معاونتي. حدث هذا مرة واحدة، لم يكن من الممكن، أبدًا، أن تتكرر!

ربما لعب الحاج "أحمد" أهم أدواره معنا، وهو لا يدري، بل لعب دور البطولة، كانت سيارة رمزي "الداتسون" الصفراء القديمة، تقف على باب

بيت أهل زوجته؛ اتفقنا قبل مرض ماما بسنوات، وأثناء سفره، أن يعيرها لي، تعلمت القيادة عليها، وحين توقفت مني في الطريق، لعطل كهربائي، اتصلت بأخي زوجته، لينقذني، كان يتجول بها قبل أن يعطيها "رمزي" لي، ويبدو أنه قال له إنني دمرتها، أو شيئًا يشبه ذلك، أخذها ليصلحها، وصارت له، وانتزعت مني، بأوامر من "رمزي". يذهب بها إلى الكلية، و"يعاكس" البنات، ويحكي لي عن مغامراته معهن، في السيارة.

كم تمنيت أن أحمل ماما في السيارة "الداتسون" إلى المستشفى! كم تمنيت ألا أطلب من أحد أن يحملها معي إلى هناك! نصحو، مبكرًا، معًا، ونتناول إفطارنا، أضع حقيبتها في "شنطة" السيارة، وحين نصل، أتركها في "الباركينج" حتى تنتهي جلسة "الكيماوي"، ونعود بها معًا! كم أشبعته باللعنات، وأنا أنتظر في حديقة مستشفى المقاولين العرب، تاكسيًا يأتي بمرضى جدد، كي يحملنا إلى البيت، كي يختصر ذلك الوقت المرير، بعد تناولها جرعة الكيماوي، جالسة على كرسيها المتحرك، برأس مائل على كتفها، وغارقة في إغفاءة، ستفيق بعدها بساعة، أو ساعتين على آلامها! كم تمنيت! لكنني كنت أعرف أن هذا لن يحدث، كنت أعرف أن طرق الانتقام لا رجعة فيها، وأتذكر في انتظاري الطويل، إلى جوارها، على الكرسي الرخامي، في حديقة المستشفى، تلك الليلة البعيدة، حين وعدني زوجي الأول بإعطائي السيارة "البيتلز" الصغيرة، ذات اللون الأصفر، نفسه، الفائضة عن حاجته، يومها ذهبت إلى "رمزي" وأخبرته، وعقدنا جلسة لترتيب المواعيد، أنا أذهب بها إلى العمل في الصباح، وحين أعود، يذهب بها إلى العيادة. تقبلت بعدها بأيام تراجع زوجي، ببساطة، لأنه يريد أن يبيعها، ويشتري لي سيارة أخرى، لم يفعل، ويبدو أن "رمزي"

فهم أنه لن يفعل، وبعد محاضرة تخللها الغضب، عن ضعفي في نيل حقوقي الزوجية، خاصمني لأيام.

كثيرًا ما أرسلت لي صديقتي الكاتبة سيارتها "التيوتا" الفاخرة، بسائقها، يحملنا من البيت، وأمام باب المستشفى، يفتح لماما السائق الباب، ويبحث، في جد، عن كرسي متحرك، ثم يحملها برفق، ويضعها عليه، بحرص بالغ، منحنيًا على قدميها، يلمهما بحنان، الواحدة، تلو الأخرى، كانت تلك هي الأيام الأكثر قوة في حياتي، أمام طاقم التمريض، تمنحني صديقتي القدرة على أن أتصرف "كسلطة"، لا يستطيعون تحديد مصدرها بدقة، لكنها تظل تشغلهم، ويخافون عواقبها.

بعد شهر من حصولي على الماجستير، زارني رمزي، مهنئًا، كانت ماما قد ماتت، وانتفت حجته بأنها تقف في طريق إخوتنا، انتقى صورة لي برداء المناقشة، أعجبته، وأخبرني بأنه سيضعها على مكتبه، ليرى زملاؤه، أخته "الدكتورة"، باغتني بالسؤال: "هو أنتِ لسه معندكيش عربية"، تجاهلت عدم معرفته بمجريات حياتي، وأجبتُ ضاحكة: "منين يا حبيبي؟!"، "أومال بتروحي الجامعة إزاي؟!"، وبحركة تمثيلية أشرت: "بالميكروبااااص"، صمت قليلا، وهز رأسه متعجبًا، ثم قال لي: "تنفع العربية الداتسون؟! هي قديمة، بس توصلك الجامعة". اجتاحتني فرحة عارمة: "ياريت"، ورغم إشارته في نهاية الزيارة "هي العربية باسم بثينة، بس أنا اللي دافع فلوسها أصلا"، فإنني تغاضيت عن الإشارة مبدية له سعادتي القصوى، وانتهاء مشاكلي، تواعدنا على حضوره في اليوم التالي، لإنهاء الإجراءات، فصحوت في السابعة، مبتهجة بالسيارة الوشيكة، وبعودة أخي لي، لكنه لم يأت، واختفى تمامًا، عرفت بعدها بيومين، أنه سافر، عائدًا إلى السعودية.

(١٤)

أحلم دائمًا منذ سنوات حلمًا متكررًا، ليس مؤلمًا، لكن تكراره هو ما يجعلني أرتبك أمامه، أحلم دائمًا "بسيارة"، ليست هي سيارتي الآن، لكنها سيارة "تخصني"، تختفي، وأظل طوال الحلم أبحث عنها ولا أجدها. في كل حلم تبدو مختلفة، ، ولكنها دائمًا في الحلم: "سيارة"! سألت صديقتي الإخصائية النفسية، ذات يوم، عن مغزى هذا التكرار، وهل السيارة هي "حياتي"؟ بدت مندهشة من "تبسيطي" غير المعتاد للأمر، واقترحت عليَّ أن نجلس ذات يوم لنتحدث، ونقف معًا على رمزية "السيارة" في أحلامي، وعدتها، لكنني لم آخذ الأمر بجد، أو أرجأته لعدم أهميته، في الحقيقة، ولأنه لم يصل، أبدًا، لمرحلة الكابوس.

(١٥)

كل ما كتبته على هذه الأوراق، كان مؤلمًا، لكنني كنت أتعافى منه في اليوم التالي، أشعر أنني تحررت من ذاكرة، وأحاول أن أتذكرها مرة أخرى، فتتلاشى، كأنها تبخرت فور أن كتبتها.

طمأنت نفسي على الأقل، وقياسًا على خبرة الكتابة السابقة هنا، أنني لن أرى السيارة مطلقًا، في أحلامي، بعد أن كتبت عن السيارة "الداتسون" الصفراء، التي ظننت أنها تتنكر في أشكال سيارات أخرى، أو ستزداد كثافة حين أكتبها، فأحلم بها مباشرة في الليلة نفسها، بعد

أن أغلقت الكمبيوتر، ودخلت كي أنام. لكنها لم تظهر، فرجحت أن تخميني دقيق، وأنها اختفت للأبد.

حين صحوت اليوم كنت أشعر أنني لا أستطيع أن أتنفس، أزيح القطط بعصبية عني، وأنهرها بعنف، حاولت تغيير مزاجي بشتى الطرق، دون جدوى، في الثامنة بدا كل شيء واضحًا، انتابتني رجفة، وبعدها مباشرة أصابني رعب مفاجئ، رعب كأنه يلاحقني في كل زاوية، أروح وأجيء فيها في البيت، لست معتادة على نوبات الرعب، أعرف نوبات الاكتئاب، وأحني رأسي، وحواسي، حتى تمر، لكن الرعب شيء آخر، كانت فقرة "السيارة" هي آخر ما كتبت، ورجحت أن الأمر متعلق بها بشكل أو بآخر، قررت أن أنام، في غرفتي، وأغلق كل الأبواب الممكنة، حتى لا أسمع أية أصوات تأتيني من الخارج، حاولت النوم، أي صوت في الخارج كان يجعلني أرتجف، صار العالم كله خارج جدران الغرفة، وكأنه يتهيأ للانقضاض عليّ، ولم أكن أريد سوى أن ألوذ بالغياب، بالنوم المؤقت، حتى تنتهي العاصفة.

غفوت قليلا، وصحوت بعدها، ذهب الرعب، لكن جسدي كان منهكًا، كأنني كنت أجري فعليًا، كأن شيئًا حقيقيًا كان يجري ورائي، ويلاحقني، لم أعد آمنة حين يأتيني مرة أخرى حلم السيارة، فمن يدري ربما كان في حاجة إلى قبلة الرعب هذه كي يحيا؟! كي يصبح أكثر شراسة، كالسرطان، ويصير "كابوسًا" في أحلامي الآتية؟!

(١٦)

تسعد ماما جدًا حين تسمع مني عبارة: "أنا محتاجة أقعد مع نفسي". بخبرتها معي، عرفت أن هذه العبارة تعني؛ أنني على وشك اتخاذ موقف يخص مسارات حياتي، سعت سعيًا حثيثًا بعد طلاقي الثاني المرير، في البحث عن زملاء "رمزي" القدامى، لم يكن قد تبقى له، ممن يعرفونه سوى الصديق القديم في ألمانيا، عثرت على أرقام تليفوناتهم، في مذكرة صغيرة، وضعها في أحد الأدراج، ونسيها. كانت علاقته قد انقطعت بهم نهائيًا، منذ سفره، مكتفيًا بأسرته الصغيرة، وواضعًا نصب عينيه تحذير زوجته منهم: "أصحابك بيعاكسوني"، ربما كانت صادقة، كانت جميلة بالفعل، تلتفت إليها نظرات الرجال، كلما سارت في الطريق. أصدقاؤه الآخرون، ذوو المبادئ، ولا يمكن تخيل أنهم "يعاكسونها" من وراء ظهره، أولئك الذين شاطروه القراءة، والذهاب إلى نوادي السينما، والاستماع إلى أغاني الشيخ إمام، في سنوات الصبا، تبخروا، ولم يبحث عنهم، وبخاصة حين عاد بعد سنواته الأولى من السعودية، بلحية طويلة تصل إلى صدره، وتفوح منه رائحة المسك النفاذة، زاد وزنه، وعلا كرشه بارزًا من الجلباب الأبيض، يتحدث بحماس عن "الشيخ فلان"، ويغضب من ابتسامتي، وابتسامة ماما الساخرة، رغم أنها واظبت كل جمعة على مشاهدة الشيخ الشعراوي، متحمسة لتأويلاته اللغوية، والدينية، وارتدت "تربونا" على رأسها، ولما كنت أداعبها، أحيانًا، مخافة التشدد، قائلة لها: "الله يرحم!"، كانت تضحك: "يا بنتي السن له مقامات"، كانت متدينة طوال حياتها، لم تشك أبدًا في وجود الله، بل تنفر مني حين أبدي "تشككي"، وتعلن

انتهاء أي نقاش حول هذا الأمر.

كنا نصوم معًا، ونفطر على مائدة السفرة، التي اشتراها "رمزي"، تخلينا، أنا وهي، بعد أن صرنا وحيدتين معًا، عن تقليد "الصواني"، إلا إذا تضاربت مواعيدنا. نقضي الوقت، حتى السحور، في الشرفة، نحتسي الشاي والقهوة، ونتبادل السجائر، ونحن نتحدث، لدينا دائمًا ما نتحدث عنه، بل لدينا فائض مما كانت، أو كنت، أريد أن أحكيه لها، نرجئه، مضطرتين، لليوم التالي. أحيانًا كان الأذان ينطلق قبل أن تنهي سيجارتها، فتكملها، وحين أنبهها، ترد عليَّ ببساطة: "يعني هو زمان كان فيه ساعات؟! خلاص ده ما فاضلش فيها غير نفس".

عثرتُ على تليفونه، أخيرًا، واتصلت به من ورائي، زميل قديم لرمزي، كان صديقه لفترة، ثم بدأ يغار منه على زوجته، بل إنني أخمن الآن السبب الحقيقي وراء غيرته، وحنقه عليه، وأظنه لحصوله على الماجستير، وبدئه في الإعداد للدكتوراه. تخصص في علم النفس، وعمل، بدأب، في إحدى المستشفيات الحكومية، حتى ترقى فيها، أحبني في شبابي، وقبل زواجي الأول، ورأت ماما أنه "عريس محترم"، لكن "رمزي" نفرني من الفكرة: "ده كان بيحب واحدة حب جارف، ترضي تبقي بديل لها؟!" رفضت العرض، دون مناقشته من بابه، وعلى الرغم من مصارحته لي بأنه نسي الحب القديم، فإن "رمزي" زرع بذرة الشك، وانتهى الأمر، فتزوج من شابة لطيفة، لا تعمل، أنجبت له البنين والبنات.

ولأنني حملت له إعزازًا حقيقيًا، وافقتُ ماما على الذهاب إليه، دون معاندة، وربما بدافع الفضول، لرؤية هذه الزوجة، التي احتلت مكاني في

قلبه! استقبلني بترحاب، هو وزوجته في بيته، وأتى الأبناء ليلقوا علينا السلام، ثم انسحبت زوجته، بلطف، لتفرج ماما على البيت، حين طلب مني أن ننفرد سويًا في مكتبه.

توالت الزيارات، وأعد هو وماما خيوط المؤامرة عليَّ، من خلف ظهري، أمدها بكل "الروشتات" الطبية، اللازمة لإعادة التحاقي بالجامعة، كنت قد نسيت الأمر، بل صارت فكرة العودة لكلية "التجارة" أسوأ ما يمكن أن يحدث لي، كنت قد بدأت الانخراط في مجموعات تكتب الشعر، والمسرح، وبدأ اسمي يتم تداوله، اخترت اسم شهرة حذفت منه اسم أبي، ورأيت أنه اسم "رنان" هكذا.

بعد أن تمت المؤامرة، أخبرني بضرورة أن أبدأ من جديد، وأن أعود إلى الجامعة، بسخرية قلت له: "ده فيلم نجلاء فتحي بتاع "المرايا" ولا إيه؟!" لكنه لم يلتفت لما أقوله، كان حريصًا أن أذهب إليه في بيته، لا في العيادة، ويبدو أنه رأى أنني أحتاج أن أكون وسط "أسرة"، بشكل ما، تشاركنا رأينا "السلبي" في "رمزي"، وأعطاني الجملة المفتاح لأفهم، أو هكذا شعرت: "رمزي ما بيعرفش يقيم علاقات عميقة بالناس، حتى بأصدقائه، وأنا منهم"، ارتحت قليلا، وبخاصة حين أمسك "بالعود"، الموضوع إلى جوار مكتبه، وباغتني بتعلمه العزف "سماعي"! أخذ يدندن، ثم غنى لي بصوت ضعيف، أغنية لأم كلثوم، كنت أعرف أنه يحبها جدًا، ولم أكن أحبها، وطالما سألته في صباي: "بتحب إيه في أغار من نسمة الجنوب دي؟! دي بشعة"، هذه المرة استمعت إليها، دون معارضة، وضع العود جانبًا، وقال: "أنا مش فاهم إزاي تبقي بتكتبي شعر وبتكرهي الأغنية دي؟!" تحول موقفي فجأة من "المريض" إلى الشاعر، فأجبته بتحد: "عشان شعرها

رديء جدًا الصراحة"، هز رأسه، متعجبًا، ثم سألني: "طيب بلاش دي، إزاي تبقي بتكتبي شعر، وما تدخليش كلية الآداب، قسم لغة عربية؟! عشان تنمي موهبتك؟!".

خرجت، بعدها، من غرفتي إلى ماما بعد أن "قعدت مع نفسي" أيامًا، لم أخبرها أبدًا بما دار في عقلي في تلك الأيام، لساعات طويلة أوازن بين "اختيارين": "الانتحار" النهائي هذه المرة، أستغرق في تفاصيله، حتى لا يمكن أن يسترجعني أحد، مغمغمة ببيت كفافيس: "ما دمت قد خربت نفسك في هذا الجزء من العالم، فأنت خراب أينما حللت"، أو البدء من جديد، أشفقت عليها، هذه المرة، من الاختيار الأول، كبرتُ، وتخيلتها بعد موتي، امرأة مهدمة، بابن لا تعرف عنه شيئًا، وبنت منتحرة، أي مصير هذا ينتظرها مني؟!

لا أعرف هل دارت هذه الهواجس في عقلها، أم لا، لكنها لم تتعجل قراري، تدخل إلى غرفتي بصينية الغداء، والساندوتشات في الليل، وكوب شاي، أو قهوة، وتخرج، في هدوء. حين تزورها خالتي تغلق الباب عليهما، كي لا أسمع صوت خالتي، وهي تقول لها جملتها المأثورة: "يا أختي إيه الدلع المرئ ده؟! ما ده اللي بوظها". حين خرجت من غرفتي ـ أخيرًا ـ قلت لها بضجر: "حأرجع الجامعة، بس مش تجارة.. ده شرطي الوحيد".

لو كنت أعرف أنها ستفرح هكذا، لما أمضيت كل تلك الأيام في غرفتي! قفزت من مكانها، هللت، ورقصت، وصفقت بيديها، كأنها لم تمرض أبدًا، وكأن قوة مجهولة لا أمي هي التي تحتضنني، وتبكي،

وتضحك، وتهرع إلى المطبخ "أنا حاعمل كيكة"، لحقت بها لأتأكد أنها سمعت تحذيري جيدًا، كنت قد وصلت قبلها بعشر سنوات إلى السنة الثالثة، بمواد مرجأة، في كلية التجارة، وبدا لي أن المؤامرة تعني أن أكمل ما تبقى من سنتين، وكأنني أدخل بقدمي مرة أخرى إلى الجحيم، أعدت على مسامعها ما قلته: "بس مش تجارة"، أشاحت بيدها ضاحكة، وهي تقلب البيض بالمضرب: "تجارة إيه؟! دي أيام خلاص وراحت لحالها، أنا و"علي" قدمنا ورقك في آداب عربي، خلاص. أخلص الكيكة وأصلي ركعتين شكر، وأروح أكلمه وأفرحه".

(١٧)

كبرت "كرة البنج بونج" في صدر ماما، وصارت كبرتقالة جامدة، وبارزة، كفت عن "دهنها" بمراهم الروماتيزم، لم تعد تؤلمها، تضايقها في الصيف فقط، فنشق فتحات جلابيب البيت، لتعريها في الهواء. كان المنظر صادمًا لنا، لكننا لم ننبس بكلمة، وسرعان ما اعتدناه. لم يعد من الممكن استمرار اعتباره "آلام روماتيزمية"، أو فطريات! حتى "رمزي" نفسه لم يعد يغضب حين نبوح له بهواجسنا، ويكتفي بتغيير الموضوع. كنت قد استعدت "حياتي"، بعد عشر سنوات من الإبحار في كل شيء، واللاشيء، أيضًا، وكان "رمزي" يأتي من السعودية، كل صيف، ليقيم معنا هو وزوجته وأطفاله، الذين صاروا "أربع بنات". لم يزل يحلم بالولد، ولم تزل زوجته تشاغله بالحلم، وما يزالان "يدبران" فلوس الشقة، ينام معها في

الغرفة الخلفية، وبينهما الطفلة الرضيعة، بينما تنام الثلاث بنات في الصالة الضيقة الصغيرة، أمام الحمام، تعلمنا أنا وماما "الحذر" إذا ما استيقظنا في آخر الليل، للذهاب إلى الحمام، حتى لا نصطدم بأجسادهن الصغيرة.

شاكيًا من قلة النقود طوال الوقت، لكنه يفكر في مشروع جديد، وأعرف من صديق له أنه يدخر العديد من "الشيكات"، على وشك التحصيل، لم يملك نفسه لحظة "زهو" فأراهم له، صدقته، وأخبرت ماما، مستنكرة ادعائه الدائم الفقر، لكنها لم تصدقني. ربما لأنها لم تصدق فعلا، أنه يداري عليها "ثروته" المتنامية، خصوصًا بعد أن بح صوتنا لسنوات، قبلها، أن يرسل لنا؛ أنا وهي، مبلغًا شهريًا "منتظمًا"، بدلا من تلك المبالغ الضئيلة، التي يرسلها كما شاء، في أي وقت يشاء، فتعلل باضطراب أحواله المالية، وأن عمله دائمًا "على كف عفريت".

كان المشروع الجديد هو شراء عدة فدادين للاستصلاح الزراعي، على طريق مصر- الإسكندرية، انهمك لأيام طويلة في البحث عن من يحفر له بئرًا هناك، يسافر كل يومين، هو وحماه، وأخو زوجته، ليبدأوا المشروع، قبل عودته إلى السعودية طلب مني، بجدية، أن نجلس، أنا وهو، على انفراد! وهو أمر لم يحدث لسنوات طويلة، بدا لطيفًا جدًا، وهو يصارحني بأنه كتب الأرض باسم زوجته، وأنه "أوصاها"، وشدّد على الكلمة في الحديث أكثر من مرة، أن تعطيني خمسة فدادين، إذا " جرى لي حاجة"، وأضاف أنه لا يمكن أن يخالف "الشرع" في أمور كهذه . لم يكن من الممكن أن يدور بخيالي أنني قد أجلس معه جلسة كهذه، لأسمع كلامًا كهذا، ورغم صدمتي في ما قيل، طمأنته: "يديك طولة العمر يا أخويا، لو جرى لك حاجة حأنزل أشتغل وأصرف على بناتك". أراحه ما قلت،

وشدد على الكلمة مجددًا: "لا . . لا . . أنا وصيتها، ربنا أمر بكده".

سافر بعدها، وترك أمر الأرض لحميه وأخي زوجته، كان الأخ ما زال في الكلية، وبدا مقنعًا جدًا للجميع، أن يحصل على السيارة "الداتسون"، ليذهب بها إلى جامعته الإقليمية، ويمر في عودته ليباشر الأرض.

لكن الأرض ظلت "بورًا"، لم تنبت فيها سوى بعض الحشائش البرية، وبعد سنوات باعوها بتوكيل منه، أخذوا نصيبهما مكافأة على الجهد، وأعطياه فتات ما تبقى.

لم نجرؤ أنا وماما أن نقول له: "إنهم، جميعًا، سرقوه" ولو على سبيل التشفي من عبارة زوجته القديمة: "أخوك سرقك"، التي آلمت "ماما" أيامها، حد البكاء لأيام. لم نجرؤ، أو بمعنى أدق، كنا نعلم أنه سيدافع عنهم جميعًا، فلم نجد جدوى من "التشفي".

(١٨)

تلقت ماما دعوة الحج، التي ظل "رمزي" يعدها بها طويلا، وحين أبديت لها "توجسي" من مصاعب الرحلة، مما لا يتلاءم مع حالتها الصحية، بعد العملية الثانية، لم تكن تنصت لي، كأنها طفلة تعد لرحلة مدرسية، تتحدث بانفعال، وتطمئن إلى أنها لن تنسى شيئًا، وأمام فرحتها الطاغية، صمتُ، مذعنة، لهذا الغياب الطويل المنتظر. فرغ البيت منها، وفضلت البقاء فيه مقلصة خروجي منه، دون سبب محدد، إلا عدم رغبتي. أنتظر

خطاباتها، المتلاحقة، تحكي لي فيها عن زياراتها لبيت الله، ودعواتها، التي لا تنقطع، لي. أيقظت غيبتها هذه المرة خوفًا قديمًا بداخلي، من أن أفقدها، وحين ذهبت لاستقبالها في المطار، لم أتبين أن هذه المرأة، بقامتها القصيرة، التي تتحرك بنشاط، وتلتقط حقائبها، بهمة، من على السير الكهربائي، وأنا أشاهدها من وراء الزجاج، هي أمي! ذابت شحوم جسدها، في الجلباب الأبيض، قابلتني "متهللة" واحتضنتني طويلا، وفي طريق العودة إلى البيت، لم تنقطع حكاياتها. أنا أيضًا كدت أطير من الفرحة قرب عودتها، أنظف البيت لتراه يلمع، وأحضر لها الطعام في الثلاجة، وأضع علبة "الآيس كريم" الكبيرة في الثلاجة، الشيء الوحيد الذي كانت تتناوله بنهم، ودون تضحيات، وحين أبحث عن نصيبي منه، وأسألها، تطأطئ رأسها كطفل مذنب: "كلته كله.. معرفتش أحوش نفسي".

حين وصلنا فتحت حقيبتها، بفرحة، لتريني الأقمشة التي أحضرتها لي، وهي تقول معتذرة: " أنا لو بإيدي كنت جبت لك الدنيا"، ثم أخرجت طاقمين من الماركات المعروفة الأنيقة: "دول بقى من أخوكِ"، أدهشني هذا البذخ المباغت، وأخذت أجربهما فرحة، وبينما جلسنا أخيرًا في الشرفة نحتسي الشاي، حكت لي عن بعض مشاجراتها معه، وحكت لي أيضًا عن لطف زوجة أخي معها، لم يكن غريبًا بالنسبة لي، فبمجرد أن أختفي تتحسن علاقتها بأمي، وتعاملها، معاملة تشبه معاملة الأم!

لم يكن غريبًا أن يرسل لي بعض الملابس، من حين إلى آخر، طاقمًا، أو اثنين، على الأكثر، لكن الهدية الأكبر أتت فور طلاقي الثاني، وعودته بالأثاث الجديد لبيتنا، أحضر لي أكثر من طاقم، وحذاء جديدا وحقيبة،

بدا الأمر وكأنه ترضية لي، لم أفهم أهدافها إلا حين عقبت زوجة أخي على فرحتي فأماتتها: "حلوين قوي عليك، وجبنا حاجات زي دي بالظبط لأختي منى". ماتت فرحتي بالهدية، وشكرتهما عليها.

(١٩)

ثمة أيام صرت أسميها "أيام تغير المصائر"، لا شكل لها، ولا لون، محض أيام، كسابقتها، تكون قطرات الأيام قد تراكمت فيها، فحسب، في غفلة منا، كاليوم الذي ذهبنا فيه، بإصرار من خالتي هذه المرة، في إحدى زياراتها الأسبوعية لماما، وبصحبة ابنتها إلى الطبيب الشهير، المتخصص في الأورام، ورغم معارضة ماما نفسها، لتشاؤمها من الاسم، أذعنتْ، تحت تهديد خالتي: "فطريات إيه؟! وهبل إيه؟! والله لو ما روحتي ما حأدخل لك بيت تاني". أدرك الآن سبب رعبها، كانت تعرف الحقيقة، دون شك، وكانت تدرك أن هذه البرتقالة، التي تكبر كل يوم، تتدحرج بها إلى مصير طالما راودها، وهي تحكي عن مرض أمها القديم، وعن موت خالتها، بنفس المرض، الذي أصيبت به أمها: "سرطان العظام".

لم تقو قدماها على حملها حين عرفت بالخبر، فاستندت عليّ، وهي تنشج بصوت كالصراخ، لم تعبأ بالمارين حولنا، ينظرون إلى تلك الحلقة المكونة؛ منها، ومني، ومن ابنة خالتي، ونحن نهدئ نشيجها الهستيري، انشغلنا قبلها بأيام، وحسب أوامر الطبيب الجديد، في إجراء تحاليل جديدة، ومعاودة فحص التحليل القديم، الذي خبأته ماما في مكان،

حاولتْ تذكره بصعوبة، ثم أخبرتنا به، لم يشأ الطبيب الشهير الجديد أن يحط من قدر زميله، لكنه هز رأسه بأسف، مغمغمًا: "قطريات إيه بس؟! أتأخرنا قوي، كنا لحقناها!". حين وصلنا إلى البيت، هدأتْ قليلا، وبعد أقل من ساعتين، استعادت شجاعتها، وطلبت مني ـ في هدوء ـ أن أتصل برمزي لأخبره.

(٢٠)

أسوأ أيام حياتي هي تلك التي يأتي فيها "رمزي" في إجازة، وبخاصة بعد أن انتظمت في دراستي، وفي نهاية العام تنتظرني ماما في الشرفة، كما كانت تنتظر أخويَّ أيام نتائج الثانوية العامة، لكن وجهها المكفهر أيامها، استبدل به وجهها جديدًا، متهللا، منذ السنة الأولى لي، تنتظر سماع العبارة التي صارت موسيقاها الوحيدة: "جيد جدًا"، تكون قد أعدت أكواب الشربات، تدور بها في نشاط على كل الجيران، فيفتحون لها الباب مرحبين: "جيد جدًا.. التانية ع الدفعة.. السنة الجاية حتبقى الأولى"، لكن هذه الفرحة لا تدوم طويلا، ففي الصيف يمتلئ البيت بالأطفال، يجرون ويصخبون، يأخذ "رمزي" التليفزيون الملون في غرفته، وتجلس ماما تضبط إيريال تليفزيونها الأبيض والأسود، وأخرج أنا عادة، لأهرب من الجميع. تتركني ماما أخرج، شريطة أن أخبرها بموعد عودتي، كي لا يأكلها القلق عليَّ، وتتيح لي ـ دون أي تذمر ـ أن أسافر مع صديقاتي، أو أقيم عند "رئيفة"، أسبوعًا، أو أكثر، وقبل بدء الدراسة بشهرين، أعد

مراجعي لأتهيأ للعام المقبل. لم يعد "رمزي"، يتدخل في حياتي، لا يسألني أين أذهب، أو أين أبيت، كنت أرجع ذلك في البداية، إلى اعتقاده، منذ طفولتي، بضرورة أن أنشأ "حرة"، وأنه يضع "ثقته" في، خصوصًا أنني كنت أحكي له عن قصص حبي الأولى، فينصحني، لكنني، وبعد طلاقي الثاني، وبعد عبارته التي لم أنسها: "لو قرب من عيالي ومراتي.." كنت أدرك أن المسألة لم تعد كما كانت، كنت أعرف تمامًا أنه نفض يديه مني، وأستطيع تمييز الفرق بوضوح ساطع، بين الثقة القديمة و"اللا مبالاة".

في سنتي الدراسة الأخيرتين، سمح لي "رمزي" وزوجته باستخدام غرفتهما الخلفية أثناء سفرهما، للمذاكرة، والمبيت، لأنها في آخر البيت، حيث لا ضوضاء تأتي من الشارع، لكنني كنت أنتقل في الصيف إلى الغرفة الأمامية، حيث لا أستطيع النوم، حين يحضر الأطفال من الخارج، ويقلبون الدنيا أمام بابها، الملاصق تقريبًا، لباب الخروج من البيت.

(٢١)

تبقى أقل من شهرين على نهاية الرحلة، كنت أنا وماما نرددها كلما تعبنا، حين فجعنا الطبيب بنتائج التحليلات، مرت ثلاث سنوات على دخولي الكلية، وعلى وشك الامتحان الأخير لليسانس، وتحديد المصائر، بالعمل في الجامعة، الذي بات شبه مضمون بالنسبة لي.

أقامت المعسكرات خلال تلك السنوات، حين تقترب الامتحانات، تنهمك في شراء اللحوم والدواجن، تدخر طوال العام من معاشها،

ومعاشي معه، لتوفرها، كي "أتغذى" جيدًا، تطالب معارفها ـ بوضوح ـ ألا يزورنا أحد، عشان "البنت" بتذاكر، وتقطع الطريق عليهم فتزورهم أولا. في ليالي الامتحانات أنام في العاشرة مساءً، لأصحو عند صلاة الفجر، أصلي وأبدأ المراجعة، حتى يحين موعد ذهابي للامتحان، أضع رأسي "صاغرة" تحت كفها على باب الخروج، "لترقيني".

تظل الليل كله ساهرة، حتى توقظني في الفجر، تتفرج على التليفزيون، وتخفض صوته حتى يبدو همسًا، تغلق الأنوار، وتنتظرني. بدا وكأنها معركتها الوحيدة، حتى حين أطلب منها أن تنام، وأن تضبط المنبه، ترفض بصرامة: "لأ.. أنا حأفضل صاحية.. تروح علينا نومة يا بنتي تبقى مصيبة".

(٢٢)

هدأت ماما بعدها بأيام، حين عرفت أنه "سرطان الغدة الدرقية"، بدا لها "شرًا" أهون من شر، قائلة: "المهم أنه مش في العضم"، ووسط اقتراح العلاجات الممكنة، والتفاؤل خيرًا بها، واستشارة لا الأطباء فقط، بل الأهل، والمعارف، والجيران، حسم الأمر، لا جلسات كيميائية، لا إشعاع، كل ما في الأمر "كوب" من اليود المشع، وعزل لثلاثة أيام في المستشفى بعده.

حسمت ماما أمرًا آخر، كان هو الأهم من وجهة نظرها، ولم تقبل فيه مناقشة، لا من "رمزي"، ولا من خالتي، ولا مني: "مفيش علاج

حيبتدي قبل ما تخلص الامتحانات، أنا بقالي سنين، يعني خلاص حتيجي من شهر؟! ده فاضل شهر.. بجملة". شعرت بالذنب، لكنها طمأنتني: "حنضيع اللي عملناه كله يا بنتي؟! تاني يوم تخلصي الامتحان حأتعالج على طول".

تم ما أرادته، ومضى الشهر، وحين عاد "رمزي" مع أسرته في إجازة الصيف، ولمح لي بأن تأخرها في العلاج بسبب "امتحاناتي"، غضبتْ غضبة عارمة، ونادته في غرفتها، و"كالت" له، كما لم تفعل في حياتها، كما قالت لي، وهي تهدئ من بكائي، حتى أنه أتاني في الليلة نفسها واحتضنني، وأعتذر، معللا اعتذاره: "إحنا حنعالج سرطان، والا حنعالج عقد ذنب.. خلاص ما تزعليش، حقك عليَّ".

(٢٣)

جلسات "اليود المشع" ليست مؤلمة، والطبيب "المهيب" الذي أحالوا إليه تحاليلها الأخيرة، في مستشفى "المقاولون العرب" لطيف، إلى حد ما، يلقبونه "الأستاذ" تميزًا له عن باقي الدكاترة، حتى الكبار منهم. أحيانًا، كان يسمح لي بالتحدث معه، وينصت إلى هواجسي، ويطمئنني بأن الحالة ليست سيئة، ويمكن أن تشفى، وبخاصة أن المريضة في أواخر الستين. أُعد لها ملابسها قبلها بيوم، ونذهب، تتناول الشراب ببساطة، ثم أخرج من الغرفة فورًا، حتى لا يصيبني ـ حسب أوامر الطبيب ـ الإشعاع الذري. تقضي بعدها أيامًا ثلاثة، دون أن يزورها أحد، وأضع الهاتف إلى جوار

فراشي، تحسبًا لمكالمة تأتيني من المستشفى في الليل، لو حدث، كما قالوا، لا قدر الله مكروه.

في الجلسة الأولى والثانية، وضعناها في غرفة بمفردها، أصرت على ذلك، كنا ندفع أقل كثيرًا من المرضى الآخرين، على أية حال، متمتعين بخصم نقابة الأطباء، التزم "رمزي" بالفاتورة في الجلستين الأوليين، حين جاء موعد الجرعة الثالثة، ظللت أنتظر، وأرسل له عبر "حميه" بضرورة إرسال المبلغ، لأحجز المستشفى، وأن أي تأخير عن الموعد، أو ارتباك فيه، قد يؤدي لانتشار المرض، لكنه كان يماطلني حتى الدقيقة الأخيرة، لأسمع الباب يدق في الليل، معلنا نهاية توتري، وأرى "حماه" حاملا مظروفا، به المصاريف بالكاد، دون قرش زائد.

في الجلسة الثالثة، لم تستطع ماما الانفراد بالغرفة، حلت معها مريضة أخرى، شكت لي من "رغيها" الدائم، وشخيرها المتواصل في الليل، ما لا يجعلها تتمكن من النوم، أقنعتها أن هذا "ترفًا" منها، فأقتنعت، ووافقتني، وحين ذهبت لآخذها، وجدتهما قد صارتا "صديقتين"، تتواعدان بالزيارة.

الأصعب هو ما بعد الجرعة، تقسمت المهام بأسرع مما تصورت، على المقربين، تولت صديقتي "رئيفة" أمر تحاليل الدم، تحضر الممرضة بسيارتها إلى البيت، لتأخذ العينة، ثم تعود لنا بعدها بأيام بنتائج التحليل، ترفض أن تخبرني بما دفعته، وأقبل ممتنة، عقدت خالتي اجتماعًا عائليًا مع أبنائها، وبخاصة الولدان الكبيران، وقد صار كل منهما الآن دكتورًا في الهندسة، تجمع منهما مبلغًا من المال، يكفي أشعة الرنين، إضافة إلى بعض المصروفات النثرية كالتاكسيات، إذا لم تتأتَ سيارة.

الأصعب هو الرعب، رعب ماما من أصوات الرنين، ورأسها المختفي في الجهاز، كأنه، كما وصفته، "تربة وعذاب قبر" ورعبي الذي أغلقت غرفتي عليه، وأنا أسمع الطبيب يحدثني عن انتقال السرطان من مكان إلى آخر، ويطمئنني، بأنها انتقالات ثانوية، وسيتم القضاء عليها - لضعفها - في الجلسة التالية.

الأصعب هو الرعب، الذي كان ينتابني، وأنا أندفع إلى غرفة المسح الذري، وسط تحذيرات الممرضات، لا أبالي بهن، وأنا ألتقطها من فوق سريره لتستند عليَّ، بعد أن رأيت إحداهن، تلقيها "كالشوال" على الكرسي المتحرك، ذات مرة.

كنت قد وعدت ماما، في بداية العلاج، وحلفت لها على "المصحف" ألا أخفي عنها شيئًا يتعلق بتطورات مرضها، وفعلتُ. قالت لي في حسم: "أنا مش ست جاهلة، ومش عيّلة حتخبوا عليها"، لكنني كنت أختار كلماتي الصادقة، بعناية، أضع الكلمات "المطمئنة" قبلها، ثم أقول لها ما يحدث، المرة الوحيدة التي كذبت فيها عليها، قبيل انتهاء الجلسات، وتحديدا قبل الجرعة الخامسة، أخبرني الطبيب أن السرطان وصل - للأسف - للعظام، دارت الدنيا بي، لم أعرف كيف أخبرها بتحقق هذه اللعنة المتوارثة "سرطان العظام"؟! كيف ستتحمل "معًا" آلامها الضارية؟! وأدركت أن خبرًا كهذا سيكون "القشة" الأخيرة لصمودها. رغم طمأنة الطبيب لي بأنه ثانوي، مضيفًا: "حيروح وحأفكرك".

في تلك الليلة البعيدة تحديدًا، وبعد أن أغلقت الباب عليَّ، واطمأننت أنها نامت، أخذت أدق رأسي في الجدار، دقات سريعة، ومتواصلة، لم أتوقف عنها إلا حين شعرتُ بأن رأسي يروح من الألم في خدر عميق.

(٢٤)

رفع وجهه، منهللا، من فوق أوراق التحاليل، وهو جالس على مكتبه الفخم، وقال لي منتصرًا:

"أهو راح من العضم ياستي.. قضينا عليه، مش قلت لك؟!"، وحين رأى دموعي تنهمر، دون أن أستطيع السيطرة عليها، رقّ لي، وتخلى عن مهابته، قام من مقعده، وربت بيده على رأسي، وسألني: "مش أنتِ قلتِ لي إنك بتحضري ماجستير في الشعر؟! أنا كده فهمت، الشعراء دول قلبهم خفيف، جمدي قلبك كده، أمال حتاخدي الدكتوراه إزاي؟!"، بدا أبًا حقيقيًا، وكدت أنحني لأقبل يده، لولا أنه تجاوزني بسرعة، وفتح الباب ـ مبتسمًا ـ مشيحًا لي بالخروج: "يا للا روحي انبسطي بقى وذاكري.. ورايا عيانين تانيين".

نامت ماما في غرفتها، ونمت، وحين صحونا، ونادتني كي أدلك لها ظهرها "بالفولتارين"، لأنه يؤلمها، لم أرتعب هذه المرة، كان شهرًا مريرًا، لم أستطع فيه أن أحكي لها ما أعانيه، كعادتنا، كلما تألمت فيه من عظامها، أداري ما أعرفه، بنكتة: "ما ترحميني بقى ياست أنت، سرطان وروماتيزم؟!" أتقنت دوري جيدًا، حتى إنها، ورغم الألم المتنامي في عظامها، لم تشك، ولو للحظة، أن ثمة ما أخفيه عنها.

حين حضر "رمزي"، في زيارة ليومين، وبعد أن عرف أن لي أخًا طبيبًا، فطلب أن يقابله، صارحه بأنها لم تشف تمامًا، صحيح أن الورم، الذي كنا نتابعه، أنا وهي، بشغف، قد تقلص، لكننا سنضطر عما قريب،

كما قال، إلى تدخل جراحي، إذا استردت الخلايا نشاطها في العام القادم. وعده "رمزي" باتخاذ اللازم، وحين عدنا إلى البيت، أخبرته، تفصيلا، بما حدث، وبكتماني الضروري لهذا التطور الوحيد في مرضها، حتى لا يثير كل ذكرياتها المرعبة، انفرد بماما قليلا، ثم عاد إليّ مرتبكًا، وألقى في وجهي بالقنبلة، كأنه طفل مذنب: "أنا قلت لماما على حكاية العضم دي"، تملكني الذهول للحظة، ثم انفجرت في وجهه، لا أتذكر ماذا قلت، غير أنه أفسد كل شيء، "متعمدًا"، ولن أسامحه، أبدًا. . أبدًا. . لكنه دافع عن نفسه بأنه طبيب، ولا يرى داعيًا لإخفاء حقيقة مرض "مرضاه" عنهم، كان يتكلم بسرعة، ويشيح بيديه، ثم خرج، مغلقًا الباب وراءه، بعنف.

حين دخلت إلى ماما، وجدتها ترقد على سريرها، هادئة، وكأنها لم تسمع شيئًا، حتى ولا صوتنا الذي ارتفع وملأ البيت، دفعتني بيدها برفق وأنا أسوي لها الوسادة وراء ظهرها، وسوتها بنفسها، ثم سألتني: "هو خرج خلاص؟" هززت رأسي بنعم، وقبل أن أخرج من غرفتها لاحقني صوتها، حادًا هذه المرة كنصل سكين: "أنا مش حأصدقك تاني أبدًا، أنت حلفتِ ع المصحف!".

بعدها بأيام، مرت العاصفة، ورق قلبها لي، عدنا لطبيعتنا، سافر "رمزي" في اليوم التالي، مر على ماما، وودعها وأنا نائمة، واتفقا على ألا يستبقا الأحداث، وألا نبحث أمر الجراحة إلا بعد نهاية "الجرعات"، تم إرجاء كل شيء، وجلسنا أنا وهي نشاهد المسلسل في المساء، بل إنني حشرت نفسي في الإستوديو إلى جوارها، ورفضتُ النوم في سريري، احتضنتني، واستغرقنا سويًا في نوم عميق.

(٢٥)

ثلاثة أشياء كنا نتجنبها في بيتنا؛ أغنية "الطير المسافر" لنجاة، و"أحبابنا يا عين"، لفريد الأطرش (رغم عشق ماما له) و"خسارة خسارة" لعبد الحليم، أهرول لأطفئ الراديو، أو التليفزيون، إذا ما تصادف إذاعة أي منها، تدخل أمي في اكتئاب عميق، بعد سماعهم، إضافة إلى مسألة شيّ اللحوم في العيد، التي تذكرها بطقوس الابن الغائب، لا تعرف له طريقًا، ولا تريد أن تعترف أنه مات.

في تلك الأيام كانت تختلي بنفسها لتكتب، لم تنقطع علاقتها بالكتابة مطلقًا، تطوي الكراسات، وراء الكراسات، تملؤها بخواطرها، وبأبيات من الشعر المنثور، وفجأة، في بداية مرضها بدأت تكتب رواية عن حياتها، ربما كي تتحرر منها، كما أفعل أنا، تمامًا، الآن، وتُسمعني، من وقت إلى آخر، مقتطفات منها.

سمحت لي ـ أخيرًا ـ في سنوات مرضها بشيّ اللحوم، حين أدعو صديقاتي ليلة رأس السنة، وبدا وكأن هذا الطقس، الذي كان "تابو" لا يمكن اختراقه ذات يوم، يفقد قداسته، بمرور سنوات غياب راجي، لكنها لم تتراجع عن كراهيتها للخمر، كلما أتت سيرته تذكرت مشاجرات جدي مع جدتي، وضياع حياتنا كما قالت، بسبب إنفاق أبي كل ما لديه عليه. جعلني هذا أشترط على صديقاتي، ألا يتناولن البيرة في منزلنا احتفالا بالعام الجديد، فلم يشاركني الاحتفال سوى صديقة أو اثنتين، على الأكثر، وهما يذكرانني بتضحياتهما بسهرات أخرى، يتم تبادل

الكؤوس فيها، كي لا يتركاني وحدي في استقبال العام الجديد.

لم يكن الأمر مزعجًا بالنسبة إليَّ، فمنذ معرفتي بحقيقة مرض أمي، نما في داخلي شعور بأن استمرار حياتها متوقف إلى حد مبهم، على سلوكي. في زيجتي الثانية، كانت ماما تمتعض، حين تدخل إلى غرفتنا، لتنظفها، أو لتبحث عن شيء، فترى الزجاجات الفارغة، والأكواب، لكنها لم تقل لي شيئًا، حين عرفتُ بمرضها، صليت، وعاهدت الله، باكية، ألا أمس قطرة واحدة من الخمر، رجوته ألا تتعذب، وتوسلت إليه، مقابل أن أفي بعهدي، طلبت منه أن يعاقبني فيها إذا فعلت، ومرغت رأسي على سجادة الصلاة، وحين تنفستُ بعمق، أدركت أن "العهد" قد تم قبوله.

سبع سنوات، أُدعى فيها إلى المجالس، يسخر مني من عرفوني سابقًا، أحيانًا، يضعون، مازحين، قطرات من النبيذ، خلسة، في كوبي، فأنتفض من مكاني، أبصقها على الأرض، وأغسل أسناني كالممسوسين، حتى كفوا عني.

بعد موتها، وانقضاء ليالي العزاء الثلاث، اصطحبتني صديقتي الكاتبة إلى الإسكندرية، لأشاهد البحر، وعلى كرسي خشبي، جلست أتأمل الأفق، دون ذاكرة، كأن كل شيء قد انمحى من عقلي، جلست صديقتي إلى جواري صامتة، كنت أغرز أصابعي الحافية في الرمل، حكيت لها عن "العهد"، وأنه انقضى الآن، فهمت ما أحتاج إليه، وعلى منضدة صغيرة إلى جواري وضع النادل زجاجة باردة من البيرة، ارتشفت أول رشفة منها، فاقتحمتني، كحافة حادة، وجارحة.

(٢٦)

لم تقبل كليتي تعييني بها، اجتمع مجلس القسم، ونظر في أوراقي. في السنة الثالثة كثفت جهودي، لأكون الأولى على دفعتي، وفعلت. في السنة الأخيرة، سنة الليسانس، كنت قد عرفت بحقيقة مرض ماما، أو "واجهنا" حقيقته، وكنت أيضًا أشعر بالذنب، لأنها أرجأت علاجها ـشهرًاـ من أجلي. لم تعد خطوة تعييني معيدة في الكلية، مجرد تغيير جذري في حياتي، بعد أن كانت أقصى أحلامي، حين التحقت بالجامعة مرة أخرى، أن أحصل على شهادة عالية، بدلا من الثانوية العامة، التي يعايرني الجميع بها، ولا تسمح لي بالحصول على عمل معقول، كبر الحلم منذ السنة الأولى، بل أكاد أشعر أنه تجاوزني، فسرت وراءه، ثم جريت، ألاحقه، بعدها.

بدا أن تعييني يعني شيئًا من ترضية القدر، قبل أن أبدأ الخطوة الأصعب، علاج ماما، مع شيء من الطمأنينة، التي يجلبها الاستقرار في عمل محترم، لكن "رئيس القسم" وقتها، وهو الأستاذ المهيب، صاحب الأفضال و"السطوة" على الجميع، "أقسم بالطلاق"، ألا أتعين في الكلية، ما دام هو فيها. لم يكن بيني وبينه أي عداء شخصي، كنت منتسبة، أذهب فقط لتأدية الامتحانات، وقلما شاهدوني في المحاضرات، لكنهم شاهدوني "خارجها"، في مهرجانات الشعر، وفي "أفيشات" مسرحيتي، لذا لم آخذ على محمل الجد سخرية تلميذه "الأستاذ المساعد" آنذاك، والذي كان يدرس لي، حين تقابلنا في ردهة الكلية، وكنت خارجة لتوي من

امتحان مادته، وهو يقول: "أوعي تفتكري أنك ممكن تتعبيني، دي لعبة "الكراسي الموسيقية" شغالة في الكنترول يا ماما"، توجست قليلا، وبخاصة أنه رئيس الكنترول، وسألته: "وليه لأ يادكتور؟!" أجابني بصوت، لا أعرف من أين أتى بمرارته: "أنتِ ما بتحضريش محاضرات"، لما أجبته: "بس أنا منتسبة" رد: "برضو مش حنعامل اللي حييجي زي اللي "مبلط" في البيت"، وإزاء كلمة "مبلط" هذه، رددت، ربما بصوت أضعف مما يجب، يشي بالرجاء: " بس أنا مش مبلطة، أنا والدتي عندها (كانسر)". أشاح بوجهه عني باستهانة: "ربنا يشفيها، كل الناس عيانة"! لم أنم في تلك الليلة، وكان امتحان مادته هو التالي، والأخير، لم يكن قلقي نابعًا من تقديره، الذي بات "متوقعًا"، في الامتحان، ولكن من الإهانة، من ضعفي أمامه، من صوتي المرتعش، من نطقي، وأنا أخبره بمرض أمي "بالإنجليزية"، كأنه عار، أو كأنني شحاذ يعرض قدمه المبتورة للمارة، لكن ماما هدأتني، وبعد حوار قصير انقلب إلى نكات من دعواتها عليه، استطعت القفز على الحاجز الأخير، لا بتقدير "امتياز" طبعًا، لكن بجيد جدًا، أضيفت للامتيازات الأخرى، فلم تؤثر كثيرًا في النتيجة.

لكنهم استطاعوا بلعبة "الكراسي المتحركة" أن يأتوا بالخامسة على الدفعة لتكون الأولى بتقدير عام ممتاز، وفارق درجتين بيننا، لم يأتوا بأحد من الأوائل، الذين تنافست معهم، عبر أربع سنوات، ولم تكن صدمتي وحدي، بل صدمة الثلاثة الأكثر تفوقًا، عبر السنوات، والذين كثفوا جهودهم، ليتجاوزوا تقديراتي الأخيرة، ثم تبين لهم، أن ثمة من تُرتب له الأدوار ليأخذ دور البطولة، من وراء الستار.

الوحيد الحزين في مجلس القسم كان أستاذًا عظيمًا، منسحبًا من

صراعاتهم، ومتفرغًا للعلم، أخبرني أنه حزين لأنه لم يستطع أن يصارع من أجلي، لأنه كف عن الصراع منذ وقت طويل، أدرك فيه أن لا جدوى من تغيير مناخ المكان، فتفرغ لعلمه، ولتشجيعي على إكمال المشوار، حتى إن صداقة نمت بينه وبين ماما، يطلبني، ثم يطلب أن يكلمها للاطمئنان عليها، وكثيرًا ما يتحدثان في التليفون حول أحوال الدنيا، إذا لم يجدني، وتحكي لي، بسعادة، عن المكالمة.

هو الذي صرح لي "بحلفان الطلاق" هذا، وبتخوف الأساتذة، بل بثقتهم بأنني "سأفسد أخلاق الطالبات"، وأنني لا أصلح أستاذة جامعية، مغلقين المناقشة: "دي عاملة لنا فيها فنانة، إحنا ناقصين".

لم أكن أدرك أن الأمر برمته كان قد حسم قبلها بعامين، وأنا أهبط إلى بهو الفندق، أثناء مشاركتي في إحدى المهرجانات الشعرية في بلد عربي، كان الأستاذ الكبير في الجامعة المرموقة يقف في شرفة البهو، ألقيت التحية عليه في مرح: "صباح الخير يا دكتور.. بتعمل إيه هنا؟" أجابني: "بأتشمس، مش كفايه ما نمتش بسببك طول الليل؟!" حكى لي، وهو يضحك، كيف أمضى الليلة "يقنع" رئيس القسم في كليتي، و"تابعه" الدكتور، الذي نفذ مؤامرة استبعادي من التعيين، بعدها، بأن يعيدوا ملابسهم إلى الخزانة، بعد أن حزموا حقائبهم، ردًا على "إهانة" منظمي المؤتمر لهم، بدعوة "طالبة" في السنة الثانية للمؤتمر، لتكون "راسًا برأس" أمامهم! أقنعهم الأستاذ، أخيرًا، وبمشقة بالغة، كما حكى لي، أن وجودي هنا بصفتي "شاعرة" لا بصفتي طالبة عندهم! مرت أيام المؤتمر بعدها بسلام، أو هكذا ظننت؛ تجاهلاني، وتجنبتهما، لكن الصدور امتلأت بمرارة مخزونة لسنتين، لم أكن أعرف أنها بقيت تنتظرني حتى

تنفجر في وجهي في السنة الأخيرة!

حُسم الأمر، وتركت المكان كله، وذهبت لأسجل للماجستير، في الجامعة المرموقة، استقبلني فيها الأساتذة الكبار، بجفاوة، تليق بشاعرة بدأ اسمها يلمع في الشعر.



(٢٧)

التحقت بعمل في إحدى المجلات الأدبية الفصلية، وصار لي أصدقاء، وزملاء عمل. أحصل على مكافأة مقبولة كل ثلاثة شهور، وأضعها بسعادة في حجر ماما، في البداية أصرت على أن أحتفظ بها لنفسي، ويكفينا معاشها ومعاشي من أبي، لكنني اعتبرت الأمر منتهيًا، أخذتْ المبلغ في خجل، وأردت تخفيف الأمر عليها، فأخذت أنازعها في قيمة "مصروفي". بعدها صار الأمر عاديًا، نجلس معًا قرب حصولي على المكافأة، لنرتب ماذا سنفعل بها، ونحدد بنود الأشياء، التي نعجز عن شرائها، كان "رمزي" يرسل نقود جرعة اليود المشع، والباقي يتم تدبيره من صديقتي "رئيفة"، وأبناء خالتي، وفي الأيام الفرحة القليلة، وأنا أعود بالمكافأة إلى البيت، ومعها علبة الآيس كريم الكبيرة، التي تعشقها، باغتتها ذات مرة باكتشافي: "ماما، أنا وأنت زوجين سعيدين"، فأمنت على كلامي بقبلة، لكنني لم أنس أن أضيف: "بس يسيبونا فـ حالنا".

(٢٨)

انتهت جرعات اليود المشع، وأثبتت التحاليل أن الورم تمت السيطرة عليه، لم يذهب تمامًا، لكن سنها المتأخر، وقد جاوزت السبعين، يجعل انتشار المرض بطيئًا، حسب ما قال لنا الأطباء. قضينا بضعة شهور هادئة، "كزوجين سعيدين"، تتابع ماما ما أكتب من شعر، بسعادة غامرة، وتعطيني آراءها، وحين لا تعجبها قصيدة، ولا تبدي لها ما أتوقعه من حماس، اعتدتُ عليه، تقول لي بصوت واهن: "يا بنتي أنتِ ساعات تقولي كلام ما بافهموش، أنا كبرت ولغتك بقت صعبة عليّ". لكن هذه لم تكن الحقيقة، كانت القصائد رديئة فعلا، وكنت أتخلص منها، أو أكتب بعدها قصيدة أفضل، تستقبلها بترحاب، بل تصحو من النوم، تفرك عينيها، إذا ما سمعتني "أخربش" على الباب، حتى لا أوقظها، إذا كانت مستغرقة في نوم عميق، فتناديني: "قصيدة جديدة.. خشي خشي.. أنا صاحية.. سمعيني يا حبيبتي.. سمعيني".

في هذا العام لم ينتظر "رمزي" مجيء الصيف، أتى بأسرته كلها إلى البيت، بعد أن ترك العمل إثر مشاجرة، وقدم استقالته من المستشفى، وتوفيرًا للنفقات، ساهمت ماما بالمعاش لتغطية نفقاتها ونفقاتي، وصار للبيت كله طعام موحد، يطبخه "رمزي"، لأن زوجته لم تكن تحب الطبخ، وخصوصًا، أنها ألمحت له أنها لا تطبخ الآن لأسرتها، ولن تعمل "خادمة" لأمه، ولأخته. انهمك "رمزي"، في وضع قوائم أسبوعية للطعام، يطبخه في أوانٍ كبيرة، كالمعسكرات، ويقطع فيها اللحم قطعًا صغيرة جدًا، متباهيًا بقدرته على تمرير الأزمة، فقد يطول بقاؤه، وقد لا

يجد عقدًا جديدًا أصلا، كما قال لي. لم تضج ماما بالشكوى لاحتلال مطبخها، كما فعلت أيام زوجي الثاني، كانت تحب الطبخ، وتصنع أصنافًا من الأطعمة، لا يباريها، أي من كان، في صناعتها، وكنت أحمل الأطباق، في طفولتي، إلى الجيران، فيشيعونني بالدعوات، لها ولي.

لكنها انسحبت هذه المرة في صمت، رغم أنها قبل مجيئهم كانت تتسلى بالطهو، وتعلمني بعض الأكلات الصعبة، التي لم تعلمها لي في طفولتي، لقناعة لديها بأن تعلم الطبخ مسألة تأتي في أي سن، وأن الفتيات خلقن للتعليم، لا للطبخ فقط.

أنا التي كنت أضج بالشكوى، وصارحتها بأنني أكاد أتقيأ من طعم الزيت الرخيص، الذي يضعه أخي في الطعام، كي يداوم على "الريجيم"، في اليوم التالي مباشرة، وجدت صينية في غرفتي، بطعام تفوح منه رائحة المسلي، الذي أحبه، وتفوح منه "رائحة نفَسها في الطبخ"، بعد أن اتفقت مع أخي على استثنائي من الطعام الجماعي هذا، بحسم، كما أخبرتني.

(٢٩)

واصلت ماما كتابة روايتها عن حياتها، ما بين جلسات اليود المشع، تقرأ لي مقاطع منها كل شهر، أو شهرين، فأبدي إعجابي، أحيانًا، وعدم إعجابي، أحيانًا أخرى، تسعدها آرائي في ما تكتب، إذا كانت إيجابية، وإذا كانت سلبية، تسحب الكراسة مني في هدوء، قائلة: "مش مهم تبقى وحشة.. أنا بأكتب لنفسي".

كنت أتنازل عن مطالبي اليومية، إذا ما وجدتها منهمكة في كتابة شيء، أعرف حين تترك الغسيل مبتلا في البانيو، ولا تنشره، أننا بصدد فقرة جديدة من الرواية، لم تكن تبدي انفعالاتها مثلي، تعلمت أن تكتم غضبها، وفي ما بعد، أخبرتني أنها تعلمت ما هو أهم، ألا نجزع، مهما حدث، ظننتها تشجعني، لكن هذا ما حدث بالفعل، في ما تلا حياتنا من أحداث، كانت تتقبلها كما تقبلتها أمها من قبل، تهمس: "يارب"، عرفت أنها تجاوزت حتى وجودها الفيزيقي نفسه، حين دخلت الممرضة ذات يوم، في مرحلة علاجها الأخيرة، لتضع لها "الكانيولا"، ولما أبدت ارتباكها لعدم قدرتها على العثور على شريان لتركيبها، قائلة: "معلش يا حاجة، شكشكتك كتير، استحملي معايا شوية"، ردت عليها، بصوت، لم يعد صوتها، الذي أعرفه: "حاضر.. حاضر يا بنتي، هو أنا بقيت أقدر أقول غير حاضر؟!"، أنا أيضًا صمتت، ولم أستطع أن أدافع عن ضعفها بافتعال مشاجرة، أو بطلب استدعاء الطبيب "فورًا"، كما كنت أرى من نساء أخريات، كن يرافقن مرضاهن، كنا، أنا وهي، حريصتين على عدم افتعال المشاجرات، أو على تكدير علاقتنا الطيبة بالممرضات تحديدًا، ربما كنا نعلم أننا لسنا زائرتين هنا، وأن هذا المستشفى، أو غيره، بيتنا الجديد، بيتنا "المؤجر" وهم ملاكه، ولا ينبغي أن نرفع صوتينا فيه.

في بيتنا، كذلك، لم نكن نرفع صوتينا، إلا نادرًا، فعلتها مرة مع "رمزي"، في إقامته الطويلة الأخيرة، فاعترضت على شيء تافه في البيت، كنت أوجه الكلام لابنته، ظنًا مني أنني عمتها فعلا، ذهبت إلى أبيها وأمها وشكت إليهما تأنيبي، عاد وحده إليَّ، علا صوته، فعلا صوتي، فسبني أمام زوجته والبنات، تركت البيت ورحلت، لأقيم عند "رئيفة" كالمعتاد،

وحين اتصلت بماما، لأطمئنها عليّ، ألحت عليّ بالعودة، وطمأنتني بأنها أعطته درسًا قاسيًا، ومن المؤكد أنها فعلت، لأنه استقبلني بالأحضان، عند عودتي.

لم أتشاجر، أبدًا، مع زوجة أخي، كنا كعدوين صامتين، نبدي بعض الود أحيانًا، ذلك الود "الهش"، الذي ينكسر عند أول منعطف.

لكن ماما، بخلاف الدرس القاسي، الذي تم في غيابي، وتذكير أخي بأنني لست صغيرة، ولا يصح سبي وإهانتي أمام البنات، لأنني عمتهن، ثارت ذات مرة ثورة عارمة، لا تُنسى؛ البيت هادئ، وأنا في غرفتي، أغلقت الباب عليّ، وماما في غرفتها، بباب نصف مفتوح، و"رمزي" يودع أخا زوجته عند الباب، بصوت مسموع: "تحت أمرك يا حبيبي، هو أنا ليا غيرك، ده أنت أخويا الوحيد"، بعد أن أغلق الباب سمعت صوتًا كالهدير، لم أميز من بين عباراته غير: "أخوك؟!.. ده أخوك؟!.. ما لكيش أخ خلاص؟!.. نسيت أخوك؟! نسيت أخوك؟!"، دخلا معًا إلى غرفتها، وهدأها، ولم أخرج من غرفتي، لأتدخل بينهما، ليس فقط كي لا يتهمني بأنني أنحاز لها، أو أصيد في الماء العكر، ولكن لأنني، ورغم ضيقي بعائلة زوجته، وزياراتهم المتكررة، كأن البيت صار بيتهم، شعرت بشيء من التعاطف معه، فلم يكن ذنبه ذلك الاختفاء، الذي قارب العشرين عامًا! ولأنني كنت، أنا نفسي، قد نسيت "أخويا"، خفت أن تلاحظ شعوري، إذا ما واسيتها، رغم يقيني أنها لن توجه لي اتهامًا كهذا، كنت صغيرة حين سافر، بينما كانا متقاربين، كأنهما توأمان.

(٣٠)

على الأريكة الرخامية في حديقة مستشفى "هليوبوليس"، جلست أنتظره. أتاني متهللا، وجلس إلى جواري، سألته عن ماما فأجاب بأنها ترتدي ملابسها، وتنتظرني كي أذهب لآخذها، هممت بالنهوض، مستبشرة خيرًا بوجهه المبتسم: "طمني طيب؟!"، رد: "ما أنا جاي أقول لك الخبر الحلو، ماما مش حتاخد كيماوي، إشعاع بس، ده دكتور عظيم.. عارفة؟ ده واخد..". وقبل أن يسترسل في سرد مناقب الدكتور، سألته بلهفة: "يعني خفت يعني؟.. الورم أخباره إيه؟" لم يرد عليَّ، بدا وكأنه يكلم نفسه: "الحمد لله، الحمد لله، ما أنا ما أقدرش على فلوس الكيماوي، ده أنا ما صدقت كتبت العقد الجديد في السعودية.. لأ ما أقدرش". كأنها طعنة، طعنة فعلية تقلص بها قلبي فيزيقيًا، بهتت، ثم استجمعت قدرتي، أخيرًا، على الكلام: "يعني لو طلبوا كيماوي مش حنعالجها؟!"، نظر إليّ في تحدٍ هذه المرة: "لأ مش حأقدر، أنا زميلي اتخرب بيته عشان بيبعت فلوس لمراته كل شهر للكيماوي، بأقول لك إيه ما يقدرع القدرة إلا ربنا.. كيماوي.. آسف، ما أقدرش".

ذهبت لآخذ ماما، كانت متهللة بالأخبار السعيدة، وبخاصة حين عرفت من الطبيب أن الإشعاع لا يؤلم، قالت باستهانة لتطمئنني، وتطمئن نفسها: "حاجة هايفة.. بيحرق في الجلد بس، وحأدهنه مرهم وخلاص". ثم نظرت لي باستعطاف: "معلش يا حبيبتي، حتجيبيني هنا مرتين في الأسبوع".

هل مات "رمزي" منذ شهر فعلا، أم مات في ذلك النهار، وسَّدته بيدي هاتين، اللتين أكتب بهما الآن، على الأريكة الرخامية، في حديقة المستشفى، ولماذا، إذن، ظلت جثته تغطس، وتطفو طوال كل تلك الأعوام، بعد موت أمي، في قلبي، ولماذا لم أستطع أن أكتب كل ما أكتبه، الآن، إلا بعد أن عرفت بموته؟!

(٣١)

استطعت، أخيرًا، الالتحاق بعمل منتظم، ليس أكاديميًا بالضبط، لكنه بمسمى أكاديمي، حملت لقب "معيدة" إلى ماما، فوزعت الشربات كعادتها، صحيح أنها صارت تستند إلى عصا، وتتحرك بصعوبة، لكن شيئًا في روحها لم يزل يقظًا، يفرح، ويتألم.

لم تعد تسأل عن المسافرين إلى ألمانيا، ولم تعد تنتظر عودته، لكنها لم تصرح أبدا بإمكانية موته، رغم يقيني الداخلي بأن هذا هو تمامًا ما حدث.

لم يطل نقاشنا هذه المرة حول مرتبي، رغم تمنعها في البداية، صرنا نتجاوز أزمنة اتخاذ القرارات، بأسرع مما مضى، أعطيته لها كاملا في يدها، وأعطتني مصروفًا "محترمًا".

جلسات الإشعاع مضجرة، والرحلة، رغم قربها من بيتنا، إلى حد كبير، وانتظار تاكسي يقوده رجل طيب يحملها معي ذهابًا، وآخر إيابًا، يحملني عبء إظهار الشكر والعرفان في كل مرة، لكن الأمور سارت؛

أذهب إلى عملي أربعة أيام في الأسبوع، من مصر الجديدة إلى الهرم، مطمئنة على ماما، بعد أن اتفقت مع جارتي الطيبة أن تطل عليها من وقت إلى آخر. تدهن ماما بعض التقيحات في الجلد بالمراهم، لكنها تشير إلى بضع بقع زرقاء بدأت في الظهور، أخبرها أن هذا عارضًا متوقعًا، وسينتهي بعد الاثنتي عشرة جلسة، ومادام ليس هناك ألم، فلا داعي للقلق، فتوافقني.

الألم، الألم الرهيب، الذي سمعنا عنه، والذي عاشته مع أمها، كان يرعبنا، حتى هذه اللحظة لم تخبُره، حاولنا نسيانه، لكنني ما إن أضع رأسي على وسادتي كل ليلة وأطفئ النور، لا أستطيع أن أنام، أشعل النور من جديد، وأشعل سجائري واحدة تلو الأخرى، حتى أسقط من التعب، ماذا لو أنني سمعت صرختها الآن؟! الصرخة، التي ستكون أول الصرخات، ولن نتمكن بعدها من إيقاف هدير الصرخات المحبوسة كالشياطين في صدرها، ستنطلق، وتملأ كل أرجاء البيت، وتجرفنا، أنا وهي، صوب الجحيم.

في صباح يوم، تلا ظهور البقع الزرقاء، تلقيت اتصالا هاتفيًا من البيت، قالت لي بصوت هادئ تمامًا: "أنا بأنزف. . تعالي بسرعة"، تهاوى صوتها، وأنا أسألها عن التفاصيل، وأدركت أن الأمر لا يحتمل أن أنتظر، نزعت حقيبتي وجريت، دون اعتذار رسمي من العمل، أبلغت زميلاتي بأن شيئًا خطيرًا يبدو وكأنه حدث، في الشارع استغرق الحصول على تاكسي وقتًا، بدا لي كأنه الحد الفاصل بين حياتها وموتها، حين وصلت إلى البيت، كان الدم يتناثر في دوائر واسعة، على أرض الغرفة، وعلى الجدران، صرختُ، فدارت ابتسامة مرتبكة، لا في وهن هذه المرة، وإنما كمن نجا، لا من النزيف فقط، ولكن من إدراكي لخطورة الموقف،

فهمتُ أنها كانت تخاف من أن أتهمها بالتهويل، وحين رأت رعبي، سمحت لنفسها بأن ترتعب هي الأخرى، وهي تشير إلى البقع الصغيرة الزرقاء، وقد صارت ثقوبًا، ينفجر منها الدم كنافورة، ويغطينا معًا.

(٣٢)

هاتفت رئيسي في العمل، لأعتذر عن انصرافي، دون إذن، ولأطلب منه إجازة، لمدة أسبوع على الأقل، أبدى أسفه لما وصلت إليه حالة أمي، لكنه أبدى "امتعاضه" من طول فترة الإجازة، في المساء كنت قد أخذت قراري، وأرسلت له "استقالتي" من العمل.

لم تكن الاستقالة رد فعل مني لتذمره من الإجازة، كنت لا أعرف ما الذي يخبئه لنا القدر، كنت أعرف أنني سأكون، ولوقت طويل، في نفس موقف طلب الإجازة، كلما جد جديد، مشهد الدماء المتناثرة لم يفارقني لأيام، لكن ذلك كله لم يكن السبب الوحيد، لم أكن "معيدة" كما يشير مسماي الوظيفي، كنت أتحرك لأربعة أيام في الأسبوع من مصر الجديدة إلى الهرم، أجلس في مكتب يضم مجموعة من المعيدين، والمدرسين المساعدين، بعضهم يترجم الكتب، التي تصدرها تلك المؤسسة التعليمية، ثم يلقون بترجماتهم أمامي، صفحة صفحة فأقوم بتصحيح لغتها، وإعادة تحريرها. لشدة "دقتي" صرت أتلقى أعمالهم، كما يحررونها للمرة الأولى، دون تنقيح، اعتمادًا عليَّ، أبديت حماسًا حقيقيًا في البداية، إلى حد حمل الكتب المترجمة، إلى البيت لإنجازها بعد العمل، وإلى حد أن رئيسي في

العمل، الذي كان رئيسًا للمؤسسة كلها، وكنا نتبعه مباشرة، كان يرسل لي "الفاكسات" التي تصله، كي أصححها، لتصير "منمقة" و"مرتبة" وهو يقرؤها، أو يرسل لي كلمته في المهرجانات، لأعيد تصحيحها، وتحريرها من جديد.

لم يكن لدينا طلاب، لم نكن نُدرِّس، كان عملنا إصدار "الكتب"، وكان عملي أن تخرج هذه الكتب "جميلة"، بلغة رائقة، وشاعرية، وصائبة.

في الليلة، التي أرسلت فيها بالاستقالة لم أندم، ولم أتراجع، حين هاتفني رئيسي في العمل يخبرني بأنه سيحتفظ بها، ولن يقبلها على الفور، وسيترك لي فسحة للتفكير.

لكنني لم أكن أريد فسحة للتفكير، كنت أعتذر عن مهمة "صناعة الجمال"، "صناعة الأشياء كما ينبغي أن تكون"، عرفت أنني لن أتمكن من صناعة ما يطلبون، سيغلبني كل هذا القبح الذي يحاصرني؛ دماء أمي، رائحة المستشفيات، ورائحة جرحها المتعطن.

اكتفيت باستعادة "معاشي" من أبي، وباستمراري في العمل في "المجلة"، وبرئيس عمل كان يتفهم تمامًا ما يحدث، ويقبل اعتذاراتي، دون سؤال، وزملاء عمل يأتون إلى بيتي بالمكافأة، حتى لو تخليت عنهم في إصدار عدد كامل.

(٣٣)

وضعنا التطور الأخير أمام ثلاثة اختيارات: (١) أن نتركها تنزف

حتى الموت. (٢) أن نجري لها جراحة أخيرة. (٣) أن تتناول جرعات الكيماوي.

لم يكن الخيار الأول مطروحًا بالنسبة لي، بالطبع، ولم يدر بخيالي، اقترحه طبيب الطوارئ، الذي أحضرته من مستشفى قريب، حتى يحين موعد وجود طبيبها المعالج في المستشفى، الذي حولها إلى جراح أورام شهير، حولها بدوره إلى جراح شهير للقلب، حولها، بدوره إلى جراح تجميل شهير، ليتفقوا على عملية سيمارس، كل منهم، دوره فيها.

ذهبنا إليهم جميعًا، أنا، وهي، وابنة خالتي، في هذه المرة كانت تضع ضمادة كبيرة على صدرها مدعمة باللواصق. بعد أن استمع طبيب الأورام إلى ما استقروا عليه من إجراء العملية، أخبرني بأنه من العبث إجراؤها، تصادف أن كان ابن خالتي يقضي إجازته في القاهرة، فاصطحبها، هو وهي فقط، إلى الطبيب الأمهر في مجاله، وحين عادت ماما ظلت تتحدث ببهجة، وانفعال، مؤكدة لي أنه دكتور: "شاطر جدًا.. جدًا"، وأنه علق على رأي طبيبها بعدم جدوى العملية، ساخرًا، ودون اعتبار، هذه المرة، لحصافة الزمالة قائلا: "عدم جدوى إيه وكلام فارغ إيه؟! يقول ما يعرفش يعملها.. وهو فعلا ما يعرفش يعملها.. إحنا حنخرف بقى؟!" حتى حين أخبرته ماما بمخاوفها مما قاله لنا، وأرعبها: "يا حاجة أنت حتحسي بعد العملية بآلام عظيمة"، رد ساخرًا، على كلام زميله، ردًا مفحمًا، واكتست نبرة صوت ماما بالسخرية وهي تقلده، وتردد عليّ ما قاله بنبرة تطمينية: "ما تصدقيش يا ماما. العملية سهلة، وبنعملها عادي.. ومتخافيش.. قولي له الدكتور(..) بيقول لك يا دكتور عيب عليك، إحنا عندنا مسكنات عظيمة برضو يا حبيبي".

بدا وكأن القرار قد اتُّخذ، مبدية تخوفي من موقف "رمزي"، حسم ابن خالتي الأمر: "اخرجي أنت من المسائل المالية دي . . أنا اللي حأكلمه، حنقسم المبلغ، ولو حأدفع أكتر منه".

(٣٤)

لم يتصل بي "رمزي"، ولا بماما، اتصل بصديقتي "رئيفة" من السعودية، وحتى هذه اللحظة، لم ترد أبدًا أن تخبرني بما قاله تحديدًا، كل ما أخبرتنا به أنه قال كلامًا سيئًا، وكان ثائرًا جدًا، على تلك المواقف المحرجة، التي نضعه فيها، و"تحميل" الجمايل، من الناس، وأنه بدا صغيرًا جدًا، وابن خالته يكلمه في موضوع كهذا، ويضعه "أمام مسؤولياته" كأنه طفل.

حين سألته، بعد أن هدأته، عما ينتوي فعله، أخبرها أنه أكثر ميلا لعدم إجراء العملية، وأنهى المكالمة غاضبًا.

بعد أن قلبنا الأمر، أنا وماما، أخذنا قرارًا بعدم إجراء العملية، كان المبلغ كبيرًا، ولم يكن من الممكن أن يدفعه ابن خالتي وحده، حتى لو وفقت لجمع بعض المبالغ من الأصدقاء، لن تكفي لتعويض نصيب "رمزي"، الذي وصل لـ"ثلث" المبلغ، بعد أن تطوع صديق لي بتقسيم المطلوب على ثلاثة: هو، ورمزي، وابن خالتي، وأن الأمر ليس محالا؛ "ثلاثون ألفًا" ليسوا محالا، لكنهم كانوا محالا بالنسبة لي، وبالنسبة لماما، تغير موقفها تمامًا، بعد معرفتها برأي "رمزي"، وبعد أن كانت متحمسة

ومنفعلة، لإجراء العملية، رفضت، تمامًا، إجراءها، بعناد لم أستطع أن أجاريها فيه، تشبثت بخوفها من الألم، أو هكذا ادعت: "طب افرضي كان فيه آلام عظيمة فعلا؟!" ولم أبذل جهدًا كبيرًا أيضًا، توارى حلم الشفاء وراء جدران صلبة، لن نتمكن من اختراقها للوصول إليه؛ جدار خوفنا من الألم، جدار الحاجة، وجدار المجهول الكامن وراءها.

(٣٥)

من وقت إلى آخر تزورنا "دادة سعدية"، ما زال لديّ صورة لها في شبابها، بالأبيض والأسود، بشعر أسود يصل إلى كتفيها، و"بلوزة" أنيقة، ترتديها على "جوب" لا شك أن لونه كان يتسق مع البلوزة، ويتسق مع بشرتها السمراء، وابتسامتها الواسعة، أمام عدسة التصوير. أَخَذْتُ لها الصورة غالبًا في بيت "الألف مسكن"، آخر عهدنا بإقامتها، الصورة في المطبخ، ووراءها الأواني المعدنية، والطاسات، المعلقة فوق البوتاجاز، وإلى جوارها الثلاجة، لم تكن ماما تأتمن أحدًا عليّ إلا هي، ترعاني كأم حقيقية، بحس أخلاقي اتسمت به، حتى في علاقتها بالشباب، الذين يعاكسونها، تأخذني إلى الحديقة، وتطعمني الفاكهة، دون أن تتذوق شيئا منها، لم تكن بها حاجة لهذا، حالنا ميسور في إعارة بابا إلى السعودية، حتى صناديق الشراب، في إجازته، لم تؤثر كثيرًا على حياتنا، اشترت الأسرة تليفزيونًا، واجتمع في البيت الأهل والأصحاب وأبناؤهم، ماما تعد الساندوتشات للأطفال، المنهمكين في المشاهدة، وتعد عشاءً لطيفًا، أو

كيكة، لأهلها وصديقاتها، حتى "دادة سعدية"، وقعت في الحب أخيرًا، لم تستجب لمعاكسات سائق التاكسي، ومطارداته لها، فأعجبه سلوكها، واختارها زوجة، وجاء ليخطبها من بابا وماما، لم تكن على وفاق مع أهلها، فجاءت مصر من قريتها، ولم تكن تريد أن تعمل في البيوت، لكن الحاجة اضطرتها إلى البحث عن عمل، ولما كانت لا تعرف القراءة والكتابة، تحدد المصير.

وسطاء الخير أخبروها أنها ستعمل "مربية" لطفلة في الرابعة، لا خادمة في البيوت، وأن الأسرة ستعاملها كابنة لها، وأن صاحبة البيت سيدة "طيبة" وبنت أصول، وصاحبه رجل طيب وكريم، توكلت على الله، وخاضت التجربة، ولم تندم، وصارت في وقت قصير فردًا من العائلة، حتى أعمال البيت بدت لها كمساعدة لماما، لا خدمة في البيوت، لم يكن لها علاقة بالمطبخ، فماما لا تسمح بأن يشاركها فيه أحد، قد تساعدها في إعداد الولائم، لكن الطهي يحتاج إلى "نَفَس" ربة البيت.

أصر بابا على تجهيزها "من كل شيء"، حتى الأجهزة الكهربائية، أحضرها لها معه من السعودية، وفستان الفرح، أقمنا لها عشاءً أسريًا احتفاليًا، شاركت فيه أنا بالغناء لأم كلثوم، كهدية لها، كنت أتقن أغانيها قبل أن أبلغ السادسة، بشكل استرعى انتباه الجميع، ورغم أن "عمو علي" أخذها مني، كنت أحبه، يحضر لي الشوكولاته وقت الإعداد للزواج، و"يفسحني" في التاكسي، كان لطيفًا، يحب القراءة، ويحشر بعض الكلمات الإنجليزية في حديثه، تضحك ماما لنطقه الرديء، لكنها وافقت عليه، بلا شك، لدماثة خلقه، وثقافته.

رحلت معه دادة سعدية، وسكنا في شقة مؤجرة، رفض أن تستمر في العمل، بدت سعيدة في زياراتها الأولى لنا، يحضرها بالتاكسي إلى ماما، لتمضي اليوم بينما يذهب لأكل العيش، تعطيها ماما "ما فيه النصيب"، وتشكو لها من فراغ البيت منها، وتحملها العبء كله، لأنها لم تجد أحدًا في أمانتها، ونظافتها، وإخلاصها، فتساعدها أثناء اليوم، بشيء من التكاسل، اضطرت للتخلي عنه، وإبداء الهمة القديمة، بعد أن صار يتركها "بالأيام" عندنا، لضيق ذات اليد.

أنجبت منه ولدًا، وبنتًا، الولد كان أخي الصغير، والبنت ما زالت رضيعة، حين سافر للعمل بالعراق، طمعًا في تحسين الدخل، بعد أن صار لهما أبناء. تنتظر المبلغ الشهري منه، وشريط الكاسيت، يبث فيه أشواقه، وأحزان الغربة. تناقص المبلغ الشهري، وتباعدت مواعيد إرساله، ولم يعد يرسل لها الشرائط، يومًا بعد يوم، حتى اختفى تمامًا. ضاق بها الحال، وكان قد ضاق بأسرتنا، فلم يكن من الممكن أن تعود إلينا، توسطت ماما لها عند الأقارب، الذين يعرفونها جيدًا، بيتان، أو أكثر، يقبلانها بالولد والطفلة الرضيعة، دون غضاضة، ويُحمّلانها ما تيسر من الطعام والملابس. مرت سنوات وعرفتْ أنه تزوج من "عراقية"، ويعيش حياته هناك. كانت صدمتها مروعة، تُبكيها ليلا ونهارًا، حتى وهي تتوعده حين يجيء، لكنه آثر السلامة، في ما يبدو، ولم يأت أبدًا، إلا حين كبر الأبناء، وشاخ هو نفسه. خلال تلك السنوات المريرة لم يعد من الممكن أن تكتفي بالبيتين، صار لها "زبونات"، تحكي لنا عنهن، عن الكريمات منهن، وعن البخيلات، وتحكي، أيضًا، عن آلام الروماتيزم، ونوبات الكلى، التي تضربها بعنف، من أثر التعرض للماء الساقع أثناء التنظيف في الشتاء.

تغيرت كثيرًا، لم تفرط في "شرفها"، ظلت على ذمته، حتى بعد أن انتقلت بولديها، من الشقة، توفيرًا للمصاريف، لتسكن في غرفة، بسقف من البوص، في "عين شمس" لتكون قريبة من زبونات مصر الجديدة. غرفة ذات حمام مشترك، يشاغلها، وهي ذاهبة إليه، وعائدة منه، أزواج النساء المشتركات معها في البيت، اللواتي كن يضقن بها، لكنه ضيق لم يصل لمرحلة الصدام، لأنهن يعرفن أنها "دوغري" و"في حالها"، و"عايزة تربي العيال"، كما كانت تحكي لنا، وبخاصة أنها ارتدت جلابيب واسعة، وخمارًا، وواظبت على الصلوات، مغلقة بابها على العيال إذا ذهبت للعمل، ومغلقة بابها عليهم جميعا حين تعود، ولولا الحمام المشترك لما رآها أحد.

صارت ماما تضيق بها كلما زارتنا في مرضها الأخير، تشكو لي من الصداع الذي يسببه لها "رغيها" الذي لا يتوقف، في موضوعات تافهة عن الزبائن، لكنني أنتظر في نهاية الحديث الشكوى الحقيقية: "دي حتى سايبه لي كوباية الشاي، اللي شربتْ فيها عشان أغسلها"، حين أبدي تعاطفي معها: "يا ماما ما هي هلكانة طول الأسبوع تنضيف"، تعرف أنها لن تكسب معركتها معي، فتقول لي: "هو أنا قلت لها تنضف البيت يعني؟! دول طبقين في الحوض ما يخدوش خمس دقايق". أذهب لأغسل الطبقين إرضاءً لها، وهي تزجر: "أنا مش عايزة حد يزورني. أنا عيانة ومش ناقصة زيارات"، كانت تعرف كم أحبها، فتنتهي الشكوى عند هذا الحد، وتغير الموضوع.

بعد زيارتها الأخيرة لماما، وأثناء اتخاذ قرار إجراء العملية الخطيرة، عدت إلى البيت فلم أجد الأطباق مغسولة كالمعتاد، ووجدت كوب شاي

دادة، التي صرت أطلق عليها "دودي"، منذ زمن طويل، تجنبًا لإحراجها، هي والعيال، ما زال في مكانه، توقعت أن ماما لم ترفعه من مكانه، حتى أجيء، وأدفع الضريبة المعتادة للزيارة، وقبل أن أرفع الكوب طالبتني بالجلوس، أولا، لتحكي لي، وهي تضحك بعصبية، وتقول: "المجنونة بتقول لي إن ممكن ييجوا يعملوا لي العملية، وياخدوا سبع تلاف جنيه بس". سألتها في ذهول: "مين دول؟!" استمرت في الحديث، كأنها لم تسمعني: " قال شيخ وجن قال، وييجوا ويكون البيت فاضي وأنا لوحدي، وأضلم الأوضة، ومش حأحس بحاجة، زي ما يدخلوا زي ما يخرجوا وحأخف بعدها". ثم أشاحت بيدها: "أهو ده اللي كان ناقصني، حد يقول لي الكلام الفارغ ده، أنا حأصدق كلام الجهل ده، قال شيوخ وعفاريت قال؟!" شاركتها الضحك، لكن شيئًا ثقيلا هبط في قلبي، تركتُ نور الصالة مضاء في الليل، وحين دخلت كي أنام، سمعت دقات ماما على باب غرفتي، كنت أتوقعها، بل كنت أريد أن أسمعها، وأنا أفكر في ذلك الشيطان المجهول، الذي اكتمل نموه في صدرها، سألتني في خجل: "ممكن أنام جنبك النهارده يا حبيبتي؟" أنا، أيضًا، كنت أحتاج إلى أن أنام في حضنها، تعانقنا، ووضعت رأسي على صدرها، واستغرقنا في النوم، تاركين، للمرة الأولى في حياتنا، نور الغرفة مضاء طوال الليل.

(٣٦)

خيار "الكيماوي" لم يعد "خيارًا"، بعد زيارة أحد الأطباء المشهورين

في معهد الأورام، كانت زيارتنا الأولى للمعهد، والأخيرة، بعدما اكتشفنا "النعيم"، الذي ظللنا في مستشفى المقاولين، أمضينا يومًا بين المرضى كأنه كابوس حقيقي، وأنقذت ماما، بصعوبة، وهي تجلس على كرسيها المتحرك، من الطبيب، وحلقة تلامذته حوله، يشرح لهم في الردهة "الحالة"! بدت لا حول لها ولا قوة، تطأطئ رأسها، وهي تغمغم، غالبًا بآيات قرآنية، دخلت بينهم، وأزحت الطبيب وحلقته، وعدوت بها إلى سيارة "رئيفة".

لكنني حصلت هناك على طبيب آخر، عيادته على بعد بضع محطات مترو من بيتنا، كان من بين ثلاثة أطباء تأملوا حالتها، ثم انسحب اثنان، للاجدوى، كان من بينهما، وبقي الثالث، الذي وقف يشرح لطلبته على جسدها.

ذهبت إلى عيادته في المساء نفسه، وانتظرته على السلم، حتى أتى، ذكرته بأنني كنت مع "الحالة"، التي أتت صباحًا إلى معهد الأورام، فتذكر، طلبت منه علاجها فرفض محرجًا، ركبت معه المصعد، وألححت في الرجاء، حين وصلت للدور الرابع توسلت إليه: "أبوس إيدك يا دكتور.. اقبل الحالة". قبلها بشرط: "بس ما أقدرش أضمن لك النتائج"، وافقته فرحة، وحددنا موعدًا للجرعة الأولى، فاجأت به ماما حين عدت، وجلسنا معا نشاهد التليفزيون، بعد أن اتفقنا على أن نبدأ من جديد، وأن ننسى كابوس معهد الأورام للأبد.

(٣٧)

أخبرت "رمزي"، عبر عائلة زوجته، بالتطور الأخير، لم يزل غاضبًا، ولا يكلمنا، لم يكن الفرق كبيرًا، فنادرًا ما كانت ماما تتلقى مكالمة منه، حددتُ له المبلغ المطلوب، الذي بلغ ثلاثة أضعاف، ما كان يرسله لليود المشع، لكنه أرسل لي ما كان يدفعه دون زيادة. اجتمعت خالتي مع أبنائها، ووفر لنا ابن خالتي ثلثي المبلغ الناقصين، مع تعهد بالالتزام طوال فترة العلاج، ومبلغ آخر، اشترك فيه مع خالتي، ابن خالتي الكبير للمصروفات النثرية.

لم نزل نتمتع بتخفيض نقابة الأطباء، ولم نزل نتمتع، كذلك، بوجود الطبيب الجديد بين جماعة أطباء المقاولين العرب، فعدنا إليها، بغرفة لشخصين هذه المرة، دون نقاش، توفيرًا للنفقات. لم تعد ماما تشكو من رفقاء الغرفة، فلم تكن تمضي فيها، إلا يومًا واحدًا، يضعون لها المحلول في أكياس بلاستيكية، ونعود آخر النهار، وتجنبا للمضاعفات الناجمة عن الكيماوي، اقترح عليّ الطبيب دواءً يمنع التقيؤ، يقرب ثمنه مما يدفعه "رمزي"، لكنني استطعت توفيره لها بحسبة محكمة، اشتريت شريطًا للأقراص في الدفعة الأولى للنقود، ولم أعطها سوى قرصين منه، في اليوم الأول للجرعات، والثاني، ولم تكن تحتاج إليه بعدها، فأدخره للجرعة التالية، وهكذا.

أدركت أهمية الدواء، ذات جرعة، لم يكف المبلغ، الذي معي، لشرائه، فاقترح الطبيب أن تتناول أحد أقراص موانع التقيؤ المعتادة، لم

نتم طوال الليل، ولم أكرر التجربة أبدا، أشتريه قبل الجرعات، كأنه جزء منها، كنت، أيضًا، قد استمعت لنصائح الممرضات، المتعاطفات معنا، بعد الجرعة الأولى، اللواتي نصحنني بأن أشتري الجرعات من إحدى الصيدليات الشهيرة، لأن المستشفى تبيعها بسعر أغلى، ففعلت، ورغم رعبي وأنا أعود بالزجاجات، كي لا أتعثر مثلا، فأسقط، وتسقط الزجاجات على الأرض، وتنكسر، فإن الأمور مرت في سلام.

تعلمت، كذلك، أن أغير لماما ضمادات جرح صدرها، توفيرًا لنفقات الممرضة، أجهز "العِدَة" كما كنا نسميها، من مقصات، وأربطة، وشاشات، ومطهرات، وأنظف الجرح. تجاوزت رعبي من أول مرة، حين رأيت زوائد لحمية تخرج من الجرح، اصطدمت بها يدي فتقطعتْ، فطلبت الطبيب، وأنا أرتجف، لكنه طمأنني بأنها زوائد ميتة، والمفروض أن أزيلها. كان الجرح بحجم عملة معدنية، كأنه ممر طويل، تبين من ورائه عظامها، لكنني اعتدت عليه بعد أيام، وسعدت جدًا حين مدح الطبيب دقتي، التي فاقت كل توقعاته، في تنظيف الجرح، وكأنني "طبيبة محترفة"، فأخبرته بحلمي القديم في دخول كلية الطب، وبأننا نحمل أحلامنا معنا، بصورة ما.

أحيانًا، كنت أضيق بعملي اليومي هذا، الذي تنهمر عليَّ فيه دعوات ماما، وأنا أقوم به، والذي استمر لستة أشهر، فأتغاضى عنه ليوم، مع ترحيبها، لكنني حين كنت أرى، في اليوم التالي، الدم الأزرق الفاسد يغرق الضمادة وجلبابها، أشعر بالذنب، وهي تشكو لي بأن رائحته لم تنمها طوال الليل، فأعدها بألا يتكرر هذا الإهمال، وبالفعل كان نادرا ما يتكرر.

لكنني كنت أغضب، أحيانًا، حين نجلس لنشاهد التليفزيون معا، وأحاورها عن المسلسل، فتستغرق في نوم عميق، بل إن صوتي علا مرة لأنها طلبت مني أن أتركها تنام، لأن المسلسل "سخيف". غضبت منها، وأخبرتها بأنها "تنكد" علينا، فغضبت، هي أيضًا، وطردتني من الغرفة، وحين صرت وحدي أشفقت عليها، وأدركت أنني كنت أريد أن أستعيدها، لم تكن تلك السيدة النائمة طوال الوقت تشبه أمي، حتى حين كنت أضع رأسي على صدرها، لألعب دور "طفلتها"، فتربت على شعري، كنت لا أطيل مكوثي في حضنها، كان شعوري بأن ما أسند رأسي عليه "ورم سرطاني" يفزعني، فأنسحب بلطف، متذرعة بأنني لم أعد طفلة، كي لا أجرحها، هي الأخرى، لا شك كانت تدرك هذا، فلا تعيدني إلى صدرها.

لم تكن شجاراتنا تطول، أو تصل إلى الخصام، في تلك الفترة، على أية حال، ففي الصباح ينتهي كل شيء، صار الخصام "ترفًا" لا يمكننا أن نتعامل معه، وسرعان ما ننساه، بالتظاهر كأن شيئًا لم يكن، أو بأن تمنحني ماما جلبابًا جديدًا، أهدته لها خالتي، مجازفة بغضبها منها، لأنها تنازلت لي عنه، وهي تقول "أنا قلت ده حيبقى حلو عليكِ قوي"، فآخذه بفرحة، وأرتديه، متحملة، بدوري، امتعاض خالتي، حين تشاهده عليّ.

في الشهور الأخيرة لعلاجها، أهدتني صديقة لي كرسيًا متحركًا، فأقنعتها، بصعوبة، أن نخرج لنتمشى معًا، سرنا في الممشى القريب من بيتنا، استقبلها الجيران، وبخاصة من لم يزوروها "لأننا مش قادرين نشوفها كده"، كما أخبروني، بترحاب حقيقي، كانت فَرِحة في المرة الأولى، لكنها عاندتني بعدها، وظلت صامتة طوال الطريق، لا ترد عليّ حين أشير إلى ما

يمر إلى جوارنا، محاولة افتعال أي حوار ممكن، ينحني رأسها على الضمادة النظيفة، وقد سقط عنه شعرها تمامًا، وترفعه، أحيانًا، لتتأمل ما حولها صامتة. كففت عن محاولة إقناعها بالخروج، بعد أن صرحت لي بأنها لا تريد أن يراها أحد، وهي على هذه الحال، ووعدتني بأننا حين "نعود إلى حالتنا الطبيعية"، سنخرج معًا ثانية! عند عبارتها الأخيرة تلك انفجرت في ضحك هستيري: "حالتنا الطبيعية؟ نرجع لحالتنا الطبيعية يا ماما؟!"، هي، أيضًا، ضحكت، على وعد مني، بألا أخرجها إلى الشارع، مرة أخرى.

(٣٨)

أتى "رمزي" أثناء علاج ماما في زيارة قصيرة، وبعد ثورته على إجراء العملية، بأشهر عدة، أقام هذه المرة عند أهل زوجته، تقابلنا أنا وهو ببرود، وبدا لي أن إقامته هناك كانت لتجنب أن يلتقي مصادفة بخالتي، أو أحد أبنائها، أو لتجنب التورط في رعايتها، بشكل يومي. أحضر معه كمية من أكياس "المكمل الغذائي"، الذي كانت ماما تحتاج إليه لفقد شهيتها، وجلس معها منفردين لساعة، قبل أن تلاحقه زوجته بالتليفونات، ثم مضى. بقيت لماما جرعتان، من الست جرعات، أعطاها مبلغًا بسيطًا من المال فرحت به، ووعدها بزيارة قريبة.

بعد إتمامها الجرعة الخامسة، صارت كشبح يتوكأ على عصاه ليدخل الحمام، تجعلها المسافة القصيرة في الشقة الضيقة تلهث، فترتاح قليلا على أقرب كرسي تقابله، وأحيانا تناديني لتستند عليّ، في الليل عادة ما أجلس

على كرسي قبالة سريرها، لأقرأ بعضًا من الشعر، الذي أعد عنه رسالة الماجستير، وفي المستشفى أجلس الساعات أمامها لأكتب شعرًا.

أزيح أحيانًا الأوراق، فتسألني عن أخبار المذاكرة، فأخبرها بأنها تسير، ومرة قلت لها: "ماجستير إيه يا ماما، اللي زيي معندوش الترف ده"، لكنها لم تكف عن سؤالي، وعن تكرار بأنها ستحضر المناقشة "ولو رحتها بأزحف". كنت أقرأ لها بعضًا مما كتبته عن المستشفى، في البداية تحرجت، حتى لا أؤلمها، لكنها أصرت، تستمع إلى فقرة فقرة، وتهمس: "الله"، كأن الشعر يمنح الرحلة معناها، أو كأنها وثقت أن شيئًا سيبقى لي، وعنها، بعد رحيلها.

(٣٩)

هوت في ليلة، ولم تستطع النهوض، اتصلت برئيفة فأتت وزوجها على عجل، حملها الزوج، وجرينا بها إلى مستشفى قريب، اتصلت صديقتي بطبيب القلب، الذي كانت تعالج أمها عنده، وحضر إلى المستشفى، كان قلبها قد تهاوى، وضعناها في حجرة، ووضع زوج "رئيفة" أمامي لفة من الورق، حين فتحتها وجدت بها مبلغًا كبيرًا من المال، احتفظت به سرًا، لأنفق منه على أية مستجدات في الموقف.

لم يكن من الممكن استكمال جرعات علاجها، حضر "رمزي"، وسافر مسرعًا، بعد بضعة أيام نصحني الطبيب، في رقة بالغة، بأن أعود بها إلى البيت، أكرم لها، ولي.

(٤٠)

لا أدوية، لا جرعات، لا شيء سوى الانتظار، لم أنتظر طويلا، لم تمض أيام حتى بدأت في الهذيان، هذيان لا يتوقف، لا تهدأ، تتحدث طوال الوقت، لا تنام، تصرخ، وتجري إلى الشرفة "حريقة. . حريقة"؛ فأهرع وراءها، وأنادي جارتنا تمسكها معي، كأن قوة مختزنة تفجرت في جسدها، نسيطر عليها بصعوبة بالغة، أهدئها، وأقنعها، بأن لا حرائق هنا، وأثبت لها أنني أمامها، ولا أحترق، ثم آخذها إلى فراشها، وأضع رأسها على ركبتي، وأهدهدها حتى تنام كطفل، وهي تبكي.

لم أنتظر طويلًا. . بعدها بأسبوع. . غابت، لشهرين، وصارت محض جسد يتمدد أمامي، وأنا أجلس أمامها، أترقب يد الموت، وهي تمتد لتلتقطه.

(٤١)

لماذا نكتب الشعر؟! لا لشيء إلا لكي نُحتال على العقبات الصغيرة في حياتنا، هكذا كنت أحدث نفسي، وأنا أحاول صنع حامل للجلوكوز، أحضرت كرسيًا صغيرًا، وثبتت عليه عصا مقشة، وربطتها فيه جيدًا، ثم علقت كيس الجلوكوز، فرحتي كانت عظيمة، قلت لنفسي بفخر: "هكذا يفعل أي روبنسون كروز". لم تكن تدري شيئًا، أنا نفسي، كنت لا أفكر إلا في تغيير أكياس الجلوكوز، ومحلول الملح كلما فرغت، لم أعد أنظر إليها، كأن هذا الجسد الممدد أمامي، قد تم اختزاله بالفعل، في

تغيير الكيس الفارغ بالكيس الممتلئ، بدقة متناهية، كأنني صرت عقارب ساعة، محض زمن، زمن خالص، يحاول أن يجد له مكانًا، في اللازمن، يحاول أن يكون إطارًا، للاجدوى.

لم تفق إلا مرتين، مرة صرخت فجأة: "أخوكِ مااااات"، ثم عاودت غيبوبتها، ورغم فزعي من صرختها، لم أفزع من الحقيقة، التي توصلتْ إليها. كنت موقنة، منذ سنوات، بأن موت "راجي" مؤكد، ولابد أن شريط حياتها يتحرك أمامها الآن، كنا في الفجر، فنظرت من شباك غرفتها، ولمحت عصفورًا صغيرًا يتقافز على الأغصان، بدت الحياة هادئة خارج الغرفة، ذات إيقاع، وحلا لي الجلوس، طوال غيبوبتها، على هذا الكرسي إلى جوار الشرفة.

المرة الثانية؛ قرب موتها، أفاقت فجأة، ونادتني، لم أصدق، جريت إليها، طلبت جرعة من الماء، وشربت، سألتها: "راضية عني يا أمي؟" فأجابت، وهي مغلقة عينيها، بصوت ضعيف: "طبعا يا حبيبتي"، يومها حدثت كل صديقاتي، هاتفيًا، وأخبرتهم أنها عرفتني، وأنها راضية عني.

دعوت الله يومها ألا أراها تموت، ونقلتها بمساعدة أحد الأصدقاء من إستوديو جدتي إلى سريري بجوار الشرفة، بعد أن اشتريت لها مرتبة طبية جديدة تنفخ بالهواء، كي تحمي المرضى من تفاقم قرح الفراش، كان الجو حارًا في أواخر يوليو، نظفت الجرح، وغيرت لها لفافة "البامبرز"، ولفافات قرح الفراش، مر عليّ أحد الأطباء الأصدقاء لأنني أخبرته بانتفاخ بطنها، بشكل غير عادي، وضع لها "القسطرة" وسمعتها تقول:

"آه"، لكنها لم تكن صيحة ألم، بدت لي صيحة راحة، خافتة، كأنها تتخلص من عبء ثقيل، عاد بطنها بعدها إلى حالته.

ضبطت المنبه، وعلقت الجلوكوز، واطمأننت إلى أن المرتبة الجديدة تعمل جيدًا، جلست إلى جوارها أحدثها حديثًا طويلا؛ أخبرها كم أحببتها، وأخبرها أنني سأظل هنا في مكاني حتى لو أمضيت عمري كله، ولم أنس في نهاية الحديث أن أحذرها ضاحكة: "بس يا ريت ما تعمليهاش بكره بقى عشان ده عيد ميلادي". خيل لي أنها تبتسم، قبلت جبينها، ونمت على مرتبة على الأرض، جوار سريرها.

نمت بعمق حتى الصباح، لم أكمل، ساعتين متصلتين، من النوم طيلة الشهور الماضية، أنتفض لأطمئن عليها ما إن أغفو، في تلك الليلة غبت أنا أيضًا، وصحوت على انقطاع الكهرباء في الصباح، لم أنظر إلى ماما ملهوفة، هذه المرة، نظرت إلى المرتبة المدارة بالكهرباء، فوجدتها تهبط، ويخرج منها الهواء، في صفير متصل، حاولت النهوض، لكن سحابة سوداء كانت تتحرك في الغرفة كلها، سحابة كأنها دوامات متلاحقة، بدت الغرفة وكأنها مزدحمة، كأن كائنات غير مرئية تعجل بإتمام مهمة، لكنني نهضت في النهاية، بعد أن هدأ كل شيء، كان رأسها يميل بعيدًا عني، فمها مزمومًا، كعازف ناي، عيناها مغمضتين، ووجهها لا أثر فيه لتلك التقلصات، التي انتابته أخيرًا، هادئة تمامًا، نظرت إليها بهدوء، وقبلت جبينها، لم يكن باردًا، وضعت رأسي على صدرها، وعرفت أنها ماتت.

(٤٢)

سألني "رمزي" عن ماما، تليفونيًا، قبلها بأيام، أخبرته أنها تحتضر، فوعدني بالمجيء فورًا، كنت قد أحضرت لها في الشهر الأخير فتاة بأجر تجلس بجوارها بضع ساعات بالنهار لأغفو قليلا، وأستطيع أن أواصل باقي اليوم، والليل معها، حين أتتني مكالمة "رمزي" أخبرت الفتاة أنني سأنام قليلا، ألقيت بجسدي على الفراش، ولم أشعر به، كأنه تخدر، صحوت متأخرة عن الموعد المتفق بينها وبيني، فاعتذرت الفتاة طالبة أجرًا إضافيا لتكمل، فصرفتها، وقررت المضي وحدي، بعدها أتتني مكالمة منه يعتذر عن عدم الحضور، لأن "الكفيل" أخذ جواز سفره، كنت أعلم أنها "خدعة" فعلى مدى السنوات الطويلة، التي أمضاها في السعودية، كان يأتي وقت أن يحب، ويرحل، وقتما يشاء.

تلقيت منه مكالمة أخرى، في ليلة العزاء، عرف الخبر من حميه، كنت عائدة من دفنها، ظل يبكي، ويسألني: "هي ماما ماتت.. طب دفنتوها؟" ظللت صامتة، وهو يقول لي: "أنا حأعمل لها عمرة"، وحين سألني: "طيب أنزل بكره؟" رددت عليه، بالهدوء نفسه، وبالمرارة نفسها: "لأ خلاص.. ما لوش لزوم".

انقطع ما بيننا، عاد بعدها بثلاثة شهور، استقبلته، وأسرته، عائلة زوجته، في المطار، وأتوا به إلى البيت، كنت قد رفعت سرير ماما، وجعلت غرفتها غرفة استقبال للمعزين، دخلت العائلة كلها، جلسوا يتجاذبون أخبار الحياة، في غرفتها، وبعد أن مضوا بالأطفال ليبيتوا معهم، دخل

"رمزي" مع زوجته إلى غرفته، ليناما، سمعتهما، وأنا ذاهبة إلى الحمام في الليل يتطارحان الغرام، فأغلقت بابي عليّ، ولم أخرج من غرفتي، إلا للضرورة.

الزيارات تتوالى من أسرتها على البيت، وفي الليل، حين يجلس هو وهي في غرفتهما على السرير، يناديني لأجلس معهما، فأعتذر، حاولت مرة حين أخبرني أن فيلمًا جميلاً يعرض في التليفزيون الآن، نمت إلى جوارهما على الفراش، وحين التفت إلى مداعبًا: "لأ.. بلاش تنامي في النص، مراتي تزعل". قمت بحجة أن النوم قد غلبني.

لم يسألني، ولو مرة، أين دفنت أمنا، لم يتحدث عنها إطلاقًا، كأنها لم تكن هنا منذ ثلاثة أشهر، وحين دخل غرفتي، ذات مرة، ووجد زجاجة شراب إلى جوار سريري، توقعت درسًا في الأخلاق، لكنه تجاهلها ثم قال لي بهدوء: "أنا خايف على صحتك".

أمضى ما يزيد عن الشهر هذه المرة، تأتي صديقاتي فنجلس في غرفتي، رفضت خالتي أن تزور البيت في حضوره، لكن ابنة خالتي اتصلت به هاتفيًا ذات يوم وسألته متى سيسافر؟ فرد عليها، بعداء لم تعتده منه، عرفت منها أنه سيسافر بعد يومين، قبل سفره بيوم تركت باب غرفتي مواربًا، ربما يأتي، ويتحدث إليّ، لكنه أغلق باب غرفته عليه، وعلى زوجته، في الصباح صحوت ولم أجده.

(٤٣)

يندهش أصدقائي حين أخبرهم بأنني أفكر في بيع بيتي، أحيانًا، لشراء مقبرة، وأنني لم أشتر بيتًا واسعًا، إلا كي أستطيع بيعه في يوم من الأيام، إذا ما مرضت، كي لا أحتاج لأحد. تؤرقني فكرة موتي، أكثر مما تؤرقني حياتي نفسها، لم يكن دفن ماما إلى جوار أمها في مقبرة العائلة أمرًا هينًا، انقطعت ماما عن عائلتها طويلا، إلى حد أن أحد شباب العائلة، المتولي أمر المقابر رفض تمامًا دفنها هناك لأنه ـ ببساطة ـ لا يعرفها.

كنت قد أعددت أشياء كثيرة قبل موتها، حسب ما نصحتني صديقاتي، وضعت نقود الكفن، ومصاريف الدفن، والجنازة، مما تبقى من نقود العلاج، في كيس مخصوص، ولم أمسها، وضعت صديقاتي لي كشفًا بالمهام المتالية، حين تموت، حتى لا أرتبك، أعرف من الورقة بمن سأتصل أولا للتأكد من موتها، من سيتولى إجراءات تصريح الدفن، والاتصال بالمغسلة، كنت أتحرك فعليًا، بعد أن رأيتها ماتت، "كالروبوت"، يتبع الورقة بتفاصيلها، لكن مسألة دفنها ظلت عقبة حتى قبيل موتها المتوقع بعدة أيام.

رفضت اقتراح زوج "رئيفة" باستضافتها في مقبرته، التي اشتراها حديثًا، بعد أن أخبرني أنها "شرعية" ستدفن فيها، ويهال عليها التراب. سألت ابنة عمتي عن مقبرة أبي فقالت لي إن مكانها الآن عمارة شاهقة. لم يكن ابن خالتي الأكبر متحمسًا لفكرة دفنها في مقبرتهم، المبنية حديثًا، لأنه كان يرى أن أمه على وشك الموت هي الأخرى، حدثت خالتي، بجدية، في

ضرورة تدخلها لدى العائلة، كانت ما تزال حريصة على بعض العلاقات فيها، تزورهم باستمرار، وتنتمي عاطفيًا لهذه الجذور البعيدة، اتصلتْ بإحدى كبار العائلة، وتم إقرار دفن ماما هناك، مع الإشارة إلى عدم إمكان دفن أي أحد من أبناء العائلة بعد الآن، لأنها تكدست بالموتى.

شعرت بسعادة بالغة حين وافقوا، وحين رأيت المقبرة تملكني الزهو، برخامها الأنيق، تحيط به الزهور المروية حديثًا، وشواهدها المكتوبة بخط جميل، سأل "التُربي" بصوت عال: "فين ولادها؟!" كنت أستند إلى ذراع إحدى صديقاتي، حين أجبت: "أنا.. أنا بنتها"، لكنه تجاهلني قائلا: "لأ. الحريم ما بينزلوش تحت". انبرى اثنان من المشيعين وحملاها، ونزلا بها. وشعرت بالراحة، لأنني كنت اتفقت معها قبل موتها ألا أهبط معها إلى المقبرة، فأجابتني الإجابة نفسها: "النساء لا يهبطن إلى المقابر".

كان ذلك في عام ١٩٩٤، أتممت السادسة والثلاثين من عمري، في يوم موتها، وعيد ميلادي، أودعتها هناك، ولم أزرها بعدها، حتى اليوم، عللت هذا بأنها كانت ترى أن زيارة المقابر عبثًا لا جدوى منه، أحيانًا تنتابني الرغبة لأن أبحث عن مقبرتها، لكنني أقرأ الفاتحة، كلما مررت من هناك، على أية حال، وأدعو لها بالرحمة. وأكتفي بأن أعبر الطريق بسيارتي، إلى جوارها، وأنا أحاول أن أخمن موقع البقعة، التي أودعتها فيها.

(٤٤)

يردد أخي، دائمًا، أمامي، بأنه "أضاع مستقبل زوجته". لا أعرف

إن كان يردد هذا الكلام أمامي، فقط، أم يقتنع به بالفعل. كففت منذ مرض ماما عن أن أتلمس حقائق ما يقوله، بل إنني صرت أتوجس، كلما ابتسم في وجهي، لتوقعي، بعدها، أن يطلب مني شيئًا.

حين كانت في الثانوية العامة أمضى الليالي الطويلة، وكانا مخطوبين، يعد لها "البراشيم" بخطه الصغير المنمق، يشرح لها الخطة، كي لا يضبطها أحد المراقبين، ويستغرقان في الضحك، يبحث عن "قطتها" ليلة بكاملها، لأنها خرجت من البيت، ولن تذهب إلى الامتحان، دون العثور عليها، سؤالها كلما طلب منها شيئًا: "بكام؟" يبعث فيه البهجة، ليثني على مهارتها في التعامل مع النقود، وفي مساومته. استطاعت أن تدخل كلية الآداب قسم الفلسفة، واستمر في عمل "البراشيم" بالدقة نفسها، ثم أتاه عقد السعودية فتركت دراستها، ورحلت معه، ظلت تأتي لعام، أو عامين، لمصر لتدخل الامتحان، ثم تركت الأمر، برمته.

كان في طفولته يهوى الرسم، كراسة الرسم الخاصة به مثار تأمل العائلة كلها، وإعجابها، يستغرق مع أصدقائه ليصنع لي مجلة الحائط بمدرستي الابتدائية، كانت الأجمل دائمًا، يبتكر فيها كل مرة شيئًا جديدًا، يرش الألوان عليها فتبدو كخلفية ساحرة، طالما جلست مبهورة إلى جواره، وهو يصنعها، وحين تسألني المدرسات عن الفنان، الذي صنعها لي، أقول بفخر: "أخي الكبير".

حين أنهيت دراستي في الكلية أتاني مهموما، ومرددًا العبارة نفسها، أنه أضاع مستقبلها، وأضاف إليها هذه المرة: "إحنا بنفكر ترجع تاني الجامعة، وتدخل قسم عربي زيك"، لم أندهش، رغم أنني لم أكن

أتوقع هذه الرغبة تحديدًا، كنت أظنهما قد نسيا الأمر، كلما تزايد الذهب في عنقها، ويديها، بدا الأمر لي "نكتة"، لكنني أبديت تعاطفي أمامه، وشرحت له أن قسم اللغة العربية ليس سهلا كما يظن، وأيًا ما كان الحال، فأنا على استعداد لمساعدتها في التقديم والمذاكرة، إذا أرادا، فوافقني مبتهجا. لكنه عاد إليّ، بعد أيام، ليخبرني ضاحكًا أنه يوافق زوجته تمامًا في رأيها في عائلتنا، التي تؤكد أنهم عائلة من "المجانين".

انتهى الأمر عند هذا الحد، ولم يثر النقاش حوله مرة أخرى، إلا بعد حصولي على الماجستير، وبعد موت أمي، كان أخو زوجته قد نجح في الالتحاق بوظيفة "مضيف طيران"، قال لي متحسرًا: "مش كنتِ تفضلي في وظيفة مضيفة طيران، كان زمانك دلوقتي كونتي ثروة"، أجبته مندهشة: "أنا بأحضر الدكتوراه"، فرد، متحيرًا كأنه يقلب الأمر: "وماله؟! كنت تعملي الاتنين مع بعض"، لما لم أرد أدرك غرابة ما يقوله، فغير الموضوع، وهو يضع صورتي، برداء المناقشة، في جيبه، ويخرج.

(٤٥)

لم أحزن على ماما فور موتها، شعرت بأنني تحررت، وبدا لي أن موتها يوم عيد ميلادي، إشارة لبدء حياة جديدة. في عزائها انطلقت ضحكاتي مع صديقاتي، حتى إن مقرئ القرآن، نهرنا مرات عدة. بعد انصراف المعزين كنت أنتفض من نومي، كل ساعتين، لأتأكد أنني وضعت كيس الجلوكوز في موعده، ثم أعود للنوم، وأنا أؤكد لنفسي

أن ماما قد ماتت، ولم تعد مطلوبة مني هذه المهام، لكنني كنت أصحو دائمًا، بالانتفاض نفسه لشهر كامل. حتى تأكدت أنها ماتت.

(٤٦)

كادت طائرة رحلتي إلى تونس تُلغى، لذهابي متأخرة، أيقظتني صديقتي في الصباح، عبر الهاتف مرات عدة، كان إلى جواري، لكنني لم أسمع رنينه إلا متأخرًا. نهضت على عجل، واستطعت اللحاق بالطائرة، في اللحظة الأخيرة، لم أتعود أن أستغرق في النوم، لهذه الدرجة، منذ زمن طويل، وأتت رحلة تونس، بعد شهر من موت أمي، كهدية من السماء.

جلست إلى جوار شاعرة عربية، ستشارك أمسية الشعر، في الطائرة، اهتمت بي، وسألتني ما إذا كنت قد تقبلت بالفعل موت أمي؟ لم أجد إجابة، فبادرتني بسؤال آخر: "هل تقبلتُ فكرة أنني لن أراها بعد اليوم إلا في الصور؟!".

فرحة في الرحلة، أسهر، وأضحك، وأرقص، في المساء، أفرغ كاسات النبيذ التونسي الجميل، واحدة بعد الأخرى، دعمتني الشاعرة، حتى في حيرتي؛ وأنا أعقد حزام المقعد في الطائرة، لم تكن أولى سفراتي، لكن كل شيء بدا لي وكأنه يحدث للمرة الأولى.

حين عدت كان البيت فارغًا، فارغًا تمامًا، انكفأت على الأرض، في المكان نفسه، الذي ماتت فيه، واستغرقت في بكاء كأنه لن يتوقف أبدًا.

نسميه أنا وجارتي، تندرًا، بيت "أحمد وهبي"، انتقلتْ إليه "عروسة" جديدة، تعمل محاسبة، مع "عريسها" الحاصل توًّا على الدكتوراه في الجيولوجيا من "المجر". انتقلا بعد سكننا فيه بأربعة اعوام تقريبًا. بيت من دور واحد، وشقتين متجاورتين، نقطن أسرتنا في واحدة، ويقطن في الأخرى صاحب البيت، المنحدر من عائلة ريفية ذات فروع، وصيت. أعزب، يعمل مديرًا لمكتب إحدى الشخصيات المهمة في القضاء، رغم أنه ظل منتسبًا لكلية الحقوق، ولم ينل شهادتها أبدًا.

بنى البيت في صحراء مصر الجديدة، في البداية لم يكن غريبًا، كان البيت الوحيد تقريبًا في المنطقة، يقابله بيت لعميد جيش، من دورين، (صار عمارة شاهقة، تحتها المحال في ما بعد)، وكانت هناك في آخر الشارع، عمارة وحيدة من خمسة أدوار، تسكن في دورها الثاني صديقتي "رئيفة"، نتبادل الإشارة، هي من شرفة نومها، وأنا من شرفتي، ثم أرتدي ملابسي، وأذهب إليها لتمضية الوقت، وتبادل البوح والأسرار، (يحدث هذا منذ كنت في الثامنة عشرة من عمري، وحتى الآن، حتى بعد أن تغيرت البيوت، والمصائر).

كنت، وماما، نستطيع مشاهدة بابا وأخويَّ، وهم يهبطون من المترو، على بعد أكثر من كيلو متر، الكلاب الضالة تملأ المكان، لكن "رمزي"، أمكنه ترويضها، بخبرته الفائقة في ترويض كل الكائنات، حتى الفئران، كان يحبسها في البانيو، فتهرع إليه في المساء ليطعمها.

نمت بيننا وبين "الأستاذ أحمد" صداقة بحكم الجيرة، اطمأن لما رآنا نتجاهل النساء، اللواتي يدخلن، خلسة، إلى شقته، فصرنا عائلته، نصعد كلنا إلى السطح، في ليالي الصيف، وننتظر "العنب"، و"المشلتت"، والعسل والمش، يعود بها من "البلد".

خدومًا، يلبي أي طلب، ويعتبره طلبه الشخصي، إلا ما كان متعلقًا بالاقتراض منه، أو التأخر في دفع الإيجار، كان هذا "خطا أحمر"، يركب المترو "مجانًا"، بالكارنيه، فركوب "التاكسي"، حتى للضرورة، اختيار "المعتوهين" في نظره، ويرتدي البدلة نفسها في الشتاءات المتوالية، وفي الصيف، يرتدي بنطلونًا ناحلا، و"فانلة" يبهت لونها شيئًا فشيئًا، أحضرها معه من "ليبيا".

لا أتذكر أننا، أنا وماما، أو كل العائلة قد ذهبنا إلى "مصلحة حكومية" لإنهاء أوراق ما، دون مصاحبته، يعرف مفاتيح البيروقراطية كلها، ويتحايل عليها، بوظيفته "المُقلقة"، وينجز ما يستغرق شهورًا، في لمح البصر.

كان هذا هو جانب كرمه الوحيد، لكنه كان كافيًا، وكنا جميعًا "ممتنين" له.

ترك البيت، وأجر شقته، ومكث في شقة ضيقة، في إحدى حواري "ميدان ابن سندر" يؤجرها أحد إخوته، يموت من يموت من أسرته، ويرث من يرث، لكنه يظل على حاله، يشكو من أبناء أخيه، وهم يفتحون عليه باب "شقتهم" مباغتين له، ويشكو من ضيق الحال.

في كل عام، يرتدي البدلة القديمة، والقميص النظيف، ورباط العنق، ويحمل الحقيبة "السامسونايت" ويدق الباب، يأخذ الإيجار أولا،

ثم يصارحنا بنيته بيع البيت، "ليعيش حياته"، ويتزوج كسائر الخلق، لكنه يطلب مبلغًا خياليًا، فينفض المشترون.

ينسى الأمر بعدها، تمامًا، ويعاود حياته المعتادة، حتى إننا تعودنا أن نضحك، أنا، وأمي، وجارتي عليه، كلما أتى بهذا الحماس السنوي هامسين من ورائه: "البدنجان طلع!".

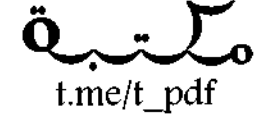
صار البيت غريبًا بمرور الأعوام، لم تعد الصحراء صحراء، صارت عمارات فاخرة، شاهقة، تحجب المترو، صار غريبًا بدوره الوحيد، بينها، وبنائه الذي يشبه "دوار العمدة" في القرى! لم نعد نرى الشمس، ولم يعد بإمكاننا أن نجلس على السطح، تحرجًا من أولئك الذين يراقبوننا "من حالق"، لكن صاحب البيت ظل يأتي كل شهر يأخذ الإيجار الزهيد، ويقسِّم، بدقة متناهية، فاتورة المياه على السكان، ثم يجلس على الكرسي المجاور لسرير أمي، يحكي لها، ونحكي له، عن "قسوة" الحياة.

(٤٨)

كنت جالسة في الشرفة، حين رأيته يطل عليَّ من وراء السور، قابلته بالعناق، وبكى كطفل، ربتُّ على رأسه، ولم أبك، دخل البيت، أعددت له الشاي، كان مبتهجًا، اتصل مباشرة بزوجته، وأخبرها بأن تحضر البنات "عشان يشوفوا عمتهم"، حضروا جميعًا، وامتلأ البيت بهم، ثم رحلوا، مرة، أو مرتين، لا أتذكر، لكنه أوصاني على ابنته، التي ستقيم، ، منذ الآن عند جديها، لالتحاقها بالجامعة، فطمأنته.

تجاهلتُ، مرات عدة، إشارته بأن من الأفضل أن تقيم معي، لم تصل الإشارة إلى حد الإفصاح، على أية حال، لذا كان تجاهلها سهلا. كنت أعد للدكتوراه في ذلك الوقت، اعتدت أن أعيش وحدي، ورأيت أن تحمل مسؤولية شابة، في هذا السن تكلفة لا يمكنني دفعها، من مسؤوليتي عنها، ومن حريتي كذلك.

لكن زيارات الابنة ظلت تتوالى، وصرنا صديقتين، نمضي بعض النهارات معًا، تطبخ لي طعامًا تجيد صنعه، وتستضيف أصدقاءها في البيت، فأرحب بهم، يمتلئ بهم البيت، ويكتنفه الصخب، لكنه صخب لطيف، ومحسوب بدقة. صارت لي أسرة من جديد، وهاهي الابنة الأصغر تلحق بأختها في الدخول للجامعة، ولأن منزل الجد صغير، اشترى "رمزي" شقة فاخرة، وواسعة في شارع قريب. لحقت بالبنتين باقي البنات، وانتقل الجدان للحياة معهن، كانت شقتهما على بعد أمتار قليلة من شقة "رمزي"، لذا لم يكن الانتقال عسيرًا. اشترى "رمزي" سيارة للابنة الكبرى، فصارت مسؤولة عن توصيل أخواتها للجامعة، أو للمدرسة، بقي هو في السعودية مع زوجته، مواظبين على الاتصال بهن طوال اليوم، وتتبع مجريات يومهن، قلّتْ زيارات البنات لي، حتى انقطعت تقريبًا، وصارت زيارتي لهن، من وقت إلى آخر، حيث أضطر لقبول التعامل "كضيفة" من أهل زوجته ثقيلا على قلبي، فاكتفيت بزيارتهم جميعًا حين حضوره في الإجازة، زيارة، أو زيارتين، على الأكثر، وخصوصًا أن نزوله مصر صار متواترًا في تلك الفترة.



(٤٩)

لم يكن يعرف عني شيئًا، سوى أنني أقترب من الحصول على الدكتوراه، وتمكنت أخيرًا، من أن أعمل في جامعة إقليمية، وبدا مبهورًا، على نحو خاص، بلقاء تليفزيوني معي عن حياتي كشاعرة، رآه بالصدفة وهو يقوم بكي ملابسه، فاستدعى زوجته، والبنات فورًا، كي يشاهدن عمتهن، كما قال لي.

أزوره في بيته الفاخر، وتتركنا زوجته "بمفردنا"، بعد أن أمنت له، وأمنت لي، بمرور السنوات، لتذهب إلى أهلها. أجلس إلى جواره لنشاهد التليفزيون، دون كلام، يحكي لي عن مشاريعه الجديدة في صناعة كريمات التجميل، والثروة التي يحققها من ورائها، حاولت أن أشاركه في اهتماماته، فاقترحت عليه أن يبيعها في مصر، نظر لي باندهاش، وضحك: "أنا بأبيع علبة الكريم بـ ٤٠٠ ريال.. حأبيعها بكام في مصر؟ أنت عبيطة؟!"، سألني مرة عن أحوالي، وكانت زوجته غير موجودة، دفعني تراكم الديون عليّ في تلك الفترة لأن أخبره بصوت حرصت على أن يكون عاديًا: "والله يا رمزي عليّ ديون كتير"، انشغل بالريموت معقبًا: "ومين سمعك؟! كلنا غرقانين ديون"، لم أكررها، وصرت أتجنب الحديث عن أية مشكلة معه، صار هو أيضًا لا يتحدث معي، إلا في الشؤون العامة، حتى في غياب زوجته.

(٥٠)

تسألني "رئيفة"، كثيرًا هذه الأيام، عما أنجزتُه في هذا الكتاب، تعاتبني أحيانًا على "كسلي"! فأفضي لها بهواجسي: "يعني مش سهل الإنسان يعري حياته كده"! لكن كلامي هذا لا يعجبها، تقول لي بحسم: "لأ.. لازم يعرفوا أنتِ عشتي إزاي، وإزاي بقيتِ كده، ده ما كانش سهل". تدهشني جرأتها، ولا أستطيع أن أخبرها أننا نعيش، لكننا "نجبن" حين نكتب، وننشر على الملأ "ما عشناه". تسألني، أحيانًا، بخجل، هل أتت "سيرتها" في الكتاب؟ فأخبرها أنني تحدثت عن "دورها" في مرض ماما، فتضحك، مدعية أنها لا تتذكر، تشيح بيدها: "دور إيه؟! هو إحنا كنا بنمثل؟!" ثم تحزن فجأة، وهي تقول: "ما تنسيش، أمك وصتني عليكِ قبل ما تموت". أنا لم أنس، فقبل دخول ماما في الغيبوبة مباشرة، وفي تلك الأيام التي كانت لا تريد أن ترى فيها أحدًا، طلبت مني أن أدعو "رئيفة"، وطلبت مني، أيضًا، أن أخرج من الغرفة، ففهمت أنها تريد أن تختلي بها، أخبرتني ماما بالسر بعد ذلك: "قلت لها، خليكي جنبها، ما تسيبيهاش أبدًا، مهما حصل". صرت بعدها، "طفلة" عائلتها المدللة، يتحملونني جميعًا، غاضبة، أو متوترة، أو فرحة، كبارًا وصغارًا؛ كأنني فرع شجرة ذوت فاستُنبت في أصيص العائلة، ونما فيه، حتى إنهم لا يستشعرون أية غرابة في استمرار وجوده بينهم.

ظلت ماما تعتبر "رئيفة" ابنتها الثانية، صادقتْها، بحكم الجيرة، قبل أن تنسحب من الصداقة لتسلمني لها: "أنتو من سن بعض، هي أنسب تبقى صاحبتك، مش أنا" وبدت، وهي تتأمل النمو المتسارع لصداقتنا: "سعيدة بابنتيها"!

كلما قابلت "رئيفة"، نحدثنا عن أمي، تُعيد على مسامعي "أسطورة جسد أمي المسجى"، التي صنعتها في خيالها، غالبًا، ودائمًا ما أفشل في محاولة "إيهامها" بأنني أصدق ما تقول! النصف الذي أتذكره من الحكاية هو حيرتي أمام السيدة التي جاءت لتغسّل أمي قبل دفنها، كنا وحدنا، أنا وهي، تفوح من حولنا رائحة كولونيا نفاذة، ورخيصة، لم أكن أفكر إلا في ذلك الشخص، عديم الذوق، الذي أحضر هذه الكولونيا السمجة، وكيف لم ألتفت لزجاجات أمي المفضلة من كولونيا (٥٥٥) المرصوصة بعناية على الإستوديو، كانت السيدة ترتل بضع كلمات محفوظة، بصوت حاد، وتودع أمي قائلة: "مع السلامة، ربنا يثبتك عند السؤال"، كدت أتقيأ من ابتذالها، وبنبرة ضجرة سألتني: "هو مفيش حد يساعدنا أنا وأنت؟! ما تشوفي حد من حبايبها بره"، فتحت باب الغرفة الممتلئة بالماء، كانت "رئيفة" وراء الباب تتصنت، تحاشيتُ النظر إلى عينيها، لأنني أعرف "هلعها" من الموت، وناديت: "الولية اللي جوه عايزة حد معانا يا جماعة"، لدهشتي انبرت "رئيفة"، على الفور: "أنا اللي حأدخل عند طنط سعاد"، ببساطة قلّبنا ماما معًا، كما كنا نقلبها معًا في غيبوبتها، وظلت تحدثها، كأنها لم تمت، وتنهر "المغسلة" التي انصاعت لها تمامًا: "يا ست خفي إيدك شويه، أنتِ غشيمة كده ليه؟!" كدنا نضحك جميعًا، وبدا لي أن أمي تبتسم.

تحكي "أسطورة" "رئيفة" أن جسد أمي عاد إلى ما كان عليه في صباها، وأنه كان أبيض لامعًا، مشربًا بحمرة ناعمة، وأنها لم ترها "أجمل" في حياتها كلها من هذه اللحظة، كأنها "عروس" لا جسد مُسجى. حين تراني أستمع إليها، دون تعقيب، تسألني باندهاش (يتكرر كل مرة تحكي

فيها): "هو أنتِ ما كنتيش معانا ولا إيه؟! ما شوفتيش جمالها؟!" أتعلل بأنني: "الصراحة أنا باين كنت مركزة في حاجات أهم"، فنضحك سويًا.

لكنني أعرف أنها عانت طويلاً بعد هذه اللحظة، دفعها الحب إليها، و"الجدعنة"، أعرف كلما مات لها عزيز، حتى شقيقاتها، بأنها لن تكرر ما حدث أبدًا، أحيانا تبوح لي: "بس الصراحة، دي كانت أول وآخر مرة، أنا قعدت شهور بعدها بأرتجف"، أفهمها تمامًا، لأنني ظللت شهورًا أرتجف بعد أن غسلت "خالتي"، تنفيذًا لوصيتها، وأقسمت، أنني لن أكرر هذا أبدًا، مرة أخرى، ولو أنني عدلت عن قسمي، بعدها.

أنا لم أكتب كثيرًا عن "رئيفة"، هنا، رغم أننا عشنا معًا أكثر من أربعين عامًا، أوقن أنها ليست غاضبة من هذا (هي ليست من ذلك النوع، الذي يخفي غضبه) تقول لي، ضاحكة: "بصراحة، أنا ما بافهمش حاجة من اللي بتكتبيه، بس بأحسه". لكنني لا أثقل عليها بالشعر، وأتذكر أمي حين كانت تشكو، مثلها، من عدم فهمها لما أكتب، أقول لنفسي إن "رئيفة" تحتاج مني كتابًا بأكمله، وغالبًا لن أكتبه، ولا أستطيع أن أقول لها إن كل من كتبتُ عن حياتهم معي في هذا الكتاب قد ماتوا! وأنا أكتب عنهم لأنهم "ماتوا"؛ ماتوا فيزيقيًا، أو ماتوا "بالفعل" في قلبي! كيف يمكن أن توضح هذه الحقائق، البسيطة، لمن يعيش في قلبك؟! كيف يمكن أن تفهمه أنك تكتب عن هذا الجذر البعيد لتطيره أوراقًا في الهواء، كي لا يظل يخادعك بأنه شجرة! تكتب عن هذا الجذر "المعطوب"، فقط، لتتخلص من "عفنه"، حتى لا يصير إلى نهاية حياتك ممتزجا بأنفاسك! حتى لا تعتاد رائحته، ولا تستطيع أن تميز بين رائحته، ورائحة حياتك! كيف يمكنني أن أفهم "رئيفة"، التي تعشق عائلتها، حقيقتي البسيطة

هذه، شديدة الوضوح بالنسبة لي، عارية تمامًا أمام عيني؟! كيف أفهمها ما علمَّه لي الشعر: "أن الكتابة هي الموت"، وأنني لا أريد أن أكتب عنها، لأنني أرتعب من أن تموت.

(٥١)

ترك لي "رمزي" الأثاث القديم، ولم يأخذه معه إلى شقته الجديدة، نظر إليه، شاردًا، قبل أن ينتقل إليها، وتأمله، قليلاً، قطعة بعد أخرى، لكنه عدل عن الفكرة. مضى على الأثاث ما يقرب من عشرين عامًا، أعالج الكراسي بالغراء كلما سقط أحد مساندها، أو أرجلها، اشترى لي أيضًا "بوتاجازًا" جديدًا، حينما شاهد العين السليمة الوحيدة "تبخ" نارها في وجهي، تحمس، منزعجًا، على الفور، ليشتريه لي، بالتقسيط، " قبل أن يحرق الدنيا"! لكنه لم ينس أن يذكرني بأنه اشتراه "باسم زوجته" معللاً الأمر بأنها هي من سيدفع الأقساط. لم ينس، كذلك، أن يداعبني قبل رحيله بأنه قد "كتب" كل شيء باسم زوجته وبناته، مردفا: "يعني لو طردوني حاجي أقعد عندك"، لم أضحك للنكتة، ولم أرد، كل شيء حولي كان يدفعني للارتباك، الدكتوراه المعلقة، ولم تنته بعد، إنذارات الجامعة المتواصلة بوجوب الإنهاء، والديون الآخذة في التراكم، بعد حرماني من معاش أبي، واكتفائي بالمرتب الهزيل، وعدم قدرتي على الالتحاق بعمل إضافي.

دعاني، بعدها، لتمضية بضعة أيام معهم، في "الشاليه" الجديد،

الذي اشتروه في "ستيللا دي ماري"، لكنني اعتذرت وتحججت بالمذاكرة، وضغط العمل.

كل شيء كان يسير على ما يرام، على أية حال، توطدت علاقتي بابنة خالتي، وصرنا صديقتين، كنت طوال حياتي ذلك الشخص المنعزل عن العائلة، لكن فترة مرض ماما قربت ما بيني وبين أبناء خالتي، وبخاصة "الابن الطيب"، الذي تولى، تقريبًا، مصروفات علاجها في الأشهر الأخيرة، ومنذ بدء رحلة الكيماوي، والذي واظب على مبلغ شهري، يرسله لي لأكمل دراستي، مع نفحات كريمة في الأعياد، تسدد ما يطرأ من ديون.

ساعدتني ابنة خالتي في هدم الجدار ما بين غرفة ماما، والغرفة المطلة على الشارع، بعد حصولي على الماجستير، كهدية تفوق، وبعد أخذ ورد مع صاحب البيت، صارت لديَّ "صالة" ذات شرفة وشباكين، اقتنيت قطة، سرعان ما خرجت بحثًا عن زوج، واختفت، وصنعت من مائدة الطعام "مكتبًا" لطيفًا.

يزورني "رمزي"، وبناته، وزوجته، في إجازته، من وقت إلى آخر، وأزورهم قليلا، لكنني لا أطيل الزيارة، لم نتحدث قط عن ماما بعد موتها، كأنها لم تكن، باق عام على الأكثر وسأحصل على الدكتوراه، ستتعدل مهامي الوظيفية إلى الأفضل، وراتبي كذلك، أزور خالتي من وقت إلى آخر، لم يسهم موت أمي في اتفاقنا كثيرًا، لكنني صرت أحمل لها كثيرًا من الامتنان، هي، بدورها، ما تزال على موقفها مني، تعتبرني "مدللة"، رغم إشادتها الدائمة بالدور الذي قمت به مع أمي، وبتفوقي،

"الذي لم يكن متوقعًا على الإطلاق" كما كان يحلو لها أن تردد، لم تحاول أن تلعب دور الأم معي، على أية حال، طعنت في السن، وصارت طفلة هي الأخرى، تطلب تدليل الجميع، وقبل موتها، بأيام، تلقيت منها نظرة عطوف، ووصية بأن أقوم "بتغسيلها"، كما قمت مع أمي، ففعلتُ.

كم مرة سمعت بأنني "في عنق الزجاجة"؟ كثيرًا، بل إن حياتي كلها وكأنها لعبة "انحشار" دائمة في عنق الزجاجة، أطفو كقطعة فلين، ثم أعاود الانغمار، كنت أطفو وقتها، أعوم على ظهري، كما أخبرت أصدقائي، ثم أعاود العوم بيدين حاسمتين، لأنهي هذه القفزة الأخيرة، حين هبت العاصفة، بعودة "الغائب".

الغائب يعود في موعده.. قبل بدء العرض!

(١)

كم عامًا مضى على موت أمي؟ لم أكن أعد الأعوام، إلا في ذلك الصباح، حين أتاني صوت الصديق الألماني القديم، مهللاً في الهاتف، بأنه عثر على "راجي". أو هو الذي عثر عليه، اتصل به، وأخبره أنه مطارد، يختبئ في إحدى الكنائس، التي تتولى ترحيل المهاجرين، غير الشرعيين، مؤمنة لهم طريق العودة إلى بلادهم، دون عقاب، أو سجن.

كنت موقنة أنه مات، أمي، نفسها، أفاقت من غيبوبتها، وصرخت، وقالت إنه "مااات!" صدمتني فكرة أن غيبوبتها، لم تكن "مقدسة" كما كنت أظن، وأن ما تراءى لها فيها لم يكن إلا محض أحلام، لا "رؤى" كما ظللت طوال عمري أجاهد في تأويلها! و"أعيش" على تأويلاتي! لم تكن "غيبوبتها"، وجلوسي إلى جوارها "طقسًا"، متفردًا بذاته، لا يتكرر، ولا يحدث إلا مرة، في حياة أي إنسان! وحتى إن تكرر، لن يتكرر بالعنفوان الأول، بطوفان الهواجس والألم، كأنه الحب الأول، تمامًا، بل إن هذه الحقيقة المباغتة، جعلتني أشك في ما يقولونه، عن إدراك من في الغيبوبة كلام من يحدثونه! وعن أنهم، بحديثهم هذا "يطمئنونه، ويستعيدونه!" هراء، لا شيء من هذا قد حدث، للأسف، كانت "نائمة"، تحلم، كأي نائم يحلم بكابوس بعد أن تناول طعامًا ثقيلاً! طعام ثقيل ربما يكون، هو

حياتها نفسها، هكذا، بكل الابتذال، وبكل الإهانة لهواجسنا، لأدوارنا، لكفاحنا المستميت، في استعادة من هم قرب الموت لنا، لحياتنا نفسها، التي تنقلب رأسًا على عقب، ينفرط منها الإيقاع، وتصير نواحًا "كونيًا"، متصلًا، لا يعرف ليلًا من نهار!

لكنني فرحت به، فرحت إلى درجة أنني كنت أجوب البيت أغني أغنية ماما في أيامها الأخيرة، وأضحك: "لما قالوا ده ولد.. انشد ضهري واتسند"، وفي الليل تلقيت مكالمة من "راجي"، بعد أن طمأنه صديقه بترحيب أخته، وسعادتها بوجوده على قيد الحياة، وبعد أن أخبره بموت أمه! كان يبكي، كانت المرة الأولى التي أراه، أو أسمعه، فيها يبكي، على مدى حياتي كلها، كان يبكي موت أمه، فحاولت طمأنته، وبدا لي الأمر غريبًا، قليلًا، كنت قد انتهيت من البكاء عليها منذ زمن طويل، ولم أكن من ذلك النوع، الذي يجتر أحزانه، على الأقل في تلك الأيام، التي أدخل فيها صراعًا مع الزمن، من أجل أن أنهي رسالة الدكتوراه، التي طال وقتها، وصرت مهددة بالفصل من الجامعة. لم أكن، أملك، ساعتها، بالفعل، "ترف" اجترار مثل تلك الذكريات!

تذكرت العهد، الذي قطعته على نفسي، لماما، قبل أن تغرق في غيبوبتها: "والله، أوعدك، لو ظروفي سمحت حأسافر، وأدور عليه"، لم تسمح الظروف، ماديًا، بالقطع، وحتى في سفرتي، قبل ظهوره بعام، إلى ألمانيا، لبضعة أيام، لحضور مهرجان شعري، لم أبحث عنه، وحين راودتني الفكرة هناك، ضحكت من نفسي، وأنا أتخيل الشاعرة، التي تترك المهرجان، والناس، وتهيم على وجهها، في شوارع "فرانكفورت" تبحث عن أخ غاب منذ أكثر من ثلاثين عامًا!

حتى "رمزي"، بدا منفعلاً جدًا، كأنه فرح، صادف ظهور "راجي" وجوده في إحدى الإجازات المتواترة، التي حرص عليها، في السنوات الأخيرة، ليرعى بناته. أتى، إلى البيت القديم، ليبحث الأمر معي، هو، وزوجته، وأخبرني أنه هاتفه، هو أيضًا، وبكى، وأنه متأثر جدًا لظهوره. سألني عن موقفي فأخبرته بضرورة عودته، رأى، بدوره، أن لا حل آخر، لكنه شرد، لوهلة، ثم قال: "أنا بأفكر أشاركه في مشروع، وآخد له شقة صغيرة، يعيش فيها، أنت مستحيل تقدري تستحمليه"، أخبرته بأنني أرى وجوب أن يأتي، أولًا، وبسرعة، إلى بيت أمه، ثم نرى كيف تسير الأمور، إذا تأزمت، نفكر في حلول أخرى. فوافقني على الفور.

لم يكن من الممكن أن يدخل "راجي" إلى مصر، إلا بعد دفع غرامة عدم تجنيده، دفعها "رمزي"، ثم بدأ عراكه معه، على من سيدفع التذكرة؟ أكد له "راجي" أن الكنيسة ستدفعها، حينها اطمأن "رمزي"، وبدأتُ في الإعداد لحضوره.

لم يكن لديَّ مانع حقيقي من حضوره، كنت قد أمضيت حياتي، بعد موت ماما، وحدي، وصرت في الخامسة والأربعين، ورأيت أن وجود أخ لي في الحياة أمر يدعو إلى التفاؤل، و"الونس".

أين سينام؟! بعد أن أزلت كل الحوائط، ولم يعد لي سوى غرفة نوم واحدة؟ لا يهم، بحماس، علقت ستارة بدلاً من الجدار، الذي هدمناه، بين غرفته القديمة، المطلة على الشارع، والغرفة، التي عاشت، وماتت فيها ماما، لأصنع له غرفة، تشبه غرفته القديمة، غير أنها غرفة ذات "روح" خاصة، يكفي أن يزيح الستارة، لتندفع "روح" ماما إليه، تحتضنه،

وترعاه، هكذا ظننت، رغم خيبة أملي، الطازجة، في "قدسية غيبوبتها".

ملأت الثلاجة بالطعام، قدر ما استطعت أن أعصر ذاكرتي لأتذكر ما يحبه: الجبنة الروكفور، والبسطرمة، واللانشون، أزحت الجبنة البيضاء إلى الرف، وخبأتها وراء العلب البلاستيكية، وأنا أبتسم، "بلاش دي، كان دايما يتخانق مع ماما بسببها، ويسميها صراصير"، وهو يتأفف: "جبنة بيضا، كل يوم جبنة بيضا!" وأضفت لمسة من خبرتي الأخيرة معه، فملأت الثلاجة بزجاجات البيرة.

كان "رمزي" قد سافر، حين أنهى "راجي" أوراقه، وأتى. ذهبت مع ابنة رمزي في سيارتها، لاستقباله في المطار، كنت أخاف ألا أعرفه، نصحتني ابنة أخي، وقد صارت شابة في الجامعة، بأن أحمل "ورقة" باسمه، على سبيل الاحتياط، لكنني استنكرت تمامًا، أن يحدث هذا، وعاتبتها: "ورقة إيه؟! ما ينفعش طبعا، ده أخويا! معقول مش حاعرف أخويا؟!"، صمتتْ، بنفس النظرة اليائسة، التي كنت، عادة، ما أراها في عينيها، حين أصر على أن تصلح لي الكمبيوتر، فتبادرني بضيق: "ما يتصلحش يا عمتي. هاتي واحد جديد"، لم أطِل، هذه المرة، مناقشتها، وإفهامها، كعادتي، أن شراء أشياء "جديدة" ليس متاحًا لي، بهذه السهولة، التي تتحدث بها، لم يكن لديَّ الوقت، لإفهامها، كنت أتأمل وجوه الخارجين من الطائرة بدقة، خشية أن أفوّت أي أحد منهم، أو أفوّت ملامحه.

لكنني عرفته، على الفور، عرفته من نظرته، وهو يخرج يبحث بعينيه بين المستقبلين، بدا هزيلًا، وقصيرًا، يرتدي "فانلة" نحل لونها، وبنطال "جينز" قديمًا، لاحظتُ خيبة أمل ابنة رمزي، في هيئة عمها المنتظر: "الآتي

من ألمانيا"! ما إن اقترب منا حتى ناديته، متهللة، فتوجه نحوي مبتسمًا، وتعانقنا، لم يكن يحمل إلا "هاند باج" على كتفه، وحول رسغه، وضع إسورة عريضة، من الجلد المثقوب الأسود، كأساور "البلطجية"، لكنه أفهمني، في ما بعد، بأنها لعلاج "الروماتيزم"، وآلام الفقرات، التي تراوده، بحدة، من طول الوقوف في المطبخ، فرق قلبي له.

عدنا معًا إلى البيت، أنا وهو، وحدنا، تركتنا ابنة أخي على الباب، متعجلة، بدعوى أن لديها مذاكرة، لم يشأ أن يتناول طعامًا، وبدا واضحًا، بالنسبة لي، أن اختياراتي من الطعام، المستقاة من ذاكرة بعيدة، لم تعد تناسب ذوقه، لم يعبأ، أيضًا، بأن يتفرج على البيت، وما آل إليه، سألني عن مكان "الحمام" فأشرت إليه، وحين عاد فتح حقيبته الصغيرة، وأخرج منها "قاموس" من الألمانية للعربية، ينظر فيه، ضاحكًا في عصبية، كلما تكلمت، وأراد أن يرد عليَّ!

سعد جدًا بزجاجات البيرة، وأخذ يتناولها، واحدة بعد الأخرى، وأظهر لي ما في حافظته من نقود، دون مبرر: "مائتي يورو"، دفعتها له الكنيسة، ووعدني بأنه سيرسل إلى أصدقائه، في ألمانيا، ليقرضوه مبلغًا آخر، حين يستقر.

حين أتى "رمزي"، وزوجته، بعدها بأسبوعين، عرفت أنه سيتراجع، اتصل بي تليفونيًا بعد الظهيرة، ليخبرني بأنه وصل، لكنه لم يستطع المرور علينا لتعب السفر، وسيمر في الغد صباحًا، أدركت من نبرة صوته، الخالية من الحماس، هذه المرة، أن تغيرًا ما، على وشك الحدوث، صرت أتنبأ بمواقفه، من نبرة صوته، التي لم يعد يبذل جهدًا، في "تلوينها" وهو يتحدث إليَّ.

مر بالفعل، صباحًا، مع زوجته، وبعد العناق والقبلات، سأل أخاه بلهجة حاسمة: "ناوي تعمل إيه بقى؟!"، أجابه بأنه ينتظر "المشروع"، الذي وعده به، وانتفض ليفتح حقيبته، ليحضر الأوراق، لكن "رمزي" أبدى اندهاشه، من وجود "أوراق" في الأمر، ونظر إلى زوجته، ثم قال، متصنعًا البراءة، بطريقته المحفوظة لي: "مشروع إيه؟! أنا جبت سيرة مشاريع؟!".

أقسم لي "راجي" ليلتها، حانقًا، بأنه وعده باشتراكهما في مشروع، وأراني دراسة الجدوى، التي أعدها له، بناءً على تأكيده له، خطوط وأرقام، لم أفهم منها شيئًا، لكنني أبديت الاهتمام، لأخفف عنه خيبته، وهو يشرح لي. كنت أصدقه منذ البداية، خصوصًا، وأنا أرى النظرة نفسها، في عيني "رمزي"، النظرة التي رأيتها في عينيه يوم أن كنا، أنا، وهو، في المستشفى، هذه المرة لم أندهش، وخزتني، فقط، ذكرى العبارة القديمة، للحظة: "كيماوي.. لأ؟!! لأ.. أنا آسف.. ما أقدرش".

(٢)

استقر "راجي" في البيت، عرفت منه، بعد أن تحسنتْ عربيته قليلا، أنه عمل طاهيًا طوال حياته، وحدثني، عن الحياة الأسطورية، التي عاشها، والنقود التي بعثرها يمينًا ويسارًا، وقرر أن يتولى "إطعامي"، لأتمكن من المذاكرة، كان يتجنب دائمًا الحديث عن العشرين عامًا، التي قضاها، دون أن نسمع عنه شيئًا، بالانخراط في مزيد من الأساطير، يقارن فيها بين أثاث

بيته في ألمانيا، وأثاث بيتنا القديم، الرث.

يتحدث دون توقف لساعات طويلة، كما كان يفعل مع ماما، يدخل إلى المطبخ، يعد الطعام، مثبتًا "الاستوب واتش" لينجزه في موعده، ليثبت لي مدى دقته، ودقة "الحياة الألمانية"، حين اقترحت عليه، أن يعد بعض الأطعمة، ونبيعها للأصدقاء، بدلًا من الاعتماد على "رمزي"، تعلّل لي بآلام عموده الفقري، وأمضى نهارًا، بكامله في الفراش، مدعيًا "تقلبها" عليه!

يغلق سماعة الهاتف في وجوه صديقاتي، فور أن يضع الطعام على المنضدة، فأعرف بعدها ـ وسط ضحكاتهن ـ ما أصابهن من إهانة، تقبلنها من أجل "خاطري"، من الأخ "الألماني"، مع درس قاسٍ، عن المواعيد الملائمة للاتصالات التليفونية.

لا أستطيع التأخر دقيقة واحدة عن العشاء، أهرول في البيت، وألقي بما في يدي من كتب، كي أجلس على المائدة، التي نسقها بعناية، تمامًا، كما كنت أفعل، حين تأتيه "الفورة" في طفولتي، ويصر على اجتماع الأسرة، بميعاد دقيق، على المائدة. حاولت في البداية أن أستعيد استعارة فيلم "عائلة زيزي"، التي كانت تعينني في طفولتي، كي أتجاوز الضيق بالضحكات، لكنها لم تعد صالحة للضحك، تحول الأمر، يوما بعد يوم، إلى نكتة سخيفة، ثقيلة الوطء، لا يمل صاحبها من تكرارها، متجاهلا "الوجوم" في عيني متلقيها.

تخليت عن عاداتي، بعد العشاء، بمشاهدة الأفلام العربية الأبيض والأسود، كي أريح رأسي من العمل، ننخرط معًا في الحديث، لساعات،

أبدأ الحكي، فيلتقط مني خيط العبارة، الثالثة على الأكثر، ليواصل الحكي، دون توقف. اللحظات الوحيدة، التي كان ينصت لي فيها، هي حكاياتي عن ماما، لكن الحديث سرعان ما ينقلب لمعركة دامية، حين يلتقط مني أحد أطرافه، ليبادر في إبداء "رأيه"، في سوء تصرفها "المعتاد".

لكن عينيه كانتا تترقرقان بالدموع، حين يسألني عن "تفاصيل" مرضها، فأحكيها، كأنني أحكيها، للمرة الأولى! بل كأنني أعيشها، مرة أخرى، كنت قد كففت عن الحكي منذ سنوات بعيدة، حتى لصديقاتي، اللواتي عشن معي تفاصيلها، واللواتي عرفتهن، بعد موتها، وتملكهن الفضول، كي يسألنني عما حدث، "ليعرفنني أفضل"! لم تعد حكايات مرضها، موضوعنا الأثير، كان لدينا ما يشغلنا، وكنت "أمتلك" الحكاية، على أية حال، أمتلكها بكل تفاصيلها، ويمكنني أن أحكيها، في أي وقت أشاء، وحتى نهايتها، أمنت نفسي تمامًا، بأنني لن أنساها أبدًا، ووضعت لها ما يلائمها من إطار ذهبي في قلبي.

لكن "راجي"، كان يدفعني إلى الحكي كل ليلة، يعرف، جيدًا، أين يضرب بشوكة الطعام، الذي يتناوله هادئًا، مكامن ضعفها، لتنسرب، بدا كمن يود أن يمد جذوره في البيت، الذي لم يقض فيه سوى عامين، قبل سفره، وبدت الحكايات كأنها الطريق الوحيد لمد تلك الجذور، أنا أيضًا، كنت كمن يريد الانذياح في الحكي، حتى البكاء الهستيري، ثم الرعب، الرعب من أن يكون ثمن الحكاية، التي يدفعني، مرارًا وتكرارا، إلى حكيها، من جديد، هو أن تحطم إطارها، وتنزاح، وتتلاشى إلى الأبد.

استهوته، تمامًا، لعبة أن يدفعني كل يوم لأن أحكي، صارت "طقسًا"

ملازمًا للعشاء "الاضطراري"، متدخلًا، بين عبارة وأخرى، ليأخذ دوره في الحكي، عن مرارته من "تدليل" ماما له، وما كلفه هذا التدليل من سنوات معذبة، كنت أشعر كل يوم بأن ثمة حكايتين "مضفورتين" لا بد أن تُحكيا معًا، كنت أتعب، فيبدو كالمنتصر، يتحدث لساعات، تلو الساعات، عن بشر لا أعرفهم، ومدن لا أعرفها، ولغة لا أفهمها، ويغضب إذا لم أضحك على دعابات كل هؤلاء! فيغير الحديث ليستغرق في الحكي عن أبيه، فأفقد حماسي تمامًا للإنصات، وبخاصة حين يردد، الكلمة نفسها، التي طالما رددها أخوه لي: "انت ما تعرفيش بابا . . ".

كنت أكتشف، بمرور الوقت، أنني لا أعرف أيًا منهم، حتى أمه، التي كان يحكي عنها، بنفور، لم أتوقعه، هي أم أخرى، لم أعرفها، كلما تكلم شعرت أنني مهددة بحكاياته، بآرائه، بنفوره، الذي لا أفهم كيف استطاع أن يتلون بكل هذه القسوة، كنت أشعر بتهديد أن تتحول حكاياتي التي عشتها، وأحببتها، إلى مجرد غابة من الصور، أسير فيها وحدي!

في الصباح، يسألني، بجدية، عن مكان "قبرها" ليزوره (لم يسألني قط عن مكان قبر أبيه!) ويطلب مني أن أذهب معه لزيارته، لأن هذا هو "الواجب"! كان قد مضى على موت ماما ما يزيد عن عشر سنوات، وكنت أحيانًا، ما أنظر في المرآة فأرى نفسي أزداد شبهًا بها كل يوم، وحين أتى "راجي"، صرت أشبهها تمامًا، أو هكذا كان يخيل إليَّ، وهو يحدثني بالساعات، فأهرب إلى غرفتي، واضعة رأسي بين يدي، تمامًا، كما كانت تفعل، بعد أن تخرج من غرفته، أيام الصبا.

(٣)

تمتلئ غرفته بالقصاصات، يدون كل شيء، كل حركة يقوم بها، وهو يستمع إلى الموسيقى، هدأ الصخب قليلًا، بعد أن طلبت منه أن يضع السماعات في أذنيه، كي أتمكن من المذاكرة، يصحو مبكرًا، ويبدأ جولاته الصباحية في السوق، فرغت المائتا يورو، وتوالت "اعتذارات" الأصدقاء الألمان عن إقراضه، وكذلك المبلغ الصغير، الذي أعطاه له "رمزي" ليشاركني نفقات طعامه، وشرع في الاقتراض مني، ذاهبًا، وآيبًا في حماس عظيم، كلما وطأت قدماه أرض البيت، تذكر أنه نسي أن يشتري شيئًا، فيشرع في الخروج من جديد، وفي المساء يحضر لي مجموعة من القصاصات، دون فيها، بدقة، ديونه لي، واعدًا أنه سيدفعها، فور الحصول على عمل.

أنا، بدوري، كنت أروح وأجيء، حاملة معي ملفات من سيرته الذاتية، قلبتُ في دفاتري القديمة كلها، زرت أقارب لم أكن أتخيل أنني سأزورهم يومًا ما، حتى أبناء وبنات "خالي"، الذين لم أرهم منذ سنين، بنفوري القديم من خالي، وزوجته، ما لم أستطع تجاوزه أبدًا، ولم أجد ضرورة لتجاوزه، رحبوا بي، بقدر ما استطاعوا، مقدرين تماما، "الورطة"، التي وقعت فيها ابنة عمتهم، ومهتمين بالصورة الجديدة، التي ألقاهم بها؛ لم أكن في حاجة، هذه المرة لأن أتحداهم، كما تحديت خالي في صباي البعيد، قائلة: " أنا شاعرة، يا خالي!"، كان طريق الشعر قد صار طريق حياة، بالفعل، وبدا لهم أنني أكثر قوة مما مضى، وكنت، وهذا ما أثار اهتمامهم أكثر، وقد صاروا آباء وأمهات، منشغلين تمامًا، بمستقبل أبنائهم، في التعليم، على وشك الحصول على لقب "دكتورة"، في

الجامعة، التي أعمل بها. قبلتُ وساطتهم، هذه المرة، بامتنان، وحصلت له على فرصتي عمل، نادرتين، في أحد الفنادق الكبرى، أهدرهما؛ الواحدة بعد الأخرى، في أيام، بلا ندم، أو اعتذار لا لي، ولا لهم.

(٤)

قالت لي صديقتي الشاعرة، التي تعيش في الخارج، وتتقن الألمانية، في إحدى زياراتها لبيتي، إنها تشك في أنه دخل السجن في الأعوام، التي اختفى فيها، حاورتْه قليلا بالألمانية، فأقبل عليها سعيدًا في البداية، لكنه نفر منها، بعد أن امتد الحوار قليلًا، وتركنا عابسًا، ولم يتحرك، رائحًا غاديًا في البيت، كما يفعل، عادة. اعتصرت قلبي الفكرة، فبررتُ بها كل ما يفعله، بدا كأنها قدمت لي حلًّا سحريًا لتبرير ما أعيشه معه، حلًا سيمنحني، على الأقل، ما يثير "شفقتي" عليه! ما يمكنني من مواصلة "دور الأم"، الذي كتب عليّ، وأنا أوشك على الخمسين، وهو على مشارف الستين! وحين واجهته برغبتي في أن أعرف الحقيقة، وأيًا ما كان ما اقترفه، لن أخجل منه، وسأواجهه، بل إنني سأدعمه، نظر إليّ في مرارة، نافيًا، وساخرًا: "سجن إيه وكلام فارغ إيه. إنت صدقت كلام صاحبتك الفارغ ده؟!"، كنت أريد رواية، أية رواية، تمكنني من أن أفسر بها اختفاءه، لأكثر من اثنين وثلاثين عامًا، دون إقامة شرعية، لتصدع قلب أمي عليه، طوال تلك السنوات، تُقطّر بؤسها، منذ شاي الصباح، وحتى يداهمها الليل، كنت أريد رواية، تغاير الرواية القديمة

التي أحفظها عن ظهر قلب، وأعرف مكان "ندوبها" في قلبي، أتحسسها، كطين ناشف، متخثر، دائمًا، هناك، قريبة، وفي متناول يدي: "خرج في الصباح، ذهب إلى المقهى، لم يذهب إلى امتحان الثانوية، ورسب".. هكذا، بهذه البساطة.

كنت أبحث عن رواية، صنعتها السنون الصعبة الطويلة، وحبكتْها، حبكة أكثر تعقيدًا، حتى ولو كانت "سجنًا وقضبانًا"، ستكون أقل ابتذالًا من تلك الرواية القديمة، المهترئة.

(٥)

أخلف "رمزي" وعده بالبحث له عن شقة، حتى بعد أن بكيت أمامه، وأخبرته بأنني موشكة "فعليًا"، وبهذا النمط من الحياة، أن أدمر كل ما بنيته في السنوات السابقة، تعلل بضيق أحواله المالية، بعد شراء الشقة، وتكلفة جامعات البنات، تدخلت ابنة خالتي، وابن خالتي، كعادتهما، ودفعا "راجي" بعيدًا عني، في شقة فارغة صغيرة، في بيت خالتي القديم، بصفة مؤقتة، حتى يبحث له "أخوه" عن مكان للإقامة. تقبل "رمزي" الخبر، ممتعضًا، امتعاضًا لم يصل إلى الاعتراض التام، وبالفعل، بعدها بأشهر، استأجر له شقة صغيرة، في إحدى المناطق الشعبية المتاخمة، على وعد مني، ببحث أمر عودته إلى البيت، بعد أن أنهي مناقشة الدكتوراه.

(٦)

ظل قطي يموء متألمًا ليلة بكاملها، يفرغ ما في جوفه، هرعت به إلى الطبيبة، فأخبرتني أن أحد الجيران، على الأغلب، وضع له سمًا في طعامه، كان قطًا أسود أسميته: "مالارميه"، يتعلق بي كطفل، وينام إلى جواري، حين حضر "راجي" إلى البيت، ظل أيامًا لا يبرح مخبأه تحت سريري، كنت أضع له الطعام هناك، بعد ما يئست من إخراجه، بشتى الحيل، ولما طال الوقت، استطاع "راجي"، أن يروضه على التعامل معه "بحياد"، كان القط ، يسير بعيدًا عنه، يخمشه، أو "يبخ" في وجهه، كلما حاول الاقتراب منه، لم يكن قطًا ودودًا، لا يحب الغرباء، لكنه لا يهاجمهم، كما فعل معه.

في تلك الليلة أنمته على سريري، وخرجت قليلا من الغرفة، حين عدت إليه، وجدته قد ترك الغرفة، وأخذ يتطوح أمام باب الحمام، تمامًا كما فعل أبي، وهو يموت، ثم مات. بكيته كأن قلبي يكاد ينخلع، ودثرته في رداء لي، لا في ملاءة ممزقة، ودفنته إلى جوار "ميشو"، ودعوت الله، في تلك الليلة أن يميتني بأية طريقة يراها، فقط، ألا يميتني في هذا "البيت".

"راجي" غاضب لأنني لم أدعه إلى مناقشة الدكتوراه، لم أستطع تجاوز مشاجرتنا الأخيرة قبل تركه البيت، وربما أتذكرها، بالمرارة نفسها حتى الآن؛ بالمرارة واليأس، كذلك، حين أتذكر الأيام الطويلة، التي قضيتها، بعدها، في غرفتي، لا أريد أن أنهض من سريري، كي لا أراه! كنت قد عدت من سفرة قصيرة إلى إيطاليا، أتت كمعجزة لتغطية مصروفاته، سفرة لم تكمل اليومين، ورغم مشقتها، عدت بمبلغ مالي لم أكن أحلم به، في

السوق الحرة وقفت لأشتري لراجي كل ما طلبه مني، بل إنني أضفت إليه علبة سيجار فاخر، أخبرني بأنه يحلم به، جلس يتأمل هداياي مبهورًا، وهو يقول لي: "ده أنا ما كنتش أقدر أشتريها في ألمانيا دي.. أنا متشكر جدًا، وأنت ما اشتريتيش لنفسك حاجة؟"، أشحت بيدي باستهانة: "مش مهم، المرة الجاية"، هز رأسه، كأنه يرتل: "أها.. دور الضحية بتاع ماما"، تغاضيت عن العبارة، كي تمضي الليلة بسلام، سألني عن الأمسية فبدأت في الحكي، كانت بالفعل واحدة من أجمل الأمسيات، التي شاركت فيها، انشغل عن حماسي في الحكي باللعب على الكومبيوتر، فانشغلت باللعب مع "مالارميه"، ثم التفت إلي قائلًا: "تعالي شوفي البنت دي؟" نظرت إلى صورة البنت على الشاشة، كانت جميلة، قلت له: "جميلة جدا"، فأجاب: "دي صديقتي، رسامة ألمانية، دي "عالمية"، أنا حبيت تشوفيها، لحسن تفتكري نفسك حاجة، أنتِ هنا وسط حمير، ففاكرينك حاجة، بس أنتِ ولا حاجة.. شوفي العالمين بجد، لحسن تصدقي نفسك"، وأخذ يضحك. في تلك الليلة انهار جدار الأخ الكبير للأبد، هو نفسه كان مذهولًا من غضبتي العارمة، كور قبضته في وجهي، واقترب مني، فلم أخف، نظرت إليه في تحد، فتراجع قائلًا: "أنا ممكن أضربك، بس أنا ما بأضربش ستات"، تملكني رعب مباغت من الكلمة: "ستات؟!"، ليلتها أغلقت باب غرفتي بالمفتاح، أتنصت على أي صوت خارجها، حتى غلبني النوم، وحين صحوت، في مساء اليوم التالي، بدا لي كل ما حدث كاشفًا، ومنتهيًا، كنا مجرد غريبين، اضطرتهما الظروف أن يعيشا تحت سقف واحد: "و لماذا أدعوه لمناقشة دكتوراه (الولا حاجة)؟!" هكذا كنت أردد بيني وبين نفسي، لأحسم الأمر.

(٧)

سافر "رمزي" على وعد بأن نحل، معًا، "مسألة راجي" وعودته للحياة معي في زيارته القريبة، البيت فارغ إلا مني، أتحرك فيه بصعوبة من غرفتي لباب البيت، أثرت موجات الضغط العالي المتتالية عليَّ، خصوصًا بعد انتهائي من عبء المناقشة، فتضخم "مليمترين"، كانا كفيلين بإلزامي الفراش، إلا للضرورة.

أنا، أيضًا، "يمكن أن أموت!" باغتتني الفكرة، رغم بساطتها، وأنا أتأملها، وحيدة، في فراشي، تداهمني إحدى نوبات ضيق التنفس، وتسارع ضربات قلبي قليلًا، ربما من أثر الفكرة نفسها، فأعالجها بأقراص "ملساء، باردة"، وأهدأ. نعم! ليس غريبًا، أبدًا، أن تموت امرأة في السادسة والأربعين، إثر نوبة قلبية مباغتة، أو دون أسباب! لم أعد أذهب إلى الموت، باختياري، كما كنت أفعل، بل إنني لا أعرف إن كان ما ذهبت إليه، وقتها، كان "الموت" أم كان محض "الهروب"؟! الجري لاهثين، والهرولة، صوب اللا مكان، الذي يسمونه: "الانتحار"، من قال: "إن المنتحرين، هم الأكثر تفاؤلا"؟! ولماذا ظننت، في سنواتي تلك، بعد أن أقلعت عن المحاولة، بأنني سأعيش طويلًا، لألعب الدور نفسه؛ الدور المكتوب لي منذ أن ولدت، منذ أن حملت اسم جدتي وهي "تحتضر"، كنت هناك، معهما، وربما كنت أنصت، لحديثها مع أمي، وربما كنت أتطلع من جوف بطنها، إلى وجه جدتي الموشك على الزوال! الدور نفسه، دور "الشاهدة" على الموت.

(٨)

ما إن نلعب أدوارًا حتى نتقنها، فلا نفكر بأن نلعب أدوارًا غيرها، نكتفي بفتات ما يلقيه "النجوم"، متعددو الأدوار، معتادو سماع التصفيق، بينما نحن، "الكومبارس"، نتلقى "الأوردر"، دون حلم بالبطولة، نتلقاه برضاء تام، لأننا، على الأقل، نحفظ أدوارنا عن ظهر قلب، ولا نجهد أنفسنا في ابتكار أدوار جديدة، نعيدها، المرة تلو الأخرى، حتى نموت، ويمضي بنا المشيعون، أولئك الذين يشبهوننا، في جنازة صغيرة، يبكوننا، ويبكون أنفسهم، بدموع "حقيقية".

(٩)

حضر صاحب البيت في زيارته الشهرية المعتادة، أخبرني بنيته بيع البيت، أخبرت جارتي بما دار من حوار بيننا، كانت المرة "الألف"، التي يعلن فيها نيته، بيع البيت، ثم يعدل عن القرار. علقت جارتي ضاحكة: "البدنجان طلع"، لكن الأمور سارت بأسرع مما توقعنا، في اليوم التالي حضر المشتري، اتفقنا على ما سيأخذه السكان، ولم نفاوض أحدًا، كان المبلغ تافها بالنسبة للتخلي عن شقة في هذا المكان، لكن جارتي، بدورها، وافقت على الفور، فالأبناء تزوجوا، ورحلوا، وفرغ منهم بيتها، وأرادت أن تقطن في بيت آخر، بيت جديد، وأكثر قربًا من بيوتهم الجديدة.

في صباح يوم مشمس، أحضر صاحب البيت لي عقد إيجار جديد

باسمي، حتى لا تثار المشاكل في البيعة، كما قال لي. فتحققت معجزة جديدة، مزقنا القديم (وعليه خط ماما المرتبك، وهي تؤشر بتنازلها لي عنه، قبيل موتها، كي تشعرني بالأمان!) انتهى كل شيء، بأسرع مما كان يمكن أن يدور بخيالي عبر كل تلك السنوات، تقول صديقاتي وجارتي: "هذا رضاء الأم"، وتتملكني الهواجس، رغم شعوري بنجاة وشيكة: "ترى لماذا يستجيب الله فجأة هكذا، لكل دعواتي القديمة كأنها تصله الآن، تباعًا، الواحدة تلو الأخرى؟!".

كنت ألهث، وأنا مستغرقة تمامًا قبل الرحيل بالتخلص من كل شيء، ساعدتني صديقاتي بسرعة إتمام المهام الصعبة، قبل أن ينكشف أمري، لم أعبأ بتدخلهن في كل قصاصة ورق، في كل صورة، يقرأنها، ليسألنني، إن كنت سأحملها، أم سأمزقها، هي الأخرى؟ كنت كمن يرتكب جريمة قتل، ويحرص ألا يترك بصماته، في أي مكان، قررت، كذلك، ألا آخذ معي شيئًا، الأثاث القديم فتحت الأبواب، ومنحته لمن أراد، سيصلحونه، بعد أن اهترأ، بعيدًا عني، وربما سكبوا فيه شيئًا من أفراحهم، فلا أعرفه، إذا زرتهم، قطعت كل صور أخويَّ وخطاباتهما، بعنف، أسميته ساعتها: "الكراهية حين تنفجر"، محوت آثارهما، فعليًا، من البيت القديم، كي لا تلاحقني، كي لا تراوغني في بيتي الجديد، وتختبئ في أي شق، وتهاجمني في الليل، ولم أبقِ إلا صورة وحيدة لأبي، وصور عديدة لي مع أمي، حملت ملابسي الصالحة، وكتبي، سلمت للمالك الجديد المفتاح، وأغلقت الباب إلى الأبد.

(١٠)

من قال إن الأقدار نفسها تتواطؤ معنا، أحيانا؟! تتواطؤ مع هروبنا إلى أبعد مكان ممكن، لم تزل لديَّ صورة قطي "مالارميه"، أعلقها على جدار بيتي الجديد، "مالارميه" تعويذتي، من فهم كل شيء لحظة أن عاد "راجي"، من عرف أن انتظاري للأخ الغائب، وفرحتي به، كصخرة أستند عليها، لم يكن، في أعماقه، سوى انتظار لسقوط الصخرة الأخيرة، للبيت القديم، ومن يدري، أكاد أوقن، أن "مالارميه"، حمل ردائي، الذي دثرته به بعد موته، وألقاه، بحركة تمثيلية، ركيكة، كأي كومبارس، أمام الله، ليبلغه الرسالة: "تقول لك: هي لا تريد أن تموت هنا، هل هذا مطلب عسير على إله؟!".

لم أنزعج حين تلقيت رسالة على هاتفي من "رمزي"، في بيتي الجديد، بعد معرفته بما تم، كنت أتوقعها، مضت أربعة أشهر قبل أن يدرك أن البيت باعه صاحبه، كتب فيها عن صدمة عمره بخيانتي له، وأنه لايصدق كأنه في كابوس! كنت أتوقع أيضًا، أنه لن يكلف نفسه عبء مواجهتي، وفتح الدفاتر القديمة، كلها، بعد أن تخطيت سور البيت القديم، سيدفع براجي، الذي تلقيت منه بعدها مكالمة هاتفية، يسألني فيها عما حدث، وكيف طاوعني قلبي فتخليت عنه؟! اعتُصر قلبي، بشفقة حقيقية، تجاهه، لكنني داريتها، للمرة الأولى في حياتي معهما بقسوة، وبصوت، كنت أسمعه غريبًا عني، أغلقت الهاتف في وجهه، وغيرت رقم هاتفي، هذه المرة.

انتهى الأمر، دون ندم، دون ذاكرة، دون حتى مرور عابر أمام شارع البيت القديم، أثناء زياراتي لأصدقائي، في مصر الجديدة، لم يعد البيت موجودًا، هدمه مالكه الجديد، وأقام عمارة شاهقة مكانه، مرة وحيدة، حاولت أن أمر من الشارع، فارتبكت، ولم أستطع تحديد مكانه، فعرفت أنني لن أذهب مرة أخرى، وعرفت أنني ضللت الطريق إلى هناك، إلى الأبد.

خمس عشرة سنة مرت، كأن الحياة كلها بدأت هنا، في هذا البيت، الذي أعيش فيه الآن، كأن الزمن هناك، أيضًا، قد تهدم، وسقطت صخرته الأخيرة.

(١١)

لم أفتح الرسالة التي جاءتني على فيسبوك، ظلت هناك ليومين، في صندوق "الآخرون" انتبهت إليها أخيرًا: "بابا تعبان بقاله فترة، وقلنا نبلغك طبعًا، لو تحبي تشوفيه"، أدركت من الاسم أن الرسالة لابنة أخي الصغرى، التي لم أرها وهي تكبر! فطلبتها تليفونيًا على الفور، مغامرة، هذه المرة، ودون تفكير، بمعرفتها رقم هاتفي! سألتني من أنا؟ فرددت دون مقدمات: "عمتك، أبوكِ ماله؟"، بدا وكأنها فوجئت بسرعة استجابتي لرسالتها، كأنها ألقت بها في الصندوق الغريب، وأنهت المهمة المنوط بها إتمامها، أدركت أن الرسالة لم تجئ إلا بطلب منه، وأن ثمة شيئًا خطيرًا يستدعيه أن يستدعيني بعد أن كف، نهائيًا، عن المحاولة، ردتْ بارتباك:

"أيوه يا فندم. . بابا اتوفى. . إحنا خارجين من الجنازة، قدر الله وما شاء فعل!" أغلقت الهاتف، دون كلمة واحدة.

هل أراد أن يراني، فعلا، في إحدى نوبات إفاقته من غيبوبته، كما فعلت أمي حين نادت عليه، وعلى أخيه؟ هل أرجأوا الاتصال بي، للدقيقة الأخيرة، حتى لا يرق قلبه، وخافوا أن يعيد النظر في ما أورثه لهن؟ أم أن الأمر لم يكن سوى ضرورة، محض ضرورة، نصحهم بها أي أحد، أن يتصلوا "بأهل الميت"؟! صار للبنات أزواج وأبناء، من يعرف ما الذي يدور هناك، في غرفة محتضر غاب عن الحياة ـ كأمه ـ قبل موته في غيبوبة طويلة؟! وعلى من أبكي، وأنتفض من البكاء: هو؟ أم هي؟ أم كل ذلك الفضاء الذي يضيق حولي يومًا بعد يوم، لينغلق عليّ، أنا أيضًا، "ذات مساء مثله، ذات مساء؟".

(١٢)

مرت أربعة أشهر على موت "رمزي"، يومي كما هو، أقلعت عن البكاء تمامًا، بعد موته بيومين، ونشرت له عزاء "رسميًا"! على صفحتي على فيسبوك! لم أذهب، بالقطع، إلى عزائه، استقبلت تعازي الأصدقاء بشيء من الزهو، وربما الانتقام الخفي، من عائلته، التي بإمكانها أن تراها على صفحتي، فكرت في الذهاب ليلتها، باندفاع عاطفي صوب الباب، لكنني تراجعت، وأنا أقول لنفسي، بصوت عالٍ هذه المرة: "أعزي مين؟!"، ظلت كلمة ابنته: "أيوه يا فندم"، تتردد كدوامات في قلبي لأشهر طويلة،

وانشغلت، لليال في التقلب في صفحته الفيسبوكية، التي حُجبت عني طويلًا، ثم انكشفت فجأة بعد موته، وعرفت، منها، حكايات مرضه.

اكتفى، حتى أصدقائي المقربون، بعزائي هاتفيًا، لم يزرني أحد، سوى طبيبتي النفسية، جاءت لتطمئن عليّ، إثر قلقها من نوبة بكاء هستيرية، انتابتني، وهي تعزيني في الهاتف.

أقول لنفسي، أحيانًا، بصوتٍ عالٍ، إن "رمزي" قد مات، وإن عليّ أن أفهم هذه الحقيقة، وإن موته، يختلف كلية عن انقطاعنا الطويل، وأحيانًا أبكي، بهدوء، وأنا أسمع صوتي.

(١٣)

يومي كما هو، بروتينه، بساعاته الضائعة، وببعض الكتابات، بين وقت وآخر. لم تعد هناك، معركة، هذا ما يؤرقني الآن، ولا أدري لماذا تخايلني كلما صحوت أكياس الجلوكوز الفارغة، التي كنت أهرع لملئها في غيبوبة أمي؟! لا أحد يمكنه أن يحيا، دون معركة، معركة تنمو إلى جواره، وتسير خلفه، كظله، كلما تحرك، لم يعد بمقدوري أن أردد العبارة التي طالما رددتها في السنوات الأخيرة، حين أخبر "رمزي" "رئيفة"، لما قابلها بالمصادفة في الطريق، بأنه يعرف مكاني: "طيب يهوب ناحيتي بس"، لم يعد لتوعدي له معنى، لم أعد أحتاج إلى إعداد كل "سيناريوهات" لقائي الدامي به.

لن يجيء، لن يجيء أبدًا، ولن يقف وراء سور بيتي، كطفل مذنب، وأفتح له، لن يحدث أبدًا، فُتح له باب آخر، وانغلق عليه إلى الأبد.

(١٤)

عرفت من "أحمد وهبي" صاحب بيتنا القديم، أن "رمزي" قد تخلّى عن "راجي" تمامًا، منذ عامين، انتقل بأسرته، بعدها، من مصر الجديدة، إلى "التجمع الخامس"، دون أن يبلغه بمكانه الجديد! أيقنت أنني "ألهمته" الحل، فهرب مثلي، بلا ندم، بلا ذاكرة.

عرفت منه، أن أبناء خالتي، قد أودعوا "راجي" إحدى دور المسنين، صار في السبعين! تلقيت رقم عمره بدهشة، وطلبت منه أن يسألهم عن مكانه، فكرت في أن أذهب إليه، لأراه، وربما أعود به إلى بيتي الجديد، لكنني ترددت في اليوم التالي، مع شعور مؤرق بالذنب، بعدها بأيام قليلة، جاءني نبأ موت حلقة الوصل الوحيدة، أو هكذا عللت لنفسي، بيني وبين أبناء خالتي، الذين تقطعت بيني وبينهم الأسباب، وبيني وبين أخباره بالتالي، مات صاحب بيتنا القديم، وصديق العائلة، فتقبلت موته، بحزن خافت، على غير توقعي.

سيلزمني جهد، لأعيد العلائق القديمة مع العائلة، كي أعرف مكان "راجي"، كل علاقاتي القديمة انقطعت فور أن دخلت من باب بيتي الجديد، حتى من كنت "مدينة" لمواقفهم معي، وتوقعوا مني أن أسدد ديوني تباعًا، كأنني أنا نفسي كنت معلقة بخيوط غير مرئية، بذلك البيت القديم، لأربعين عامًا بكاملها، وكأنهم لا يستطيعون رؤية سوى ذلك الكائن، المعلق في جدرانه، كأنني كنت عنكبوته المقيم، عنكبوته الخارج، أخيرًا، عاريًا، وفي فمه كل ذباب العالم، يجري به، لاهثًا، ومذعورًا.

أرجأت، في النهاية، مسألة، البحث عن "راجي"، إلى أجل غير مسمى، وأنا أقول لنفسي العبارة نفسها، التي صرت أستند عليها، بعد الستين: من قال إن الأقدار نفسها تتواطؤ معنا، أحيانًا؟!

ماتت "دادة سعدية" مربية طفولتي، أيضًا، وراءهما، بعد أن أرجأتُ زيارتها، كثيرًا، متذرعة بانشغالي، طول العام الماضي، بعد علمي بمرضها، ماتت بعد أن تجاوزت الثمانين، طالت حياتها، كثيرًا، على غير ما توقعنا، نشرت لها نعيًا، صغيرًا، ثقل قلبي لساعات، لكنني لم أبك.

ثلاث ميتات في أربعة شهور، دون حزن، أو كحزن وُلِدَ مُجهضًا، يموت "رمزي"، ثم تنفس بصعوبة، مرتين، قبل أن يموت تمامًا. ثلاث ميتات، تسرع كل منهما الخطى وراء الأخرى، كأنني، وأنا أشهد عليهن، كما كنت أفعل دائمًا، يدفع بي مخرج دفعًا، كأي كومبارس، لا يجد أحد وقتًا كي يحفظه دوره، ولا مفر لديه من أن يرتجل.

ثلاث ميتات متسارعة، كأن كل منها يريد أن يلحق بالأخرى، كي يظهر في "لقطة"، ولو واحدة، إلى جوار "البطل"! ثلاث ميتات متسارعة، وأسمع دقاتها الثلاث المتتالية، ترن في قلبي، كدقات عصا مسرح، خلف ستار: "تك.. تك.. تك".. قبل بدء العرض.

حدائق الأهرام/ في العام 2019
كُتبت منذ منتصف أبريل، وتمت/ فجر 2 أغسطس.

الفهرس

الصفحة

ما لم تكتُبه فاطمة قنديل هو ما كتبَتْها!

"أقفاص فارغة" عملٌ مُوجع وكاشف، يتصاعد بناؤه من فِقرات سردية قصيرة تحمل مفارقات الشعر والتماعاته الخاطفة. هي سردية روح شاعرة يتفتّح وعيها بذاتها وسط العواصف التي أخذت تضرب الطبقة المتوسطة المصرية طوال الثلث الأخير من القرن العشرين. وتطرح كاتبته من جديد سؤال الشكل السِّيَري في الكتابة الروائية، وعلاقة جمالية التذكُّر بالتخييل، والأدب بالاعتراف.

ملامح بلد وعصر بأكمله تظهر من بين تصدعات طبقة، ومن خلال صراع الراوية الوجودي مع الحياة: من مدن القنال والحروب المتتالية والنزوح والتهجير إلى ضواحي شرق القاهرة في ازدهارها وأفولها إلى المهاجر النفطية وإعارات المعلمين. زمن عاشته كل البيوت المصرية بدرجات متباينة لا ترويه فاطمة قنديل، لكنها تعيشه معنا دمًا ولحمًا، بكل الأفراح المختلسة والأحزان المقيمة والخوف من الغد الذي لا يتبدد.

فاطمة قنديل: شاعرة وأكاديمية مصرية، أستاذ مساعد للنقد الأدبي الحديث بقسم اللغة العربية، كلية الآداب - جامعة حلوان. ولدت في السويس ١٩٥٨، وحصلت على الماجستير عن أطروحتها "التناص في شعر السبعينيات"، وحصلت على الدكتوراه عن أطروحتها "عن شعرية الكتابة النثرية لجبران خليل جبران"، شاركت في تحرير مجلة "فصول للنقد الأدبي"، صدر لها شعرًا: "عشان نقدر نعيش" أشعار بالعامية المصرية ١٩٨٤، "حظر تجول" أشعار بالعامية المصرية ١٩٨٧، "صمت قطنة مبتلة" دار شرقيات ١٩٩٥، "أسئلة معلقة كالذبائح" دار النهضة العربية ٢٠٠٨، "بيتي له بابان" دار العين ٢٠١٧، فضلاً عن العديد من الدراسات والترجمات والمقالات الأدبية.

غلاف ورسوم: دعاء العدل




ISBN 978-977-803-146-1
9 789778 031461 >